كتاب الهلال

مصر في فكر العالم

مصطفى نبيل



سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**
رئيس التحرير **مصطفى نبيل**
مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
FAX -3625469 : فاكس
العدد ٦٢٣ - شعبان - نوفمبر ٢٠٠٢
NO - 623 -NO- 2002

اسعار بيع العدد فئة ٥ جنيهات
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ٢٥ ١دينار - السعودية ١٢ ريال - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريال - دبي / أبو ظبى ١٢ درهم - سلطنة عمان ١.٢ ريال - المغرب ٤٠ درهم - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات .

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصر
فى فكر العالم

مصطفى نبيل

دار الهلال

الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

مقدمة

لا تتفجر طاقات الإبداع عند الأجيال الجديدة، إلا إذا وجدت أهم الأعمال التى انتجها العقل البشرى، متوفرة وميسرة له ومكتوبة بلغته.

والكتب ليست أوراقاً، بل مادة حية من لحم ودم، قدم أصحابها رحيق أفكارهم وحياتهم، وماهو جدير بالقراءة منها ليس بعيداً عن نبض الحياة.

ومن يتعود على قراءة الكتب، تنمو لديه غريزة إقتنائها، ليس لمجرد مافى قراءتها من متعة، بل يصبح منظرها من حوله خلابا، ويجد فى إحاطتها به دفئا وإطمئنانا لقدرته على الوصول إلى المعارف المختلفة.

والكتب - بحق - مستودع المعرفة، وأداة توصيل الخبرة الإنسانية عبر الزمان والمكان معاً.

وهذا الكتاب سياحة بين دروب الكتب، يكشف الواجهات المضيئة والأقبية المظلمة، ويتعرف على

الملوك والصعاليك، علي القراصنة والأمراء، على الضياء والظلال.

فخلال جولاتى بين الكتب ، كثيراً ما استوقفنى بعضها ، وجذبنى إلى مافيه ، وأخذت أبحث على كل ما له صلة ببلادنا ، فما أقدمه من كتب يجمعها خيط واحد ، هو ما يتعلق بالوطن ومستقبله.

ولكل كتاب مغزى خاص ، يرصد جانبا من صورة متعددة الألوان والأبعاد ، ويلقى الضوء أحيانا على عناصر الضعف والقصور ، وأحيانا أخرى على عناصر القوة وطريقة زيادتها.

وحاولت - على الدوام - أن أرصد ملامح الوطن ، وخاصة فى عقل الأخرين، ولا يمكن فصل ذلك عن ملامح العصر الذى نعيش فيه، مشاكله وآفاقه.

ويأتى اختيار هذه الكتب بناء على مقياس محدد ومعيار ثابت، ونقطة البدء أن يكون شيقا وجذابا،

وأن رسالته ، تستحق المناقشة، فكل كتاب يمثل رسالة نبعت من عقل صاحبها.

وأتصور أن المعرفة فى أصلها، هى إرسال واستقبال، فمهما قال الكاتب، وليس لدى القارىء الاستعداد لتلقى الرسالة، ذهبت أدراج الرياح، ويقع ذلك، إما لسوء العرض، أو عدم الصدق فيه، أو أن تكون الرسالة خارجة عن اهتمامه. فلا يمكن أن ينبت الزرع في الأرض البور.

ويقبل القارىء على الاطلاع، عندما يجد إجابة عن الأسئلة التى تدور فى ذهنه، أو أن يكون الموضوع داخل ضمن اهتماماته.

●

فبلدان الشرق بلا إستثناء، مرت بتحولات عنيفة، وتمر بامتحانات قاسية، وهذه الكتب التى أقدمها ، تمثل إهتمامات متشعبة فى المكان والزمان، وقد اخترت تلك التى تتصل بقضايا مازالت تعيش معنا، وهى تدور حول الملامح

الأساسية والمتعلقة بالمبادىء والأفكار والأخيلة والأحلام.

وكل كتاب من هذه الكتب يرتبط بقضية تهمنا، وهى فى مجموعها تطرح العديد من الأسئلة الجديرة بالاهتمام والتأمل والمناقشة.

أقدم عرض هذه الكتب للقارىء، حتى يشاركنى الاهتمام، ويتحول مافيها من أفكار ومعلومات إلى حوار وتفاعل، وهى كتب بعضها عربى وبعضها أجنبى، بعضها صدر حديثا وبعضها الآخر قديم مجهول، وليس معنى اختيارى لهذه الكتب أنى موافق وراضٍ عنها جميعا، ولكنى استعرض ما أراه جيداً ولااستبعد الكتب التى ربما تحمل آراء لا نوافق عليها.. وأقدم هذه الكتب حتى تتحاور الأفكار المتباينة.

ويحدث خلال قراءاتى عن الكتب التى تتناول ملامح الوطن، وتصور هذه الملامح فى عقل الكاتب، ومعظم فصول هذا الكتاب، تلقى الضوء

على جانب من حياتنا. وتقدم تفسيراً لبعض المشاكل التى تصادفنا، وربما يأتى على رأس هذه القضايا قضية «الحرية»، باعتبارها حلقة رئيسية تبين معالم المستقبل، ويتناول علاقتنا بثقافة العالم. ويرسم ملامح العصر الذى نعيش مشاكله وآفاقه.

ولا يمكن أن تتناول مصر بمعزل عن الشرق، فهى جزء منه بقيمه وأفكاره. كما لا يمكن لك أن تعزلها عن التطور التكنولوچى الذى يحدث فى العالم. ولا أن تتجاهل الصراع الذى يدور حولها، وهى بحكم إنتمائها طرف فيه وجزء منه.

●

ففصل «مصر والمصريون» واضح الدلالة فهو يتناول تقديم كتب تدور حول مصر، تاريخها وحاضرها، وأحيانا عمارتها وشخصيتها التاريخية.

أما الكتب التى عرضتها تحت عنوان «خفايا الشرق». فلا أظن أن أحدا يجادل فى أننا جزء من

الشرق، وأننا وجميع بلدان الشرق نسعى إلى التخلص من التخلف وتحقيق نهضة حقيقية، وهناك عوامل مساعدة وأخرى تشكل عقبات حقيقية، رصدت وألقت بعض هذه الكتب الضوء على هذه القضية.

أما «أمريكا وثقافة العالم»، فهو يرصد التحديات التى علينا أن نتعامل معها، وإذا كان الأمل فى السابق أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية، بالعمل على الوصول إلى تسوية فى الشرق الأوسط، فما جرى خلال العامين الماضيين، عامى الانتفاضة، يؤكد أن هذا وهم صدقناه، وحان الوقت للنظر فى عين الحقيقة. مهما كان ذلك صعباً.

وإذا كان إنحياز أمريكا لإسرائيل قائم منذ نشأة إسرائيل عام ١٩٤٨، إلا أنه تصاعد الأمل بعد الاتفاقية المصرية الإسرائيلة فى موقف أمريكى متوازن من الصراع العربى الإسرائيلى، على

اعتبار أن أمريكا شريك فى صنع السلام وتحقيق التسوية العادلة فى المنطقة، وفجأة تبين أن ذلك كله محض سراب!

أما «نحن والمستقبل»، بعد أن أصبح الفكر صناعة راسخة الأركان، فهو عرض لكتب ترسم ملامح عصر جديد.. وعالم جديد، إذا لم نلحق به، وإن لم تصبح ثورة الاتصالات جزء من حياتنا، وإذا لم نتعامل بكفاءة مع الثورة التكنولوچية القائمة، فسنخرج من التاريخ.

آمل أن يزيد هذا الكتاب من المعرفة، ويساهم في تنمية القدرة على إدراك العالم من حولنا، لكى نحتل مكاننا ومكانتنا فى العالم المعاصر.

فحان الوقت لاستئناف دور الفكر والمفكرين، وعودة الحوار، وقيام تيار فكرى واسع يتعامل مع قضايا العصر، ومتغيرات المستقبل.

وحان الوقت أيضا لكى نصل إلى نقطة بدء، لإعادة الحياة لمشروع النهضة، لكى يتواصل المستقبل مع الحاضر.

الباب الأول

مصر والمصريون

جذب اهتمامى عنوان هذا الكتاب «مصر والمصريون» وشدنى – إليه كاتبه إليكسى فاسيلييفا المستشرق السوفييتى الذى كثيرا ما التقينا به فى منتديات القاهرة ، والذى درس فى جامعاتها ، ثم عمل مراسلا صحفيا مدة أربع سنوات .

– خاصة أن الكتاب يتناول جوهر مصر ومكونات شخصيتها ، والدور التاريخى الذى قامت به ، وما ينتظرها فى المستقبل .

ولم يخف الكاتب هدف هذا النوع من الدراسات، والذى يبحث عن طبيعة شعب من الشعوب ، ويذكر أن دراسة الشخصية المصرية فى الدوائر الغربية ، . وفى اسرائيل ، ليست ترفا ، وليست مجرد دراسة علمية ، بل غدت عنصرا مهما فى رسم السياسة الخارجية ، وذات أهمية خاصة على تنظيم عمليات الانتاج ، وإقامة الروابط الثقافية والعملية ، ولها أهداف سياسية واقتصادية وتجارية ، وكان الوجه الآخر لهذه الدراسات هو إظهار صورة سلبية للعربى فى مقابل النموذج الايجابى للشخصية الاسرائيلية ! .

وفيما يخص توجيه الانتاج ، يلاحظ الدراسات الواسعة التى يقوم بها اليابانيون حول عادات وتقاليد الشعب العربى ، ويوجهون الانتاج اليابانى لملابس الحجاج والسبح والشيشة الكهربائية أو الترامس التى تستخدم فى «المقابل» فى اليمن ، ونوع وألوان السيارات والأجهزة الالكترونية المختلفة .

إنه أمر شائق حقا أن نتابع ما يخطه أحد المستشرقين السوفييت ، وأن نرى إلى أى حد تمكن من فهم الشخصية المصرية دون تحيز ، فى كتاب هو مزيج بين الدراسة الاكاديمية التى تقوم على المراجع والأرقام مع التجربة المباشرة والمشاهدة الحية خلال إقامته فى مصر .

فهل استطاع الكاتب فى ظل سياسة إعادة البناء - البرسترويكا - أن يتخلص من القوالب الفكرية الجاهزة ، والأحكام المسبقة التى تطلق عادة على ما يجرى فى دول العالم الثالث .. وهل استطاع أن يتخلص من الخلط الشائع بين الوقائع والأفكار ، بين الأعمال الفكرية والمواقف السياسية ؟!

ويظهر أن الكاتب قد تخلص - إلى حد بعيد - من القوالب الجاهزة ، ويكفى أن تعرف أنه أشاد بحكم وقدرة الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد ، وهو المعروف بحملاته الواسعة ضد الشيوعية ، كما أنه اعتمد في معظم ما كتب على ما يعالج في أوساط الكُتّاب في القاهرة .

وإن بقيت ملاحظة مهمة ، كثيرا ما تتكرر في المصنفات الاجنبية التي تعالج قضايا مصرية ، هو عدم التفرقة بين القضايا الأساسية والتفاصيل الثانوية ، وتدهش لما تلمسه من إدراك لقضايا مهمة ، وما يشوب التفاصيل من عدم الدقة ، مثل ما ذكره من أنه في عام ١٩٦٤ انتقل أحد اليساريين من غياهب السجن إلى كرسي الوزارة ، وهو ما لم يحدث .

ورغم ذلك ، لا يمكن إنكار الجهد الذى بذله الكاتب ، وهو يتابع بدأب الكثير من الظواهر الاجتماعية ، ويصف ما يجرى في حفلات الذكر للطرق الصوفية ويحضر المآتم والأعراس ، ويتجول في أنحاء البلاد من الاسكندرية حتى أسوان ، يشاهد ويناقش ويسجل ، فإن لم تتوفر له الاحاطة الكاملة بالعادات والتقاليد وبتاريخ مصر وتطورها - فعلى الأقل - فقد عاش بين أهلها مايزيد على خمس سنوات .

وعلى أية حال .. من الضرورى متابعة كل ما يكتب عن التجربة المصرية ، بلا غضب من النقد أو من سوء الفهم ، حتى لو كان هذا النقد قاسيا .

البحث عن الذات

ومحور الكتاب هو محاولة فهم «الشخصية المصرية» ويعتمد فى ذلك على ما دار من مناقشات بين المدارس الفكرية المختلفة ، خلال القرن الماضى ، وهو حوار بين العروبة والفرعونية ، بين الاسلام والقومية ، بين ماهو مكون الشخصية المصرية ، ومن هو المعبر عنها .. وما هو دورها ورسالتها فى العالم المعاصر ، وإلى أى حضارة تنتمى ؟

وهذه الاسئلة سبق وطرحت بعد هزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ ، وخلال ثورة ١٩١٩ ، وبعد ثورة يوليو ، وخلال العقود الثلاثة الأخيرة ، بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد إتفاقية الصلح المصرى الاسرائيلى ١٩٧٧ .

وعالج هذا الموضوع كثير من الكُتّاب ، منهم حسين مؤنس «مصر ورسالتها» ، وحسين فوزى «سندباد مصرى» وشفيق غربال «تكوين مصر» وجمال حمدان «شخصية مصر» ، وسليمان حزين «حضارة مصر» .

وعباس محمود العقاد فى مقدمة كتاب «سعد زغلول» وطه حسين فى «مستقبل الثقافة فى مصر» .

وواضح أن هذه الكتب جميعا كانت جزءا من معرفة الكاتب .

ونقطة البداية لوحة تضم تمثال نهضة مصر الذى أبدعه الفنان محمود مختار والجامعة من خلفه ، ويتوقف الكاتب عنده طويلا ، سواء عند المدرسة الفنية الجديدة التى يعبر عنها ، أى مصر الحديثة التى تستوحى مصر الفرعونية ، أو عند معنى النهضة التي تتوق مصر ، والأجيال الجديدة التى تظهر فى اللوحة أمام الجامعة .

وينتقل من هذه الصورة إلى قضية الهوية المصرية ، ويعتبر المثال محمود مختار هو المعبر عن الهوية المصرية العربية ، فـ .. «الفن المصرى القديم لا يلمس وحدة الأوتار الحية فى نفوس غالبية المصريين ، رغم أنه يثير .. إعجابا وله الذواقة ، والفن العربى مازال كتابا مغلقا للعامة .. فمصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى عاش أهله على إمتداد العصور على ضفاف نهر واحد .. وهى البلد الوحيد الذى حافظ على كيانه كدولة موحدة على امتداد ستة آلاف سنة دون انقطاع .

وبالتالى كان المدخل الطبيعى لفهم الشخصية المصرية ، أن يطوف فى أنحاء الوادى ويتوقف عند الفلاح والقرية المصرية .. فهذا الفلاح لا يعرف الراحة منذ آلاف السنين ، ويتوزع على ثلاثين ألف عزبة وأربعة آلاف قرية ، تضم القرية ما بين خمسة عشر أو عشرين ألف فلاح ، والقرية المصرية يظهر فيها من بعيد أبراج الحمام التى تقطع الأفق وتبعث الحياة فى المنظر الرتيب ، وترى الجرار المكسورة تثبت القعر فى جدرانها كأعشاش جاهزة .

ولم تستفد مصر بعد من كل إمكانيات إنتاجها الزراعى ، وخاصة إنتاج المحاصيل التصديرية مثل الزهور وزيوت العطور ، ولم يستفد الفلاح بعد بالقدر الكافى من خصوبة الأرض ، وعندما يفعل فسيتغير الميزان التجارى لصالح مصر .

ورغم أن مصر أكثر البلاد الزراعية عراقة ، فهى لا تدخل ضمن الدول العشر الأولى فى العالم فى إنتاج الحبوب ، فهل يعود ذلك إلى المناخ أو إلى خصوبة التربة ، وهل هذه المكونات أسوأ مما فى هولندا أو ألمانيا أو اليابان ؟ بالقطع لا ، فالمسألة ليست التربة أو المناخ ، بل مستوى «التقنية» الحديثة ، ونوع الآلات

والتقاوى والأسمدة المستخدمة وتتوقف أيضا على مستوى معرفة الفلاح ومدى تمتعه بروح المبادرة ، ومدى ما يعود عليه من نتاج عمله .

القاهــرة

بعد أن طوف الكاتب فى أرجاء البلاد ، ينتقل من الريف إلى العاصمة . فتعتبر القاهرة اليوم ضمن أكبر عشر مدن فى العالم ، وهى أضخم مدينة فى الشرقين الأوسط والأدنى ، وفى العالم القديم كله .

وهى من الحالات النادرة التى تعيش فيها البلاد كلها من أجل العاصمة ، فليست القاهرة التى تقوم من أجل مصر ، ولا تسيطر القاهرة فقط على البلاد ، بل إنها تقهرها أيضا ، فتصبح البلاد كلها مثل ضاحية للعاصمة العملاقة ، ففى القاهرة يتركز خمس سكان مصر ، وثلث الموظفين ، ومن نصف إلى أربعة أخماس الأطباء والمهندسين ، مما يحرم الريف من الكثير من الخدمات .

وزاد هذا الوضع من حدة الانقسام بين المدينة التى تنفق والقرية التى تنتج ، وأصبح لمصر رأس ضخم وجسد هزيل ، ولا

تعرف مصر اليوم ما يسمى «الطبقة الوسطى» فهى أكثر الدول النامية رقيا من حيث عدد الحاصلين على التعليم العالى ، وفى ذات الوقت تعتبر نسبة الأمية من أعلى النسب .

ثم يقدم الكاتب بحثا عن التجار فى بر مصر ، ويتبنى القول أنه «فى جميع المجتمعات البشرية تعتبر الثروة مصدرا للسلطة ، أما فى مصر فالسلطة هى مصدر الثروة» .

ويعترف أن كل محاولاته فشلت فى الوصول إلى أرقام مؤكدة عن عدد التجار فى مصر ، حتى يبدو أن التجار أكثر عددا من المشترين ، وأكثر مما يحتاج إليه المجتمع ، ولم تستطع الشركات التجارية وشركات التأمين الاجنبية أن تستقر فى التربة المصرية إلا بصعوبة ، فالتاجر المصرى لا يحب الشريك ، والمصريون مع احترامهم للنفوذ والثروة ، يرفضون سلطانهما ، ويرفضون بصفة خاصة الاثراء غير المشروع .

والتجارة فى مصر تنمو ، وتتحسن بصورة ملحوظة المرافق ، ولكن أين ما هو أكثر أهمية ، وهو الانتاج ؟! وهل يتفق معدل نموه ومستواه مع حاجة البلاد التى سيبلغ سكانها فى مطلع القرن القادم ما يزيد على ٦٥ مليون نسمة .

والمصريون أساتذة فن التنازلات والمساومات والحلول الوسط !

وهم يبحثون على الوسط الذهبى، ويسعون إلى قبول الجديد دون التفريط فى القديم ، واتباع الأساليب العصرية مع الابقاء على التقاليد ، وأظهروا دائما أنهم يتحلون بقدر كبير من التسامح الدينى ..

فالحياة الشاقة والاضطهاد لا يمنعان المصرى من الاقبال على الحياة ، حتى عندما تدفعه الظروف إلى اعتلال المزاج والقنوط ، فهو يتغلب على الأسى ويلجأ إلى النكتة يضع فيها غضبه ويستعيد من خلالها توازنه .

وتؤكد لى خبرتى - يقول فاسيلييف - مدى صعوبة اجراء حديث صريح مع أحد المصريين فى المسائل الحساسة ، فكثيرا ما يخفى محدثك أفكاره ، ويسعى فى البدء لمعرفة أفكارك ، ثم يؤكد أنه متفق معك !!!

هذا وأصبح الحديث مع المصرى فنا خاصا، ووسيلة لبلوغ أكثر من هدف ، وخاصة إذا كان يتحدث مع أجنبى، أو مع ممثل الحكام أو جابى الضرائب، أو يظن أن محدثه من أصحاب السلطان .

ويعرف فى مصر ، تحميل الكلمات أكثر من معنى ، ولعل ذلك يرجع إلى الطرق الصوفية ، التى يميل أصحابها إلى التفاهم بالرموز والايماءات ويفرقون بين الظاهر والباطن ، حتى تبقى بعض المسائل سرا على غير الواصلين .

إن القدرة على قول ما يريد الغير سماعه هى فن يتقنه المصريون، وكثيرا ما يربك الأجانب ، وقد يهتف دبلوماسى سوفييتى بعد حديث مع أحد المصريين .. «أوه إنه ماركسى وصديق حقيقى ...» ويقول رجل أعمال أمريكى بعد الحديث مع الشخص نفسه .. «يا إلهى هذا هو المدافع بحق عن الحرية والقيم الغربية ، والصديق المخلص للولايات المتحدة ...»!

جوهر الشخصية

«إن العرب ظاهرة صوتية» هذا ما يقوله عبدالله القصيبى ، ويقول «دوما» وزير خارجية فرنسا بعد حرب الخليج» «إن العرب وهم كبير» ! ، فكيف يرى فاسيلييف العرب ، وكيف يعالج قضية «عروبة مصر» .

يبدأ هذا الفصل باستعراض طريقة نظر المصريين لأنفسهم ،، وهم يعتبرون مصر «أم الدنيا» ومهد الحضارة ويعتقدون أنهم أفضل أهل الأرض جميعا .

ولنلتقط هذا الخيط ونستعرض كيف تناول بعض الكُتّاب المصريين «الشخصية المصرية» .

كتب حسين فوزى : «إن المهمة التاريخية للمصريين هى بناء الحضارة والمصرى ذهب من عيار خالص النقاء ، ولم يستطع الزمن أن يغير طبعه فالمصريون يمصرون حتى غزاتهم» .

وكتب سليمان حزين .. «أرض مصر هى أرض الكنانة ، لأنها كانت مكنونة بين الصحارى ، وواديها محفوظ بحافتى الهضبة ، التى امتازت بأنها أرض قاحلة شديدة الجفاف لا يستطيع أن يقطعها الغزاة ، وكأن الصحارى بمثابة المصفاة التى لا تنفذ منها العناصر المهاجرة إلا بأعداد قليلة تستطيع البلاد أن تستوعبها .

إن إيمان المصرى العميق وقيمه الأخلاقية والدينية كانت عماد حياته وحضارته التى كانت أكثر الحضارات استمرارا وبقاء على الزمن ؟!

وكتب حسين مؤنس .. «لعل بلدا من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار ، كما تصدق على مصر ، فإن مصر التى ولدت من نحو سبعة آلاف سنة مازالت هى بعينها اليوم .. وهذا هو سر مصر قديمة وحديثة ، وهى مصر الخالصة

الصافية التى انشأها أبناؤها بجهدهم وفهمهم وعبقريتهم قبل أن يختلطوا بغيرهم .. وقارئ التاريخ ليفتح كتابه فيجد مصر فى المطلع ..

وكتب جمال حمدان .. «فرعونية هى بالجد ، ولكنها عربية بالأب ، ثم انها بجسمها النهرى قوة بر ، ولكنها بسواحلها قوة بحر ، وتضع بذلك قدما فى الأرض وقدما فى الماء ، وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم .

وهى توشك أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة . بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى ، وواسطة «العالم الاسلامى» وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى ..

وإذا كان لهذا مغزى ، فليس أنها تجمع بين الأضداد ، وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية ، وجوانب كثيرة خصبة ، بين أبعاد وآفاق واسعة بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسط» تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة ، بكل معنى الوسط الذهبى ..

لقد أوردت هذه الفقرات رغم طولها ، لأنها تنقل الحلقة المفقودة فيما جاء في كتاب «مصر والمصريون» وتصلنا بالنبع الذي استمد منه الكاتب أفكاره .

فيستعرض الكاتب المناقشات التي دارت بعد هزيمة يونيو ، التي اختلط فيها «البحث عن الذات» بالبحث عن طريق ، وإحياء الحوار من جديد بين العروبة والفرعونية ، وهو حوار بدأ في العشرينات ، عندما قام العالم المصري حسن صبحي بنشر صور تمثال أخناتون ، وإلى جانبه صورة أحد مرضاه مرتديا تاجا فرعونيا ، وظهر أنه من المستحيل لأحد التفريق بينهما .

وبعدها ، تم العثور على تمثال خشبي في إحدى القرى لأحد وجهاء المملكة الفرعونية القديمة ، وسمي هذا التمثال باسم «شيخ البلد» للتشابه الشديد بين ملامح التمثال وشيخ البلد في القرية .

وتؤكد التماثيل والرسومات على جدران المعابد ، التشابه الشديد بين المصري القديم والمصري المعاصر ، ويؤكد علماء الأنثروبولوچي (علوم الإنسان) أن الصفات العرقية للمصريين اكتسبت متانة وشخصية ذاتية فريدة ؛ ظلت دون تغيير على مدى التاريخ ، رغم أن مصر شهدت حوالى ٤٠ غزوا ، وذابت كل هذه

الغزوات في فيض سكان مصر ، فهي محمية بمنطقة أمنية جافة ، حالت دون التدفق الجماعي للشعوب ، فكان على كل من جاء إلى مصر ، أن يفقد أصله وثقافته ولغته لكي يتوافق مع بنية القرية المصرية . وأن ينتمي بالكامل إلى ثقافة البلاد .

ويكاد يكون الاستثناء الوحيد هم العرب ، عندما نسى المصريون القدماء أمام الحضارة العربية - الاسلامية أنفسهم ولغتهم وديانتهم ، وكأنهم ولدوا من جديد ، وأصبحوا عربا مصريين ، ويبدو أن سبب ذلك أنهم من أصل عرقي واحد .

ومنذ هذا الوقت والصراع يدور بين أصحاب الاتجاه العربي وأصحاب الاتجاه الفرعوني ، وطالب أصحاب الاتجاه الفرعوني باستبدال اللغة العربية باللهجة العامية ، وتغيير الحروف العربية بالحروف اللاتينية .

ولم تجد هذه الاتجاهات مؤيدين لها ، فيعني الأخذ باللهجة العامية التخلي عن كل التراث الثقافي العربي ، ويعني أيضا العزلة الثقافية للبلاد عن بقية البلدان العربية ، وهذا الذي يتبناه الكاتب يدل على موضوعيته ، فالمناطق الأسيوية من الاتحاد السوفييتي ، استبدلت لغاتها المحلية وتخلت عن الحروف العربية ، ورغم ذلك فهو يبين نتائج هذا العمل .

التعريب والتغريب

ويلاحظ الكاتب أن أصحاب الاتجاه الفرعونى ، كانوا من المدرسة الليبرالية المتأثرة بالغرب .. فلم تأت أوروبا إلي الشرق بجنود أجلاف غلاظ أو تجار جشعين فحسب ، بل أوفدت أيضا رحالة شجعان ، وعلماء مترفعين .

وصحيح أن البحث العلمى الغربى يهدف إلى زرع فكرة أن حضارته هى تتويج تطور الفكر الإنسانى ، وأن التفوق الذى تحقق، هو تفوق نهائى ، مما يعطى الغرب الحق فى التحكم فى مصير العالم ، إلا أن هؤلاء العلماء ، من حيث لا يقصدون قدموا لشعوب الشرق دراسات تتناول تاريخهم ، وتمكنهم من الاعتزاز بماضيهم، واسترداد ثقتهم فى أنفسهم وفى قدرتهم على مقاومة الوجه القبيح من الغرب .

واعتز المصريون الدارسون في جامعات أوروبا فى بداية القرن العشرين بالتاريخ الفرعونى ، واتجه هؤلاء إلى المناداة بعزل مصر عن العرب ، وشاركهم هذه الأفكار مجموعة من الكتاب والشخصيات السياسية ، ومن أبرز هؤلاء سلامة موسى ، الذى أكد على الطابع المصرى وتغنى بالفرعونية ، ودعا للاهتمام باللهجة المصرية ، وطالب بقيام لغة مصرية جديدة ! .

ورفض المجتمع هذه الدعوة، ورفض التخلي عن الماضي وعن الحضارة والثقافة العربيتين، وطرح هذه الأفكار جانبا، بعد أن تبين أن الحديث عن عظمة ومجد الفراعنة غريب عن السواد الأعظم من الأهالي الذين يمثل لهم التراث الاسلامي دينا ونمطا للحياة ومثالا ومعيارا لسلوكهم، واكتشف المصريون أيضا رابطتهم العضوية مع بقية العرب ، ووحدة مصيرهم جميعا ، حتى أصبحت فكرة الوحدة العربية أحد التيارات الفاعلة في كل الأقطار العربية .

ثم يتابع فاسيلييف المناقشات التي دارت بين د. طه حسين وساطع الحصري حول العروبة ، ويصل إلى المناقشات التي دارت في نهاية السبعينات والدعوة التي تنادي بحياد مصر وعزلتها عن المنطقة العربية ، والتي اشترك فيها كل من توفيق الحكيم وحسين فوزي ولويس عوض .

وكان الانتصار دائما لفكرة عروبة مصر .

وينتهي فاسيلييف إلى القول. إنه على مدى أطول تاريخ في العالم، شهدت مصر نهوضا ودمارا، وتغير وزنها النسبي وتأثيرها على مر الأيام. وما تغير اليوم هو العالم المحيط بمصر وليس مصر نفسها .

لقد تبوأت مصر القديمة قمة العالم بالمستوى المتقدم لقواها الانتاجية ، وبقدرتها في العلم والثقافة والفن ، أما مصر المعاصرة فهي الدولة العشرون في عدد السكان ، وهي الدولة الستون في حجم الانتاج القومي ، وهي التسعون في متوسط دخل الفرد ، وانتاجية الفلاح المصرى فيها تقل مائة مرة عن انتاجية الفلاح الأمريكي .

وفي الماضي القريب كانت مصر واليابان عام ١٩٤٩ متساويتين في متوسط دخل الفرد والذى كان يصل في كلتيهما إلى مائة دولار ، وكان غذاء المصرى المتوسط يفوق غذاء الياباني .

فماذا حدث بعد ٣٥ سنة ، ولماذا وصل نصيب الفرد في اليابان إلى حوالى ٩ آلاف دولار ، بينما وصل نصيب الفرد في مصر إلى حوالى ٥٠٠ دولار فقط ؟

إن الاجابة على هذا السؤال ، تتركز في طرق التنمية ووسائلها، فيلاحظ أن اليابان نجحت في عام ١٩٤٩ سنة الأساس في محو الأمية بالكامل .

فمتى تقوم مصر بمحو الأمية فيها ؟

إن عملية النمو تسير فى مصر ، ولا يعوزها الحماس الفردى والاجتماعى ، وتستوعب العقول فى مصر سيل المعلومات المتدفق ، ويمتد تراكم الثقافة فيها لآلاف السنين كل هذا معناه الوحيد ، إمكانية أن يظهر فى مصر مفكرون وقادة على مستوى تحديات العصر .

رحلة إلى الشرق

فى مصر القرن الثامن عشر :

ديمقراطية وصناعة ومؤسسات ودراما

تسود الحياة الثقافية بعض المسلمات ، تتردد على ألسنة وأقلام الكُتَّاب ، وتصل أحيانا إلى مصاف البديهيات ، يشغلك الموضوع ، يستنفرك ، تتأمله وتجمع أطرافه .

ويقع بين يديك كتاب ، يطرح القضية التى تشغلك ، يقدم الدليل الذى تبحث عنه ، ويأتى صوته من الماضى كشاهد عيان من القرن الثامن عشر ..

وهو ما حدث عندما قرأت كتاب «رحلة إلى الشرق» الذى كتبه الرحالة الألمانى كريستان نيبور ، ووصف خلاله كل مظاهر الحياة فى الشرق ، قيمه وأفكاره ، انجازاته وعاداته ، نظامه السياسى وأوضاعه الاقتصادية .

تصحب الرحالة فى جولاته فتتأكد أن أفكارا مثل الحرية وحقوق الانسان والتصنيع وبناء المؤسسات وحتى الكثير من الفنون مثل المسرح ، ليست - كما يدعون -

وافدا غريبا ، وإنما كانت مزدهرة وسابقة على دخول جحافل الغزاة الأوربيين !

* * *

ولا يمكن أن يتهم دليلنا بالتحيز ، فى تلك المرحلة التى يندر أن يوجد فيها رحالة أوربى ينصف الشرق ، عندما اختلط الرحالة بالجواسيس ، وأخذت تتفاعل داخل الغرب مشاعر متضاربة تنتقل بين الرومانسية والدوافع الاستعمارية ، البعض يجذبه الشرق مهبط الأديان ومسرح رواية ألف ليلة وليلة ، ويلهب خيال البعض الآخر ذكريات الحروب الصليبية والتحدى التاريخى الذى يمثله الشرق ! .

وكان نيبور لمحة ضوء ، ولحظة صدق نادرة ، وكان عشقه للشرق أداة معرفته ، وكانت رحلته قبل الثورة الفرنسية وقبل الحملة الفرنسية على مصر التى يحلو للبعض اعتبارها نقطة البداية لمصر الحديثة !

وعندما كان الغرب فى حالة نهوض يخرج مثل العنقاء من العصور الوسطى ويعيش عصر النهضة ، أما الشرق الذى يعيش حضارة مغايرة ، فقد تجمد فيه التطور تمزقه المنازعات

ويمـر بأزمة سياسية حادة ، وتعيش بلدانه ولايات تابعة للدولة العثمانية .

وها هو نيبور يقدم شهادته ذات القيمة التاريخية .

أبحرت الباخرة الدنمركية جرينلاند من أحد موانىء الدنمرك في يوم قارس البرد ، في الرابع من ديسمبر عام ١٧٦١ ، وعلى متنها خمسة من العلماء تضمهم ثلاث جنسيات بينهم متخصصون في اللغات والجغرافيا والعلوم الطبيعية والطب ، وصحبت البعثة على عادة تلك الأيام رساماً بدلا من المصور ، وقام بتنظيمها والانفاق عليها الملك الدنمركي فريدريك ، وكانت البعثة محل اهتمام وزير الخارجية لما تحمله من أهداف سياسية .

ولم يكمل الرحلة وظل حيا من أعضائها سوى نيبور الذى أكملها وسجلها في ثلاثة مجلدات ، وأصبح الشاهد الوحيد على رحلة الموت الطويلة .

وقفت البعثة في اسطنبول لشراء مستلزماتها وأهمها الملابس العربية ، ومر على البعثة ١٨ شهرا قبل وصولها إلى الاسكندرية وعصفت بأعضائها الرياح والمنازعات وأمضت حوالى سنة في مصر تدرس وتنقب ، ومنها سافرت إلى جدة في الحجاز-

وسـجل خلالها نيبور كل ما يقابله من جبال ووديان وصخور ، وأخذت بقية البعثة تجمع العينات ، ومن جدة انتقل إلى المخا في اليمن ، ويحكي نيبور كيف فزع موظفو الجمارك ، من العينات داخل الزجاجات التى تحتوى على الحشرات والثعابين ، وتعرضت البعثة للمتاعب فهى تهدف إلى دس السم للعرب وكانت العينات مهددة بالقائها فى البحر لولا تدخل بعض التجار البريطانيين لدى الوالي .

وزارت البعثة صنعاء وقابلت إمام اليمن الذى أخذ يسمع بدهشة إلى تفاصيل مهمتهم وأخذ يتساءل عن الملك الدنمركى وأحواله . وفتنت مدينة صنعاء نيبور بأسواقها ومبانيها القائمة فوق الجبال ، ومن اليمن قصدت البعثة الهند ، وخلال الرحلة تساقط أعضاء البعثة صرعى واحداً بعد الآخر ..

ومر نيبور فى طريق العودة بمسقط فى عمان ثم فارس وزار بندر عباس وشيراز وبوشهر وجزيرة خرج ، ثم وصل إلى البصرة، بعد أن رسم خريطة وافية للخليج العربى ، وزار فى العراق الموصل وديار بكر ،وبغداد ،، وكان أول أوربى يدخل مدينة النجف، ثم اتجه مع أحد القوافل إلى حلب وزار دمشق ، وفى فلسطين زار يافا والقدس وبيت لحم وعكا ورسم بيت المقدس ..

وأخيرا عاد فى ٢٠ نوفمبر عام ١٧٦٧ إلى كوبنهاجن وحيدا بعد ستة أعوام ، ومعه خرائط وعينات ، ومذكرات ، وكلفت الرحلة الحكومة الدنمركية ٢١ ألف جدالر أى حوالى ٥٠ ألف جنيه استرلينى ..

وجمع عددا كبيرا من المخطوطات النادرة ، وبدأ يكتب تفاصيل أسفاره بذاكرة لا تكل .

وحدة الشرق

تعاملت البعثة مع العرب والترك والفرس ومسلمى الهند باعتبار الجميع وحدة واحدة ، ذات قيم مشتركة وسمات واحدة وطعم خاص ، ويبدو نيبور عندما يسجل كل ما يراه أقرب إلى العالم منه إلى الفنان وكتابه أقرب إلى العمل التسجيلى وتظهر روحه العلمية عندما يشاهد فى مصر ما لم تتوصل إليه أوربا ، ولا يملك سوى الدهشة ويتمنى أن تتعلم بلاده من الشرق ما لم تتوصل إليه ..

وقد عشق نيبور مصر بشكل خاص ، ويكتب : «نعرف مصر فى أقدم ما يصل إلينا من شواهد التاريخ بلداً كثير السكان عظيم الشهرة ، ونعرف أن تاريخ الشرق ظل يذكر مصر ويكثر من ذكرها .

ويلاحظ قارىء رحلة نيبور أنه ابن الحضارة الغربية الذى ينظر إلى كل ما هو خارج حضارته نظرة تتسم بالدهشة ، ويظهر دهشة فائقة إذا شاهد صناعة متقدمة أو عملا فنيا راقيا ، ويعود ويظهر دهشته عندما يفاجأ فى مصر بوجود صناعة تفريخ البيض التى لم تعرفها أوربا - فى هذا الحين - واسعة الانتشار ، وكذلك صناعة النشادر ، وهى نظرة الغرب إلى الشرق التى مازالت قائمة ..

وتتسم ملاحظات الرحالة بالدقة العلمية ، ونجده عندما يتكلم عن الاسكندرية يقول : «تقع مدينة الاسكندرية أو سكندرية ، كما ينطقها الأهالى » وعندما يصل إلى القاهرة يلاحظ أن اسم القاهرة لا وجود له سوى فى الكتب فالأهالى يقولون عنها مصر ، ويرسم خريطة للعاصمة بدقة نادرة ، ويقيس بعض شوارعها بالخطوات ، وكانت عملية بالغة الصعوبة ، «رسمت خريطة لكل من القاهرة ، والمدن القريبة وهى بولاق ومصر العتيقة والجيزة ، وكانت مهمة شاقة بل وخطيرة لتعنت أهل القاهرة مع الأوربيين ، وهذه المهمة لم يقدم عليها أوربى ، ولكنى تجاسرت وقمت بقياس أطوال كل الشوارع بالخطوات وبخاصة المفتوحة ، وقمت بتحديد اتجاهاتها مستعينا ببوصلة صغيرة .

وبين الشوارع الرئيسية أحياء يقيم فيها أصحاب الحرف وغيرهم من فقراء الأهالى الذين لا يعملون كما هو مألوف فى الغرب في بيوتهم ، بل يعملون ، فى دكاكين صغيرة بالسوق ، ينتعشون وينتظمون داخلها .

ولهذا كان غريبا ظهور أحد الغرباء خلال النهار ، فليس مألوفا ذهاب أحد لزيارة صديق فى بيته ، ومن يقابل الغريب يتصور أنه ضل الطريق ، ويلفت نظره إلى أن الشارع مسدود ، لذلك تعذر زيارة كل الأحياء ..» .

ورغم كل هذا الجهد العلمى إلا أنه يشوب بعض ملاحظاته اعتماده فيما يسوقه على خادمه اليونانى وطباخه اليهودى ..

حياة مصر السياسية

كانت مصر عندما زارها نيبور ولاية عثمانية نجح المماليك فى الحصول على أحد صور الاستقلال الذاتى ، وكان يدور فى أرضها صراع رهيب بين قطبى المماليك محمد أبو الدهب ومحمد على الكبير ، ورغم هذه الظروف شهدت البلاد أحد صور الديمقراطية ، ويعرض نيبور لنظام الحكم بقوله : «إن نظام الديوان فيه سمات الديمقراطية النيابية ، فكان الديوان يعزل الوالى إذا غضب عليه .

وعندها يرسل مبعوثا إلى الوالى يطلق عليه «أبو طاقية» والذى يقوم بفرش البساط الأحمر تحت قدميه إشارة إلى رغبة الديوان فى تخليه عن الولاية » .

ويصف «نظام الديوان بأنه يخضع للأفكار «الجمهورية» فهو يتكون من البكوات ورؤساء القوات المصرية والعديد من وجهاء القاهرة من شيوخ الأزهر الشريف ورؤساء الحرف ، وكثيرا ما يعزل المصريون الوالى المعين من قبل السلطان ، وقد شهدت خلال وجودى فى مصر طرد الوالى ، والباشا أى الوالى هو الذى يعين فى المناصب العليا ، ولكن الديوان هو الذى يرشح الموظفين ..

وكانت القاهرة تعج بصغار المستبدين الذين يتخذ كل منهم حرساً خاصا ، وتمتلىء بالأحزاب السرية والعلنية ، ويسعى كل منهم لاسقاط غرمائه وأن يكون الحكم فى يده .. ويضيف : «قد يظن البعض أن الأمن حظه ضئيل بين الجموع الغفيرة التى تسير فى الشوارع الضيقة ، والحقيقة أننا لم نسمع عن حوادث سرقة وقتل تزيد عن تلك التى تحدث فى أى مدينة أوربية كبيرة..»

ويتحدث عما نصطلح عليه اليوم بالمؤسسات الديمقراطية ويقول : «لكل حرفة شيخها الذى يعرف كل أهل الحرفة ، وحتى

العاهرات واللصوص ، فإذا تعرض أحد للسرقة يتوجه إلى شيخ اللصوص ، فيعيد إليه ما سرق منه ، لقاء مكافأة سخية فى أغلب الأحيان ، ويتحدث عن الرقابة على الحرف والأسواق فيقول : «يذهب المحتسب ليلا ونهارا ومعه حاشية كبيرة إلى الأحياء ، ويتأكدون من صحة ومقاييس وأوزان البضائع المعروضة فى السوق وأسعارها ، ويظل الخوف الدائم «من المباغتة يلزم أصحاب الأفكار الشريرة حدودهم »».

وتسهم الأبواب العديدة على مداخل الأحياء المنفصلة ، وعلى الطرق الرئيسية فى ضمان أمن الأهالى ، وعندما ينشب صراع بين الكبار فى القاهرة ، سرعان ما تغلق الأبواب ويحال بين عامة الشعب وبين القوى المتصارعة ..

ويتعجب نيبور عندما لا يجد لدى المصريين صحفاً تصدر تعبر عن الرأى العام فى البلاد !!

الشرق والغرب

وأهم ما نقله نيبور ضمن مشاهداته وملاحظاته ، ما يعيشه الشرق من استشعار للخطر القادم من الغرب فى هذه المرحلة المبكرة ، ويسجل فى هذه المرحلة تلك اللحظة النادرة للقاء بين

الشرق والغرب ، وكأنه لقاء فى وسط منحدر ، الشرق يهبط من القمة والغرب فى حالة صعود إليها ، أبناء الشرق يجمعون قواهم لوقف التدهور والاستجابة للتحدى الذى يمثله الغرب وتقعدهم المنازعات الداخلية والفرقة ، والأوضاع السياسية التى تحافظ عليها الدولة العثمانية . والانعكاسات القائمة فى ميزان القوى الدولى !

هذه هى اللحظة التى نلمحها متفرقة فى رحلة نيبور إلى الشرق ، فما أيسر أن تعثر لدى المؤرخين على قصة صعود وانتصار حضارة ، وما أصعب أن تعثر على الطرق التى تؤدى للتردى والتى تلقى الضوء على دروب الاضمحلال .

إن أهمية ملاحظاته أنها جاءت فى المرحلة السابقة على الغزو الأوربى ، يقول فى مقدمة كتابه ؟! «فرحت عندما وجدت العرب بشرا كالأمم المتحضرة !» .

ويصف حالة التوجس والعداء للأوربيين فى مجموعة مشاهد يقول : «لا يسمح للأوربيين بركوب الحمير فى القاهرة ، وعليهم إذا ركبوها أن ينزلوا منها إذا أقبل عليهم أحد البكوات من وجهاء القاهرة ، فما أن يظهر أحدهم على صهوة جواده ، يتقدمه أحد

أتباعه ممسكا هراوته ويتصدى لأى أجنبى يظل راكبا حماره ، فيأمره بالنزول ، فإذا لم يفعل صب عليه جام غضبه وقد تحول تاجر فرنسى إلى قعيد أمام موقف مشابه ، وكنت فى البداية أركب حمارى يتقدمنى انكشارى وخلفى خادمى ، وكانا يظلان على حماريهما جالسين بينما يطلب منى النزول ، ولهذا آثرت أن أسير على قدمى تجنبا لهذه المهانة .» .

وحتى القناصل لا يركبون الجياد إلا عند ذهابهم للباشا . وإذا ساروا فى الطريق سمعوا ألفاظ السب واللعن يوجهها إليهم العامة ..» .

وإذا صحبناه خلال رحلة بالمركب من رشيد إلى القاهرة نجد «أن البحارة لم يرضوا ذكر أسماء القرى التى نمر عليها ، كما جرت العادة أن تضىء المركب التى تحمل أوربيين مصباحا أثناء الليل لتنبه الجميع إلى وجود الغرباء ..»

ويذكر أيضا «أن دمياط ليس بها تاجر أوربى واحد فقط كان للفرنسيين فيما مضى قنصل وعدد من التجار . وأشاع الأهالى أنهم لاحظوا أن الاوربيين مالوا إلى نساء دمياط ميلا مفرطا ، فقتلوهم جميعا ، فلم يعد يسمح لأحد من الفرنسيين أن ينزل

المدينة حتى البحارة أنفسهم ، ومن له أعمال فى دمياط أصبح ينجزها عن طريق وكيل» ويضيف «إن أهل دمياط مازالت تحمل ذاكرتهم الحروب الصليبية ، فيعادون .، الأوربيين جميعا عداوة كبيرة وقد ارتدينا الملابس التركية لتجنب غضب الأهالى وحنقهم..»

نهب الآثار

ومنذ رحلة نيبور وعمليات نهب الآثار وجمع المخطوطات مستمرة ، ويلقى الضوء على فضل من هذه العمليات عندما يكشف دور اليهود فى تلك العمليات ، يقول «إن إرسال الموميات من الاسكندرية إلى أوربا أمر شاق جداً ، بعد أن منع الأتراك خروجها ، ويعتبرون أن حرص الأوربيين على نقل الجثث نوع من العبث بالموتى ، ولكن بعد أن أصبح عمال الجمارك فى الاسكندرية من اليهود لم يعد إخراج جثث الموتى وارسالها على سفن ايطالية أمرا صعبا ، ولقد تمكنا من الوصول فى أمان ببضعة صناديق بها موميات إلى سطح السفينة ».

ويلاحظ أنه أطلق على نفسه اسم الشيخ عبد الله فى كل من الحجاز والبصرة لكى يتمكن من القيام بمهمته .

عمار القاهرة

بعد أن استعرض نيبور تنظميات الديوان والحرف والتنظيمات الاجتماعية المختلفة وصف عمار القاهرة وتحضر أهلها ، فحكام مصر وأغنياؤها لا يقلون فى اهتمامهم بالأوقاف الدينية عن سلاطين القسطنطينية ، ويفوقونهم كرما وعطاء حتى أن شيخا فقيراً استطاع أن يتنقل عاما كاملا من مسجد إلى آخر وينال الطعام والشراب والمرقد ، ويدهشه العناية بالمارستان مستشفى الأمراض العصبية والذى يستخدم الموسيقى لعلاج مرضاه ، كما يقدم وصفا شيقا للخانات والوكالات ، وعدد الحمامات العمومية ويصفها بأنها إذا لم تكن جميلة من الخارج فهى جميلة وفسيحة ونظيفة من الداخل ، أرضيتها مكسوة بالرخام الثمين ، ويتوقف طويلا أمام السبيل بروعة تصميمه ودوره فى تقديم الماء للعطشى العابرين ، ويصف البرك التى تقوم حولها الحدائق والمروج ، ويسكن حولها وخاصة بركة الفيل الكثير من الوجهاء والأعيان ..

* * *

وينتقل إلى أمسيات القاهرة وفنون وتسلية أهلها ، من الموالد التى يلهو خلالها الناس فى ساحة بجوار المسجد بعد أن يسير الموكب ليلا والأهالى يحملون القناديل حول الألعاب المختلفة .

المسرح

وعلى دارسى تاريخ المسرح العربى أن يرجعوا إلى رحلة نيبور بوصفه شاهد عيان يأتى صوته من النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والذى روى ما شاهده من أعمال مسرحية متكاملة ، وفرق تجوب القرى وتقدم أعمالها ، وخاصة أن الرأى السائد فى الدراسات المسرحية الأوربية وعند الكثيرين من الدارسين العرب أن الدراما ليست من الفنون العربية ، فيقول الدكتور أحمد الحوفى : «لم يكن فى الأدب العربى منذ نشأته وحتى نهاية القرن الثامن عشر أدب مسرحى ..»

ويجيب الدكتور طه حسين على سؤال لماذا لم يعرف الأدب العربى المسرح ؟ بقوله «أن السبب يعود إلى اختفاء الأدب المسرحى اليونانى حين كان العرب يترجمون الثقافة اليونانية ، ونجد إبن سينا يسمى التراجيديا المرخ ويسمى الكوميديا الهجاء .. »

أما نيبور فيقول : «لا يتوقع الأوروبى أن يشاهد فى مصر مسرحيات ، ولكن فى مصر فرق تمثيلية كبيرة ، يدل منظرهم على أنهم لا يربحون سوى القليل ، ويأتون إلى بيت كل من يستطيع دفع أجورهم ، ويتخذون من الفناء الواسع - فى البيت الشرقى - مسرحاً يضعون فى ركن منه ساتراً يغيرون وراءه ملابسهم ، ولكن بعض الأوربيين الذين قضوا فى مصر سنوات لم يروا قط تمثيلية عربية فاتفقنا فى أحد الامسيات مع هؤلاء الممثلين على أن يأتوا إلى بيت إيطالى متزوج ويشاهدوا عرض الفرقة ، ولكن لم تكن الموسيقى ولا الممثلون على ذوقنا ، ولم أكن أفهم ما يكفى من اللغة العربية ، وكان الدور الرئيسى فيها لإعرابية ، قام بدورها رجل فى ثياب النساء ، وبذل جهداً فاشلاً فى تغطية لحيته الكثة ، وكانت الاعرابية تحتال على المارة من الأوربيين حتى يدخلوا خيمتها ، ثم تجرد الأجنبى من ثروته وتطرده شر طرده ، ونهبت بهذه الصورة العديد ، وبدا عليها أنها تتأهب لنهب طائفة أخرى ، فإذا بأحد التجار الفرنسيين يضيق بالمسرحية ، ويعبر عن استهجانه وعدم رغبته فى مشاهدتها ، فأمروا الممثلين بالتوقف قبل أن تصل المسرحية إلى منتصفها ..»

إنتهت شهادة نيبور ، وبقى غياب النصوص المسرحية فى هذه الفترة والتى أن وجدت لأثرت تاريخ المسرح العربى .

إن القارىء سيجد فى هذا الكتاب المتعة والمنفعة معا ، تلك المتعة التى لا يجدها سوى فى الأعمال الجادة ، ولقد ترجم الدكتور مصطفى ماهر الجانب الخاص بمصر وبقية كامل رحلته صعبة المنال للقارىء العربى .

قلم وريشة بريس دافين

تروى يوميات

قاهرة القرن التاسع عشر

كم هى مثيرة وشيقة .. تلك النفائس الفكرية والفنية التى كتبت مستوحاة من مصر ، والموزعة فى العديد من مكتبات العالم ومتاحفه ، ورغم إثارتها وجاذبيتها لم يظهر حتى اليوم مشروع جاد لجمعها ، وإتاحتها أمام كل من يحتاج إليها ..

من هذه الأعمال الوثيقة التى كتبت عن مصر فى القرن التاسع عشر . عندما جذب الشرق المفكرين والمغامرين والرحالة ، وبين هذه الأعمال مخطوط يضم مذكرات الفنان والمستشرق بريس دافين (١٨٠٧ - ١٨٧٩) ، والذى يضم اثنى عشر مجلدا محلاة باللوحات والتى كان يعدها لاصدار كتاب جامع عن مصر..

وسبق ونبه «الهلال» فى نوفمبر ١٩٥٨ إلى أهمية هذه المذكرات..

لكل ذلك احتفيت كثيرا ، بكتاب اليوم «إدريس افندى .. فى مصر» . وهى مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى «بريس دافين»

خـاصــة أنه يوجـد فـى مكان بارز من مكتـبى ، كـتـاب أعـتـز به عـنـوانه «الفـن العـربـى» ويتـكـون مـن ثلاثـة أجـزاء ويضـم مـائتى لوحـة بريشـة دافـين عن آثار القـاهـرة منـذ القـرن السـابع حـتى نهـاية القـرن الثـامن عـشـر ، ولم يـطـبـع فـى القـاهـرة ولم يطبـعـه نـاشر مـصرى ، بل طبع فى روما وطبعته دار نشر لبنانية ، ويضـم هذا الكتاب روعة آثار القاهرة وحيـاة أهـلها ، وكان الفـنان لا يكاد يصل بفـرشـاتـه وألوانه إلـى أحـد الآثار ، حـتـى تتـوهـج بالحـيـاة ويظهـر جـمـال مكوناتها من الزجـاج الملون والخـشب والنافـورات والفـسـيـفـسـاء ، فى كل من الجـوامـع والبـيوت الشـرقـيـة والاسـبلة والحارات ..

كمـا جذبـنى الكتـاب لولعى الشـديد بما يسـجله الرحـالة الذين زاروا مـصـر وتجـولوا فـى أرجـائهـا خـلال القـرن الماضـى ، وكذلك اكـتـسب «كـتـاب اليـوم» جـاذبـية خـاصـة لانتـقـاء موضـوعـاته ، والتمـيـز الواضـح ، فـى كتبه مثل «عمـارة الفـقـراء» لحسن فتـحى ، و«مـذكـرات نوبار باشـا» التى ترجمـهـا نبيل زكـى ، و«أدب الفراعنة» الذى كتبه سليم حسن و«مصـر من ثانى» لمحمود السعدنى وغيرها من الكتب القيمة ..

وهذه المذكرات جمعها وترجمها الدكتور أنور لوقا ، بعد أن عكف فى دار الكتب الفرنسية أياما طويلة يجمع مادة هذا الكتاب ، ونلاحظ من النظرة الأولى أن بريس دافين فنان رائع يتميز بعين الفنان وحساسيته لا دقة المؤرخ ، وقدرته ، فأكثر ما يثير الدهشة فى مخطوطه ما تحمله كلماته من عقلية استعمارية ، فهو يتهم الشرق والمصريين بالهمجية والبعد عن الحضارة ، .. فالشرق قد انتهى دوره التاريخى وليس أمامه سوى الالتحاق بالغرب والأخذ بفلسفته وتجربته ، وهو يأخذ على محمد على طموحه ، فعليه أن يكتفى بانتاج الخامات اللازمة للمصانع الغربية ..

وتنعكس هذه النظرة على تناوله للكثير من الأمور ، فهو مثل سواه من المستشرقين ، يتزايد اعجابه بمصر الفرعونية ويستخف بما يراه حوله فى مصر المعاصرة ، وقد سبقه بهذه النظرة المستشرق البريطانى وليم هاملتون الذى ادعى «أن الشعب المصرى شعب مستكين وراض وخانع»!! ويقول المؤرخ جوزيف ميثو ما يكشف موقف دافين فى كتابه «رسائل من الشرق» «أن كتابات الرحالة توحى أن مصر خلت من السكان حتى انهم

لا يتحدثون عن البشر إلا عندما يأتي ذكرهم منقوشا على حجر» وأن يكون قد مر على وفاته ثلاثة آلاف سنة ، وألا يكون قد بقيت منه سوى مومياء» .

ويقول هـ . روك .. «أن المصريين لديهم روح واهنة ، ويفتقرون إلى الشجاعة في مقاومة القهر والاستبداد» ! ويؤكد جيمس كابر عام ١٧٨٣ «أن المصريين أكثر أمم الأرض ازعاجا وأجدرها بالازدراء ، وهم لا يمتون بأية صلة بقدماء المصريين» !!

وضمن هذه الموجة يقول بريس دافين «من الخطأ تصور أن مصر قد تمدنت فلا يمكن لها أن تتمدن ، فالمدنية هي سلسلة من العمليات المتتابعة ، فالتمدن لا يأتي ارتجالا ، فظهور أطباء ومهندسين لم تتلق عقولهم تلك الثقافة الأولية التي تنتقل في أوربا من جيل إلي آخر بتواصل واستمرار الحياة ، بل ولم يتخيل المصريون يوما وجود المفاهيم التي أصبحت شائعة اليوم لدى طلبة المدارس في الغرب ، أن السعي إلى تكوين عقول شابة ، تجانب الصواب ، وتبتعد عن الاسلوب العلمي ، فقد تم ذلك في الغرب في بطء حتى تحولت إلى أفكار متوارثة» ويضيف .. «أن أي تصور يختلف عن ما أقول ، هو وهم ولابد أن ينتهي إلى إجهاض أي محاولة للتمدن» !!

ويصف العدالة الهمجية للمحتسب بقوله «يطوق المحتسب وهو الأغا المكلف بالاشراف على الاسواق ، على صهوة جواده يتقدمه «القواسون» حاملين ميزانا كبيرا ، ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون بالعصى والكرابيج ، ويستعرض الموازين ، وأثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ويستجوب الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه .. والوزن الذى أعطى لهم ، ثم توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش فى الوزن أو غلاء في الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه فى الحال ، ويقبض اتباعه على المطفف ويطرحونه أرضا ويشدون ساقيه فى «الفلقة» ، ويالها من همجية !!

ويصف فى موضع آخر ابراهيم باشا الذى يعرفه معرفة مباشرة بالهمجية والشراسة ، ويرى محمد علي .. «أن الشعب كالسمسم ، يجب أن يسحقه حتى يخرج منه الزيت» !!

ويعود ويصف الحياة البائسة للفلاح بقوله «يجتمع على الفلاح الفقر والقذارة والمعتقدات الفاسدة ، وأن يرى الناظر شيئا أقبح من هؤلاء الاطفال العراة الذين لم يغسلوا وجوههم أبدا ، وقد حاصر الذباب جفونهم ، ويحصدهم الموت ، ويواصل من بقى منهم حياة مريضة حتى سن المراهقة» .

أمـا الظـروف التى دفـعت دافـين لكتـابة مـخطوطه ، هـى ذاتهـا التى جـذبت المستـشـرقين والمغـامـرين والرحـالـة . أيام مـحـمـد على وعـقب الحـملـة الفـرنسيـة على مـصـر ، وبعـد نمو المعـرفة الغـربيـة بمصـر ، ممـا نقل مصر والشرق العربى إلى بؤرة الاهتمام الغربى . كما أن كشف شامبليون أسرار اللغة الفرعونية القديمة ، أضاف الكثـيـر إلى تاريخ البشـرية المسجل ثلاثة آلاف سنة ، أى ضـعف المعرفة القائمة بتاريخ الإنسان ..

وأدى هذا الاكتشـاف إلى جذب الكثيرين إلى مـهد الحضـارة الانسانية ولم يعد الشرق كما كان فى الماضى الهند والصين ، ولم تعد مصر مجرد ولاية فى الدولة العثمانية ..

واختلطت النزعات التنويرية مع التطلعات الاستعمارية ، مع رغبة غامضة للبعض فى الفرار من المدنية الحديثة ..

وجذبت مصـر المتصـارعين على النفوذ ، كما جذبت المولعين بحضـارة الآخر ، استجابة لحاجات وتوقعات واهتمامات جديدة ، وأصبحت مصر تثير نهم عصر التنوير إلى المعرفة ..

وفتح محمد على باشا البلاد أمام الخبراء ، واستعان بكثير من الفـرنسيين فى تحديث البـلاد ، وكان دافين ضـمن هؤلاء الخبـراء ،

بعد أن كان متطوعا في الحرب إلى جانب اليونان ضد الدولة العثمانية ، وجاء إلى مصر بعد أن حارب ابراهيم باشا إلى جانب السلطان العثمانى فى اليونان ..

ووصل دافين إلى القاهرة عام ١٨٢٩ ، وعمل مهندسا فى خدمة ابراهيم باشا ، ثم استاذا للطبوغرافيا فى مدرسة أركان حرب بالخانكة ومعلما لأولاد الباشا ، غير أنه لشدة صلفه وشعوره بالتميز تصادم مع رؤسائه ، وأدى به ذلك إلى أن يعشق مصر التاريخ، وأن يخاصم مصر المعاصرة ، وتحول المهندس إلى رحالة ومستشرق ، وعكف على تعلم اللغة العربية ، كما تعلم اللغة الهيروغليفية ، وبعدها استقال عام ١٨٣٧ ، وعمل في التنقيب عن الآثار ما يقارب سبعة عشر عاما ، من عصر محمد على حتى أواخر عصر اسماعيل ، خالط خلال هذه الفترة الأهالى ، وأقبل عليهم ، وتعمق فى حياة الناس ، واتخذ من حب الفلاح بديلا عن مقته للحكام ..

ووصل ولعه بالآثار أن سكن أحد المقابر ، وابحر فى النيل إلى الاقصر بمركب خاص ، وزار المعابد وسجل الكثير من الاثار ، وانضم إلى الجمعية الادبية عام ١٨٤٣ ، التى أقامت أول مكتبة

فى مصر ، بعد أن كانت المكتبات موزعة على الجوامع والتكايا والمدارس وأخذت هذه المكتبة تقدم لاعضائها وللمهتمين بالدراسات الشرقية المراجع الخاصة بمصر والشرق ، وأصبحت مركزا لاجتماع الرحالة ، ويلغ عدد أعضاء هذه الجمعية مايزيد على مائة عضو ، ومكتبتها تضم ما يقرب من مائتى كتاب ، وكان يرأسها وزير الخارجية بوغوص يوسف بك ..

أما مؤلفاته فهى نادرة ، وفى مقدمتها كتاب «الاثار المصرية» الذى يضم خمسين لوحة من القطع الكبير ، والذى يعتبر مكملا لكتاب شامبليون الذى ظهر عام ١٨٤٥ ، وكتاب «تاريخ الفن المصرى» ، وتابع فيه الاثار منذ أقدم العصور حتى العصر الرومانى ، وهو أطلس فى مجلدين يضم مائة وستين لوحة ..

ولعل أهم مؤلفاته هو ذلك المخطوط الذى لم يصدر ، والراقد فى دار الكتب فى باريس ، وهو المادة التى كتب منها أنور لوقا كتابه ..

تهريب الاثار

أقول إذا كان بريس دافين ، فنانا كبيرا فإنه ساهم فى تهريب الاثار المصرية إلى الخارج ، نقب وجمع الاثار ، ثم غلفها فى

صناديق وهربها إلى فرنسا ، فإذا كان يعود لدقة ملاحظاته ، وريشته فضل تسجيل آثار اندثرت يعود إليه أيضا فقدان مصر لأهم آثارها ..

فما لم ينشره كتاب «ادريس أفندى فى مصر» .. جاء فى كتاب «رحالة وكتاب فرنسيون» وفيه يروى كاتبه وقائع سرقة مقبرة تحتمس الثالث ، وكيف أن دافين ولع بنقوشها ورسوماتها الرائعة، فلم يكتف بوصفها انما استولى عليها أيضا ! وينقل الكتاب ذلك السباق المحموم الذى قام بين دافين وزميله البروسى ليبسيوس الذى وصل إلى مصر على رأس بعثة للتنقيب عن الاثار ، وسبق له أن نزع روائع النقوش والرسوم من مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك ، وهربها إلى برلين والموجودة حتى اليوم فى متحف برلين..

وهذه المرة سبقه دافين ، ونزع جدران المقبرة المغطاة بالنقوش والرسوم والخراطيش ، وكان ينتظر حتى يهبط الليل ، وينشط فى الليالى الظلماء ، وقد أخفى غنيمة داخل سبعة وعشرين صندوقا ..

ولجأ للحيلة واستخدم الرشوة ، لكي ينجح أخيرا فى الوصول بهذه الاثار إلى أحد المراكب فى النيل وأقلع بها إلى الاسكندرية ،

وفـيـه يلتـقى المتنافـسـان الفـرنسى والألمـانى فى مـركب الأول القـادم من الاقـصـر ، والثـانى فى طـريقـه إليـهـا ، ويعـتـرف له الألمانى خـلال الحـديث وهو جـالس على أحـد الصـناديق الثـمـينة التى تضـم هـذه الاثار ويقـول أن هدفـه الوصـول إلى مـقـبـرة تحتمس والاستيلاء على ذخائرها ، ويتـمنى له الفرنسى التوفيق ، ويمضى كل منهما فى سبيله ، لكى تستقر تلك الروائع فى متحف اللوفر بباريس ..

إنه عصر النهب الاستعمارى على كل لون ، وهبط مصر أنواع عجيبة من الأجانب ، مثل الاب سيكار ، الذى كان مدفوعا بروح شريرة ، وراح يقطع مصر من أقصاها إلى أقصاها يبحث عن المخطوطات النادرة لا لكي يستفيد بما تحتويه من معارف ولكن لكى يحرقها !

وبعد نهب الكثير من الاثار ، مازلنا ننتظر وزيرا للثقافة مثل وزيرة الثقافة اليونانية ميليتا ميركورى التى قامت بحملة ضخمة من أجل إعادة الاثار اليونانية إلى اليونان ..

ولكن ألا يسبق ذلك -- على الأقل -- أن نحافظ على ما بين أيدينا من آثار ؟!

الخداع

بالاضافة إلى ما قام به إدريس أفندى من نهب آثارنا ، فقد استخدم الخداع والمخاتلة في التعامل مع مجتمع شرقى ، فادعى اعتناقه دينه وغير اسمه وغير زيه ، ولم يفعل ذلك إلا لتسهيل مهمته .

ودأب على ذلك الخداع الرحالة الغربيون ، فقد أطلق الرحالة السويسرى «بوخارت» على نفسه اسم الشيخ ابراهيم وادعى أنه مسلم تركى وزار الأراضى المقدسة ، ودفن بمقبرة بباب النصر فى القاهرة ، كما أطلق «إدوارد لين» على نفسه اسم منصور أفندى ، رغم أنه كان من أكثر المستشرقين نزاهة وموضوعية .

وهناك ثمة علاقة بين لين ودافين ، فدافين هو النسخة الفرنسية من إدوارد لين البريطانى ، فكلاهما يملك ريشة فنان وقلم مبدع ، وكلاهما ترك مخطوطا مهما يزخر باللوحات ، ويسجل فيه كل منهما كل ما شاهده فى مصر .

وإذا كان «إدوارد لين» أكثر معاصريه الانجليز معرفة بمصر ، فقد كان «بريس دافين» أكثر معاصريه للفرنسيين معرفة بمصر .

ويوجد مخطوط بريس دافين والذى يضم أثنى عشر مجلدا ، ويمثل المادة الأولية التى كتبها وجمعها مع لوحات بريشته ، تمهيدا لتأليف جامع عن مصر ، فى دار الكتب الفرنسية بمتحف اللوفر .

ويوجد مخطوط إدوارد لين «وصف مصر» الذى يقع فى ثمانية مجلدات تحتوى خمسة منها على رسوم للحياة المصرية مع مائة وخمسين لوحة ، فى إحدى قاعات مكتبة المتحف البريطانى تحت رقم ADD ٣٤٠٨٠.

ومن الغريب عدم قيام أية جهة ثقافية ، بنقل الكتابين وخاصة لوحاتهما التى تعبر عن معالم الحياة فى مصر القرن التاسع عشر .

أضواء وظلال

لا يحلل «بريس دافين» بقدر ما يصنف وينقل ويرسم ، أشبه ما يكون بالمصور الفوتوغرافى الذى يضفى على لقطاته مسحة جمالية وخاصة الجوانب الاجتماعية والإنسانية ، لذلك تمدنا وثيقته برواية تاريخية حضارية - عن يوميات مصر القرن التاسع عشر - أشبه ما تكون بقراءة من زمن سابق .

ومما جاء فى مخطوطه .. «لا أعرف مدينة تتقابل فيها الاضواء تقابلا أروع منه فى القاهرة ، والماشى فى دروبها بروعة مشهد الترف المسرف إلى جانب الفقر المدقع ، وتتصادم فى العاصمة العتيقة البهجة والألم» ..

كثيرا ما يروقنى الجلوس فى المقهى أدخن غليونى واحتسى فنجان القهوة وأراقب تلك اللوحة الحية حولى ، وهى متنوعة وصاخبة وتموج بالحيوية ، يمتد أمام نظرى الشارع المزدحم ليس لقضاء الحاجات أو البيع والشراء ، ولكن لأن كل الدروب من حولنا مسدودة ، وهذه هى حارات القاهرة ، وكثيرا ما تسد ما تبقى من هذه الدروب قوافل جرارة من الجمال المحملة ، والتى يضطر المارة لأن يفسحوا لها مكانا .

النساء الشرقيات من حولنا مختفيات خلف أردية فضفاضة، يحملن على أكتافهن أطفالا تكسوهم التمائم ، وفوق رءوس البعض آنية جميلة ، أما سيدات الطبقات العليا ، فتشاهدهن خلف أردية سوداء من الحرير تغطيهن من الرأس إلى القدم ، وأمتطين حميرا أسرجت ببسط نفيسة ، يتقدمهن الخصيان ذاهبات إلى الحمام أو إلى إحدى الزيارات ، ويمر بك وأنت جالس

تتأمل مكفوفون يقودهم غلمان صغار، وحمير محملة بالشمام والبطيخ ، وباعة متجولون ، وصناع يحملون أثقالهم .

وكثيرا ما يظهر وسط هذه المعمعة موكب عظيم احتشد فيه رجال يرتلون بصوت مرتفع آيات من القرآن الكريم ، تصاحبهم أصوات ناشذة من الطبول والمزامير والأبواق ، تطلقها جوقة من الموسيقيين على ظهور الحمير أو الجياد لا تبالى بتوافق الأنغام ، ويتبعها هودج مزين ببهرج من الترتر ، يحوى بعض آثار الشخصية التى يحتفلون بمولدها ، ثم عدد من المباخر ، وشيوخ يحملون رايات من جميع الأشكال والألوان ، ثم موكب جرار من الانقياء والمكفوفين ، يضاف إلى كل هذا الهرج زركشة الأزياء وألوانها .

ياله من بلد آمن !!

يدهش المرء للشعور بالأمن الذى تلمسه فى مصر ، ويدهش أيضا لقلة الشرطة وقلة الاضطراب ، كما لا يجد الأجنبى فى أى مكان آخر حرية أكثر مما يجد فى مصر ، فالرحالة يحتفى بهم ويقبلون ويتنقلون دون أن تهتم أية سلطة بهم ، والطرق مأمونة على الرغم من قلة رواد بعضها ، ولا يبلغ عدد حوادث السرقة والقتل ذلك القدر الذى يبلغه فى أية عاصمة أوربية .

ويتجلى ذلك فى الأسواق فلا تغلق الدكاكين ، رغم ما فيها من أنواع السلع الثمينة السهلة الحمل ، وعندما يتغيب التاجر عن دكانه خلال النهار لا يفعل أكثر من أن يسدل على بابه شبكة بسيطة .

الحريم

ويستمر موضوع المرأة والعلاقة بينها وبين الرجل ، أحد المسائل التى يظهر فيها التباين بين الشرق والغرب ، وهى الموضوع المثير الذى يتناوله الغرب عن الشرق ، هكذا كان الحال مع رفاعة رافع الطهطاوى فى زيارته لباريس ، وهو الحال مع بريس دافين فى زيارته للقاهرة ..

.. هناك مسائل لا يمكن أن يعرفها المرء إلا بالإقامة ، ولا يراها المرء أثناء رحلاته العابرة ، وهذا ما يقال عن النساء الشرقيات ، نظرا لأنهن منطويات دائما داخل «حريم» . لايشاهدن إلا أزواجهن وأقرب أقربائهن ، وأنت تسب الشرقى إذا سألته عما يتعلق بحريمه .

أما جمال المصريات الباهر ، فلا يعود إلى انتظام التقاطيع والجمال الصارم الذى تراه فى الغربيات ، بل إنه حسن حلو

ساحر ، الوجه لطيف دون أن يكون رائع الجمال ، صغير الأنف كبير الفم فى وسامة ، وفى العينين الطويلتين الواسعتين لحظ فاتر وفاتن وغلاب ، ولا تبحث هنا عن بشرة زنبقية وألوان من ألوان الورد وصدر من المرمر الأبيض ، بل هذه البشرة السمراء التى لوحتها الشمس .

أرى هذا الصدر الذى ما أبدع الله مثالا أجمل منه ، وهذا الخصر الدقيق كأنه خصر النحلة ، وهو ذاته الذى صوره الفنانون المصريون على آثارهم وخلب لب جميع الفنانين الأوروبين .

فالعالم كله والمجتمع فى نظر المرأة الشرقية يتلخص فى أسرتها وبعض صديقاتها ، وليست كالمرأة الغربية بعواطفها وحاجاتها المتكلفة التى جاءت من المجتمع وحركته الصاخبة ، فالشرقيات أكثر هدوءا ، ولا تعشق المرأة إلا رجلا واحدا وفكرة واحدة ، يعطين كل شئ للرجل الذى تحبه ، وبعد ذلك يشغلهن أولادهن وشئون بيوتهن . أما الفلاح ، أساس الحياة والنماء فى مصر .

فهناك تشابه كبير بين الفلاح وملامحه وبين الصور المنحوتة على الآثار الفرعونية القديمة ، فكما تبدو لك تماثيل إيزيس تبدو لك مصريات اليوم . على أن جمال الفلاحة أقل من جمال الفلاح ، ونظرتها أقل من نظرته ذكاء وعمقا ، وإن كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا حيا كوجهه ، وسحرها فى رقتها الحلوة ، وهى طويلة القامة رشيقة مرنة ، خفيفة المشية حثيثة الخطى ، ولكن سرعان ما تزوى نضارتها من متاعب الأمومة ومعاناة البؤس .

الباشا

بقيت ملاحظات دافين عن محمد على وإبراهيم باشا وسعيد ، وهى ملاحظات مجملها أنهم ألحقوا بالبلاد خسائر فادحة ، وهو ما يجانب الواقع بالنسبة لمحمد على وابراهيم باشا .

ولعل الملاحظة الوحيدة التى تستحق الذكر ، هى أن محمد على كان يتحدث فى حماس عن مقدونيا ، وعن الاسكندر بطله الأثير ، وعن البطالمة ، وكأنه قد أصبح من أعضاء الأسرة لمجرد أنه خرج من نفس الأرض .

وذات يوم روى البعض على مسمع منه لمحة من حياة الاسكندر، فصاح فى فخر .. «وأنا أيضا من فيليببيه» - وهى تسمية الأتراك لأرض مقدونيا - ونابليون أيضا محل إعجابه ، إلا أن البطل المقدونى يستأثر بلب محمد على ، وترجمة حياة كل من هاتين الشخصيتين التاريخيتين ، هى مطالعته اليومية .

* * *

وتبقى هذه الوثيقة المهمة تحتاج لمن يقدمها للقارئ العربى، ومازلنا ننتظر من يجمع آثارنا الموزعة على كل عواصم الدنيا، كما جرى قديما وجمعت إيزيس أشلاء أوزوريس .

مخطوط يمنى يكشف:
كيف انتفض العرب
دفاعاً عن مصر ؟

فجأة .. تعثر على جزء من التاريخ فلا تملك سوى أن تحتفى به ، عندما تجد بين صفحاته اجابة عن العديد من القضايا التى تثور بين حين وآخر ، وهذا الجزء من التاريخ يوجه لأولئك الذين انتعش لديهم الحس الاقليمى ، والذين يتشدقون ليل نهار بحسابات الربح والخسارة وهم - فى الواقع - لا يرون سوى ما تحت أقدامهم !

يتناول مخطوط قديم مرحلة تاريخية مهمة عندما قدم أبناء الأمة العربية كل ما يقدرون فى لحظة الخطر حفاظا على القلب العربى ، دفاعا عن مصر فى مواجهة غزوة بونابرت - أو (الطامة الكبرى) كما ذكر المخطوط ، فقد قاد نابيلون عسكره مع أحلام امبراطورية واسعة تبدأ بمصر وتمتد إلى الهند ..

وكانت – ومازالت – مصر هدفا لكل من داعبت أحلامه تحقيق (السيطرة العالمية) ، من الاسكندر الأكبر وحتى (السلام البريطانى) الذى سعت لتحقيقه الامبراطورية البريطانية ، وخلال كل هذه المراحل كان يعمل ذات القانون والذى يقول إن الاستيلاء على المنطقة العربية يبدأ بالاستيلاء على مصر ، وقد أعلن ذلك نابليون فى كلمات لا تنقصها الصراحة : « إن المجد الذى يصنع بالاستيلاء على الشرق لابد له من الاستيلاء على مصر ، فمصر هى مفتاح العالم ..) ولم تفت هذه الكلمات اللورد كرومر وقدم به كتاب عن مصر بعد أن حفظها عن ظهر قلب .. !

* * *

وزائر اليمن لا يفوته أن يشعر بسطوة التاريخ ، يراه فى أزقتها وفى طراز عماراتها وداخل بيوتها ، فمازالت المدن اليمنية مشاهد تاريخية حية ، ومازالت حافلة بالمخطوطات ، وقد كان اليمن وخاصة الشمال بعيدا أكثر من غيره عن تناول المستشرقين، وبقيت فيه أطنان من المخطوطات مازالت تنتظر الجمع والتصنيف والتحقيق .

وهذه الصفحة من التاريخ قدمها الاستاذ المصرى «الدكتور مصطفى سالم» الذى يعمل فى مركز الدراسات اليمنى ، بعد أن عثر فى جامع صنعاء الكبير على مخطوط لأحد مؤرخى اليمن وهو «لطف الله جحاف» ، وعنوان المخطوط : « درر نحور العين فى سيرة الإمام المنصور على وإعلامه الميامين» وعكف الدكتور سالم على تحقيقه وتقديمه .

وكان هذا المخطوط ، بمثابة اكتشاف جديد ، فهو يتناول صدى الحملة الفرنسية فى الجزيرة العربية ، مع تركيز خاص على اليمن والحجاز حيث عاش وتنقل «لطف الله جحاف» ويتناول فى روايته مبادرة أبناء الحجاز بتشكيل قوة مسلحة تقاتل إلى جوار شعب مصر ، وينقل صورة فياضة المشاعر ، عندما دعا «محمد الجيلانى» إلى الجهاد وأخذ يخطب فى الناس مستثيرا هممهم ، وكيف تبرعت النسوة بحليهن بعد أن استمعن إلى كلماته الملتهبة ، حتى تمكن من جمع قدر كبير من المال والمتطوعين ، ثم يروى «لطف الله جحاف» كيف أخذ المجاهدون زوارق متهالكة قديمة عبرت بهم البحر الأحمر إلى القصير فى صعيد مصر ، وهناك دارت المعارك بينهم وبين الفرنسيين داعمين المقاومة المصرية ،

وتدحر هذه المقاومة أمام السلاح الفرنسى المتقدم ، ويقتل قائد الحملة ، وتتفرق فلول قواته فى العديد من القرى المصرية .

وقد عرفنا جميعا قصة «سليمان الحلبى» الذى انتقم من الاحتلال بقتله كليبر خليفة نابليون ، وكيف أظهر الحلبى شجاعة خارقة أثناء محاكمته وكيف تقبل الموت برضى المجاهد ، ولكننا لم نعرف بالقدر ذاته الجيلانى قائد متطوعى الحجاز الذى قدم من الأراضى المغربية لكى يموت على أرض الكنانة .

وربما يقال أن شيخ المؤرخين عبدالرحمن الجبرتى (١٧٥٤ - ١٨٢٥) قد ذكر الجيلانى فى سفره العظيم (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) فتجد بين صفحاته أخبارا متناثرة عن الجيلانى وفلول قواته التى وصل بعض أفرادها إلى القاهرة ، ولكنك لن تجد قصة الجيلانى كاملة إلا عند لطف الله جحاف ، ولعل ذلك يبين ثغرة فى التاريخ العربى تحتاج إلى جهود المؤرخين ، فإذا جمعت أقوال المؤرخين العرب المتناثرة فى العواصم العربية المختلفة حول الحملة الفرنسية لأمكن سد هذه الثغرة .

إن القيام بذلك سيضع أمامنا حقائق وابعادا جديدة .

ويقربنا خطوة نحو وحدة التاريخ العربى ، ويعالج قصور بعض فصول التاريخ لأن أغلب وقائعه المدونة تدور فى العواصم العربية ، ويندر أن تتناول ما يقع خارجها !

وأى قصة يمكن كتابتها لوجمعنا أثر الحملة الفرنسية فى كافة أرجاء العالم العربى ؟!

وأى قصة سنحصل عليها لو وضع ما كتبه الجبرتى مؤرخ القاهرة إلى جانب لطف الله جحاف المؤرخ الصنعانى ، وكل منهم قدم سردا تفصيليا للوقائع التى شهدتها مدينته .

كان الجبرتى رغم أهمية مؤلفه وعمق نظرته ، لا يدعو مؤرخا قاهريا لم يتمكن من متابعة أحداث الحملة فى صعيد مصر إلا من خلال ما تناقله الرواة والوافدون ، أو من خلال المنشورات التى كان الفرنسيون يعلقونها على أبواب الحارات ، وهنا نجد لطف الله جحاف يكمل الصورة ويضيف إليها العديد من التفاصيل .

يضيف لطف الله جحاف إلى ما هو معروف عن الحملة الفرنسية ، فيقدم ما هو متداول عن هذه الحملة فى اليمن ، وينقل كيف اهتزت الجزيرة العربية بأنباء هذا الغزو نتيجة عمق الشعور الدينى وعمق الاحساس بالانتماء إلى أمة واحدة .

وعكس المخطوط هذا الاهتمام بأخبار (ديار مصر طهرها الله من الدنس) وأخذ يبث بين كلماته روح الحماس والدعوة إلى الجهاد .

وكان لقرب جحاف من الحكام فى صنعاء ما مكنه من متابعة الأخبار وأن ينقل تفاصيل الوقائع ما خفى منها وما ظهر ، وأن يحصل على نصوص المراسلات المتبادلة بين إمام اليمن وباقى حكام العالم العربى والإسلامى حول فاجعة غزو بونابرت لمصر .

ومن ناحية أخرى يتنقل لطف الله جحاف بين اليمن والحجاز عقب انتهاء الحملة ، ويجمع تفاصيل أحداث الحملة من مكة والمدينة ، ودون هذه التفاصيل كما سمعها موزعة على الأيام كما درج عليه مؤرخو ذلك الزمان بعد أن حقق بعضها وقدم لنا كل ما وقعت عليه يداه .

هذا رغم أن المؤرخ اليمنى قد كرس مخطوطه لتاريخ اليمن فى عهد الإمام المنصور على بن المهدى العباسى « ١٧٧٥ - ١٨٠٩ » وكان الإطار العام لتفكيره تغلب عليه الصبغة الدينية السائدة فى عصره .

ولقد كانت الأوضاع فى الجزيرة العربية خلال الحملة الفرنسية على النحو التالى :

اليمن يحكمها الإمام المنصور ، والحجاز يحكمها الشريف غالب بن مساعد ، وقد تأثر كلا الرجلين بأحداث الحملة وتحالف الإمام المنصور مع الشريف غالب فى مواجهة الغزو الأوروبى عندما أتى المنصور رسول بريطانيا للتفاوض فيما يتعلق بمصالحها فى اليمن وفى جنوب البحر الأحمر .

أما شريف مكة غالب بن مساعد (توفى ١٢٣١ هـ - ١٨١٦ م) فقد كانت أوضاعه تختلف عن أوضاع إمام اليمن ، فقد كان تابعا للدولة العثمانية ، وعرف عنه حينذاك فقره المادى وضعفه السياسى والعسكرى ، لذلك عاش الحجاز أغلب فترات تاريخه فى العصور الوسطى أوضاعا سياسية خاصة ، فقد تناول حكمه جماعة الاشراف وكان هؤلاء يربطون أنفسهم بالدولة الأقوى فى العالم الإسلامى وخاصة بالقاهرة حتى يوفروا لأنفسهم الحماية والعون . لذلك نجد (الشريف غالب) حريصا على تنفيذ مخططات الدولة العثمانية ويقوم بدور الوساطة بينها وبين الحكام العرب والمسلمين كما فعل مع إمام اليمن .

وفى نفس الوقت كان يلمس مدى ضعف الدولة العثمانية ، ومدى عجزها عن حماية ولاياتها ، ويخشى أن تمتد يد بونابرت إلى بلاده ، لذلك سارع بالكتابة إليه ومداهنته حتى يأمن جانبه !

أخبار الحملة :

وقبل استعراض ما جاء على لسان جحاف ، يجدر بنا أن نتوقف – ولو قليلا – عند أحداث الحملة الفرنسية ، التى وقعت على مصر ما بين ١٧٩٨ – ١٨٠١ م . ووصلت أصداؤها إلى كل مكان ، وكانت علامة مهمة فى تاريخ مصر والشرق العربى ، والتى كانت إحدى مراحل التاريخ النادرة ، القصيرة والمكثفة .

فقد كانت أولى الصدمات العسكرية والحضارية التى وفدت من أوروبا بعد الثورة الفرنسية ، وبعد أن سبق وصدت مصر ، الصليبيين ، وكانت فرنسا على رأس الحروب الصليبية ، وهى التى سبق ووجهت هذه الحرب ضد مصر ، وحاولت غزوها مرتين فاشلتين ، وعادت فى عهد لويس الرابع والخامس عشر والسادس عشر ، ومنذ خضوع الشرق للدولة العثمانية .

وهذه الحملة لدى الدكتور لويس عوض هى التى أدت (إلى تصدع حضارة العصور الوسطى وتشققت إطرها المتحجرة تشقق

البيضة لتخرج من قشرتها شرنقة العنقاء الجديدة ..) وعند البعض الآخر : هى بداية أزمة ثقافية حادة ما زلنا نعانى من ويلاتها حتى الآن . فقد ارتبطت لدى بعض المثقفين عملية التحديث بالغزو الاستعمارى وبناء الامبراطوريات ، مما أضاف مصاعب جمة إلى عمليات التحديث ، ومنذ أن ارتبطت صدمة العصرية بالغزو الاستعمارى .

ولا بأس من العودة للجبرتى نسترجع كلماته التى كتبها فى سنة وصول الحملة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م ، وتظهر فى كلماته عمق بصيرته وحيرته بين ما جاء به الفرنسيون من علوم وفنون وبين كونهم غزاة استباحوا وطنه ! يقول عن سنة وصول الحملة إلى مصر: (أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى وأهلها مصلحون ..).

بهذه الكلمات بدأ سرد أحداث الحملة ..

أما بونابرت فيقول فى مذكراته التى كتبها في ١٦ أغسطس ١٧٩٧ عن دواقع حملته : (إن المواقع التى نحتلها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، تجعل لنا السيادة على هذا البحر ، وإذا كانت انجلترا تنازعنا طريق رأس الرجاء الصالح فلنتجاوز عنه ، ولنحتل مصر فسيكون لنا فيها الطريق الموصل إلى الهند..) .

ومن يقلب فى صفحات الحملة يتوقف عند خدعة كثيرا ما تتكرر ، وهى التزلف لمعتقدات الأهالى ، ويدهشك أن نابليون يبدأ حديثه إلى المصريين ببسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك ، ويشيد بالإسلام وتستمر هذه النغمة فى كل بياناته ، ولأول مرة يأتى فاتح أجنبى يحدث المصريين عن عراقة تاريخهم وعن عظمة بلادهم وعن سماحة دينهم .

بل وأخذ يحضر بنفسه الاحتفالات الدينية مثل المولد النبوى ويصبر على حفلات الذكر الطويلة حتى نهايتها ، كما أعلن أنه جاء لتخليص المصريين من ظلم المماليك ، وأنه حصل على موافقة السلطان العثمانى ، وأنه رسول الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والإخاء والمساواة ، وأنه ما جاء إلا لتحريرهم ..!

ولكن محاولات التودد هذه ، لم تنفعه كثيرا مع الأهالى ، فسلوك رجال الحملة لا يتمشى مع العادات والتقاليد المرعية ، وكانت هذه إحدى المرات القليلة التي تقف فيها العادات وأنماط حياة الأهالى ، وتساعد على التمييز بين القول والفعل ، ونشبت ثورة القاهرة الأولى والثانية والتى بدأت من ساحات الأزهر الشريف بعد وصول الحملة بوقت قصير .

وانتشرت الدعوة إلى الجهاد فى أنحاء مختلفة من الوطن العربى ..

وقد راسل بونابرت بعض الحكام العرب ومنهم إمام مسقط وكل من حاكم درنة وطرابلس محاولا كسبهم إلى صفه ، وذهبت محاولاته أدراج الرياح ، وقاوم أهل الشام الحملة التى قادها بونابرت فى عام ١٧٩٩ م .

هذه هى وقائع الحملة التى تناولها لطف الله جحاف .

وكان أهم ما نقله الدكتور سالم عن كتاب جحاف هو مجموعة الخطابات المتبادلة بين بعض الحكام العرب والمسلمين بشأن الحملة الفرنسية والحاجة إلى الدفاع عن البلاد ، فلقد أثاروا روح الإخوة الإسلامية ودعوا إلى مواجهة «الفرنسيس» فى الوقت الذى أطلق فيه السلطان العثمانى نداء الجهاد .

ونجد أخبار الحملة متناثرة مع غيرها من الأحداث ، يقول : «ذكرت عدة حوادث من التهايم والجبال والحجاز والحرمين والعراقين ومصر والشام والروم والسند والهند والغرب بعد الفحص والتفتيش» .

ويضيف : « هذا مختصر لطيف ، ومؤلف نحيف ، لم يسألنى أحد أن أضعه ، ولا هول على فرد من الناس أن أجمعه ، واتبعت فيه ما يستحق الإثبات من سطور ..» .

وأورد لطف الله جحاف خطابات السلطنة العثمانية إلى كل من شريف مكة وإمام اليمن» ، تطالبهما بضرورة التعاون مع قوات روسيا وانجلترا لأنهما حليفتان للسلطان »! .

وكانت هذه مؤشرات الدخول الاستعمارى من خلال ضعف الدولة العثمانية ، ويبدأ الخطأ الفادح إلا وهو مقاومة طرف استعمارى عن طريق التحالف أو الاستسلام لطرف آخر ..!

ويقى أن نثبت صفحات من مخطوط جحاف وما تضمنه من رد الفعل فى الحجاز واليمن .

«ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف «١٧٩٨م» وفيها قام فى البلدة الحرام بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام ،

محمد المغربى الجيلانى الهاشمي لما وردت الإعلام بما صنعه الكفرة اللئام ، من الهجوم على ساحات مصر ، وتصدر بالحرم الشريف ، فألتف عليه خلائق ، واستمعوا ارشاده إلى أنهج الطرائق ، وفعل دعاءه بالقلوب ما فعل ، وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه ، وكانت النساء تأتى فتسمع ما يمليه من أحداث الحض على الجهاد ، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن (خاتم فى اليد أو خلخال فى القدم) وعقودهم وملبوسهن ، ويقلن ذلك الذى علينا ، فاجتمعت عنده أموال واسعة، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة فسار بهم لمناجزة أعداء الله الفرنسيس .

كان السيد محمد الجيلانى قد دعا العباد بالحرمين إلى فريضة الجهاد ، فممن أعانه بالحرمين محمد بإصلاح الحضرمى ، فإنه تصدق فى سبيل الله بخمسمائة بندق صغار مغربية ومائتى حربة من حراب الشام ، ومائتى سيف وأربعمائة كيس من حبوب الرز وألفى نعل ينتعلها فقراء المجاهدين ، ومنهم الشيخ عبدالرحمن العسيرى الذى قدم مهمات جهز بها ثلاث سواع (سفن صغيرة) لهم ميرة ، ومنهم الشيخ أحمد فاس جهز دواوين فى سبيل الله ،

ومنهم الشريف غالب بن مساعد ، جهز خمس سواع فى سبيل الله ، ومن أهل ينبع محمد أبو العسل جهز داوا من داواته وثلاث سواع أخرى من أهل ينبع ، فسير السيد محمد الجيلانى جماعة متطوعة من جدة وتلك الداوات فكانوا نحوا من أربعة آلاف مقاتل، ثم سار نحو المدينة المنورة فمر بأهل رابغ والحليص (واديان بين مكة والمدينة) فدعاهم فأجابوا وبذلوا أموالا واسعة . وسار إلى بدر فانالوه وخرج منهم جماعة متطوعة وكان له وكلاء يجمعون الأموال معه ، ثم نزل بالصفرا . (ناحية فى المدينة) فدرس بها ودعا إلى الجهاد فجاؤه بأموال واسعة ، وسار إلى المدينة فتسلم من أهلها أموالا وخرج منهم ثلاثمائة متطوعة ، فنزل الجميع إلى ينبع ، وجاء الخبر بأن المتطوعة من ديار مكة قد مرت مراكبهم ، فحمد الله ، وسار بمن معه وكان السابقون من مكة قد خرجوا من ريف مصر وعليهم السيد حسن الجيلانى ابن أخت السيد محمد والسيد طاهر أخو السيد محمد فنزلوا بقنا ؛ فقيل لهم أن الفرنسيس بمدينة سمنود قريبا منكم فخرجوا نحو الفرنسيس فاقتتلوا فكانت الدائرة ذلك اليوم على المسلمين ففروا إلى قنا ، فحوصروا بها فخرجوا منها إلى الريف ، وسار بعضهم إلى

اللقيطة وورد على المسلمين خبر نزول الجيلانى من البحر ، فالتقاه جماعة منهم فطلبهم وسار بهم حتى حاذى مدينة أبنود» .

ويستمر جحاف ويسرد أنباء المعارك التى دارت فى صعيد مصر ، والتى لم يكن للمجاهدين معرفة بفنونها الحديثة ولاعتادها العسكرى . ويصل إلى نهاية الفصل التاريخى بقوله: «انفصم عقد نظام المتطوعة وذهب الناس ارسالا لا أمير لهم ، منهم الذاهب إلى مصر والذاهب إلى الشام ، والعائد إلى الحرمين ..» .

أما المصادر الفرنسية فقد صورت العديد من المعارك التى وقعت مع قوات الجيلانى فى الصعيد .

وفى خطاب كتبه ديزيه إلى بونابرت يشرح موقفه قائلا : «معارك متصلة مع الفلاحين والمتطوعين المكيين .. وكأننا على حافة العالم ، أننا نفتقر إلى كل شىء ، ونوع الحرب التى نخوضها عسيرة .. ».

تسجل يوميات الحملة الفرنسية ما وقع يوم الثالث من أبريل ، عندما كان يقود «الشريف حسن» نحو ألفين من المكيين ، ولحق ببعض قطع الأسطول الفرنسى فى البحر الأحمر ، فراحوا

يطلقون نيران بنادقهم على سفنه ، وكانت السفينة «ايطاليا» تحمل نحو مائتى بحارا ومعه ثلاثمائة من الجرحى ، وفرق موسيقية ، فردت على النيران بمدفعية مدمرة ، ولم يخف القصف المكيين ، وهجموا فى صنادل صغيرة ، وبدأو يصعدون إلى ظهر السفينة ، وعندما أدرك قبطانها «موراندى» أن المقاومة لا تجدى ، أمر باخلاء السفينة وإحراقها وقتل المكيون موراندى واقتادوا الأحياء من الفرنسيين إلى البر .

كما سجلت الحملة أحد المعارك المهمة عندما تحصن عدد من المكيين فى أحد بيوت قوص وكتب القائد الفرنسى بليار إلى ديزيه وصفا يقول فيه .. « أصدرت الأمر باقتحام البيت وأفلحنا فى شق طريقنا إلى الباحة واشعال النار فى البناء ، ونزل المكيون عدوا وهم عراة ، يمسك كل منهم سيفا بيد والبندقية بالأخرى ، ويطلقون النار على جنودنا ويقفزون إلى اللهب محاولين اطفاء النار بأقدامهم ..» .

وكان الاستيلاء على القصير ضرورة لمنع تدفق تيار المتطوعين من الجزيرة العربية .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن أهم دروس الحملة الفرنسية أن الأمن المصرى يمتد إلى كل من السودان وفلسطين ، فقد أدرك نابليون أنه لا يمكن أن يقر له قرار فى مصر . إذا لم يخضع كليهما ، فأرسل ديزيه بجيشه إلى السودان مطاردا مراد بك ، وقاد بونابرت قواته فى حملة على فلسطين مطاردا إبراهيم بك ، هادفا تأمين الوجود الفرنسى فى مصر .

ولا يقلل من أهمية مخطوط لطف الله جحاف تفسيره الساذج للأحداث ، فالأهمية ليست فيما يقدمه من تقديرات بل ما يسرده من أحداث ، ومن تصورات أهل زمانه فالحملة الفرنسية عنده قد قامت بسبب خلاف أحد التجار الفرنسيين مع حاكم مصر حينذاك الذى «أطلقه فى قيد الذل مهانا ، فراح عنها ووصل إلى سلطان دياره بونابرته» ، وبعد رفض السلطان السماح للفرنسيين ، بالخروج إلى الاسكندرية ليعبروا منها إلى بحر السويس لحاجات لهم بالهند ، فأبى ذلك ولم يسعفهم إلى ما هنالك ..» .

وما كشف عنه هذا المخطوط من وقائع تاريخية ، يرجع الفضل فيه للدكتور مصطفى سالم الذى أحب اليمن وعكف على تاريخها ، وأخضع كل ما جاء فى المخطوط لمعايير البحث العلمى .

أورطة مصرية سودانية
تحارب فى المكسيك

هذه صفحات مطوية من التاريخ..

عندما شاركت «أورطة» مصرية - سودانية فى حرب المكسيك عام ١٩٦٣م والتى جرت وقائعها بعيداً وراء المحيطات والقارات. بين الجمهوريين ودعاة الامبراطورية فى المكسيك، وهى حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل، قامت خدمة للمصالح الاستعمارية لفرنسا وبريطانيا وأسبانيا.

وما يثير الدهشة أن هذه الحرب لم تحتل فى كتب التاريخ سوى صفحات معدودة ، رغم ما تحمله من عبر ودروس، ورغم أن هذه «التجريدة» أمضت فى حربها أربع سنوات وسبعة عشر يوماً.

قرر هذه الحملة الوالى محمد سعيد باشا، واستمرت إلى عهد سلفه الخديوى إسماعيل والتى تقررت مجاملة لنابليون الثالث امبراطور فرنسا، والبعض يؤكد أنها استمرت بسبب العلاقات الخاصة جداً بين الامبراطورة أوجينى والخديوى إسماعيل!

ويحتل سعيد مكاناً خاصاً بين أفراد أسرة محمد على، ففى فترة حكمه برزت فكرة المواطنة وحقوقها المتساوية وهو أول من جعل اللغة العربية بدلاً من التركية لغة المعاملات.

وأول من جند المصريين تجنيداً إجبارياً لمدة عام، ولم يستثن أبناء العمد والمشايخ بعد أن كان التجنيد يقتصر على أبناء الفقراء، وفى هذه الفترة دخل عرابى إلى الجيش، وهو القائل: «نظرت فى أحوال الشعب المصرى وتاريخه فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره توالت عليه الدول الظالمة، الهكسوس والأشوريون والفرس واليونان والرومان قبل الإسلام.... وكثيراً ما أغارت فرنسا على مصر حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت، وبما إنى اعتبر نفسى مصرياً فوجب علىَّ أن أربى هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة، ويستغنى عن الأجانب..»

ويقول فى رسالة بعث بها من الخارج... «لا أريد اقامة زينة واحتفالات لدى عودتى ولا أرغب فى أن يتكلف الأهالى مصاريف للتزلف، ويجب على كل ديوان أو مصلحة أن يبقى مواظباً على أعماله وأشغاله..».

وكان هو أيضاً الذى أعطى صديقه ديلسبس امتياز حفر قناة السويس وكان آخر عمل غير عادى ختم به حياته هو استجابته لنداء نابليون الثالث فى الاشتراك فى حرب المكسيك!

البحث عن شركاء

ولنتابع الحملة المصرية إلى المسكيك من بدايتها، ونتبين السياق الدولى الذى وقعت فيه .

كانت الحملة تستهدف مواجهة الثورة الوطنية التى اشتعلت هناك، وظروف المكسيك فى هذه الفترة التاريخية قريبة الشبه بما كانت تشهده مصر، وهى موطن أقدم الحضارات الهندية وأرقاها، وكانت تشهد حركة اصلاح ديمقراطى، كان احدى ثمارها دستور ١٨٥٧م. وقامت حركة مضادة استعانت بفرنسا وفرضت الأسرتان الحاكمتان فى كل من فرنسا والنسما أحد أفراد أسرة الهابسبورج الامبراطور ماكسيميليان حاكماً على المكسيك، وتذرعت هاتان الدولتان - كمبرر لهذه الحرب - باساءة حكومة المكسيك معاملة رعايا فرنسا وانجلترا وأسبانيا، وعدم تسديد ما عليها من ديون!.

أما الدافع الحقيقي للحرب ، فهو الرغبة فى إقامة حكومة موالية لهذه الدول ، تحقق التوازن فى القارة الأمريكية مع الولايات المتحدة القوة الديمقراطية الجديدة البازغة ، ولكن ما لبثت كل من بريطانيا وأسبانيا أن سحبت قواتهما بعد أربع شهور من القتال ، وتُركت فرنسا متورطة وحدها هناك ، فأخذت تبحث لها عن شركاء ، وخاصة أن المناخ القارى للمكسيك ومناطقها الجبلية كانت تستعصى على الفرنسيين ، فتقدم نابليون الثالث يطلب إلى «صديقه» سعيد إرسال قوات مصرية للقتال فى جبال المكسيك ووهادها .

كان الهدف إذن، القتال ضد ثورة تهدف إلى التحرر!

وانتهت الثورة المسكيكية بالانتصار، وتولى زعيمها الوطنى جواريز رئاسة أول جمهورية، وقتل الامبراطور ماكسيميليان التي أرادت فرنسا أن تفرضه على شعبها!

وقد نشر الأمير عمر طوسون فى بداية الثلاثينيات كتاباً روى قصة هذه الحملة منذ مغادرتها الاسكندرية وحتى عودتها يوم ٨ يناير ١٨٦٧ وقد بدأت وعدد جنودها ٤٥٣ وعادت بعد أن فقدت ١٤٠ جندياً .

غادرت «التجريدة» ميناء الاسكندرية على متن الباخرة الفرنسية «لأسين» فى طريقها إلى ميناء طولون الفرنسى. وهناك شاهد الجنود القادمون من النجوع والكفور لأول مرة مدينة أوروبية، يتحدث أهلها لغة أخرى، ونساؤها جميلات سافرات، وقبل إدراك ما حولهم ينتزعون من المستعمرات الفرنسية، ويستقلون سفينة أخرى فى طريقها إلى ساحة المعركة فى المكسيك، التى وصلوها يوم ٢٣ فبراير وبعد أن فقدت الأورطة سبعة من جنودها فى رحلة الآلام!

وعندما وصلت الجيوش الفرنسية التى تضم الأورطة المصرية، إلى مكسيكو العاصمة المسكيكية أقيمت احتفالات كبيرة، وتم استعراض الأورطة المصرية السودانية فى أكبر ميادين العاصمة ومنح كل جندى ٦٥ سنتيماً يومياً علاوة على راتبهم الذى تقاضونه من الحكومة المصرية.

القائد = ٥ آلاف فرنك!

وواجهت الجملة منذ مراحلها الأولى مشكلة التواصل مع بقية الجنود تمكنوا من جلها عن طريق الجنود الجزائريين الذين قاموا بالترجمة ، وأخذت التقارير التى ترد إلى القاهرة تصف العديد من

المصاعب التى مرت بها هذه الحملة، وهى تقاتل حرباً ليست حربها فى بلاد بعيدة وتفصلها عن أوطانهم البحار والمحيطات، وكان سوء المناخ أهم أعداء الحملة بما يسببه من أمراض ، وفقدت الأورطة قائدها جبر الله محمد بعد فترة قصيرة عندما أصيب بالحمى الصفراء. وخلفه محمد الماس، وترك ٥ آلاف و٦١٧ فرنكاً أرسلتها السلطات الفرنسية إلى أسرته فى القاهرة مع خمسة آلاف فرنك أخرى منحة من السلطات الفرنسية.

وجاء فى أحدث تقارير الحملة: «تميزت هذه الوحدة بالشجاعة والبراعة فى الرماية وقوة التحمل، لذلك أوكل لهذه الوحدة دعم المواقع المتقدمة وتولى أصعب المهام. وهى صد الغارات التى تشن على قوافل المئونة والذخيرة».

والمدهش حقاً ما سجلته هذه الحملة من أعمال باسلة فى المعارك التى خاضتها. رغم افتقارها للمعنى والهدف، ومن أوراق هذه الحملة ما كتبه القائد الفرنسى لمنطقة فيراكروز حول الموقعة التى نشبت فى ٢ أكتوبر عام ١٨٦٣ قال: «أبلت الحملة بلاء حسناً ولم يبالوا بقوة النيران التى أطلقت عليهم، وردوا المهاجمين الذين يفوقونهم عدداً بنسبة تسعة إلى واحد!».

وذكر كتاب «مصر في عهد إسماعيل» الذى كتبه كل من اميدية ساكريه ولوى اوترين قصة هذه المعركة يقول الكتاب: «غادر أحد القطارات محطة فيراكروز تحت حراسة جنود الأورطة المصرية - السودانية، وعند نقطة على الطريق بين الجبال فى ممر لا يتجاوز عرضه أربعة أمتار وعند منحنى وعر، نصب كمين للقطار بعد أن انتزعت قضبانه. وبدأ الثوار يطلقون النار من كل جانب، وما كان يشغل جنود الحملة فى هذا الوقت الدقيق سوى رد المهاجمين، وعندما خرج القائد الفرنسى «ليجين» وهبط من القطار تبعوه، وقذف بجنوده إلى المرتفعات تحت نيران المهاجمين ، وأصيب القائد الفرنسى ومرافقه بلال بطلقات قاتلة ، فتقدم بخيت بدروم وأتون سودان وحملا ليجين وبلال حماد ، وتسلم الملازم شارة القيادة وأعاد تنظيم قواته لتواجه كل الاحتمالات، ونجح فى صد المهاجمين وأبعادهم عن القطار المزدحم بالنساء الهلعات والكهول العاجزين ، واستمر القتال حتى وصل الدعم ، ولاشك أن صد الهجوم يعود إلى ثباتهم وشدة مقاومتهم لما يزيد على ثلاثمائة مهاجم...».

ماذا بعد شجاعة الرجال ..؟

وتشمل أوراق الحملة رسالة كتبها القائد العام للقوات الفرنسية لنظارة الجهادية فى القاهرة يقول فيها: «إن الأورطة قاتلت بشجاعة نادرة فلم أشاهد قتالاً نشب فى هدوء وحماس كما شاهدتهم، فكانت أعينهم وحدها هى التى تتكلم وكانت جرأتهم تذهل الجميع..»

وتضمنت سجلات قصر عابدين رسالة كتبها الخديوى إسماعيل إلى قائد الحملة يعبر فيها عن تقديره.. «وردت على مسامعنا ما قمتم به من ثبات وإقدام فى الحرب وما ابديتموه من شجاعة ومهارة، ما أوجب الالتفات إليكم من الدولة الفرنسية، وارتحنا غاية الارتياح لما ظهر منكم، فحافظتم على الشرف الذى حصلتم عليه من الحكومة المصرية.. وأقصى آمالنا إنقيادكم للأوامر التى تصدر من الجنرال الفرنسى، وحصول سرورنا يكون بحصول سرور الجنرال وسرور الدولة الفرنسية منكم ومن أفعالكم..»!!!

وتمضى الأيام وتكمل الحملة سنتها الرابعة ويقترب رجالها من أهالى المكسيك، ولا يفوتهم التشابه بين بلادهم وبين البلاد التى

وصولوا إليها، ويتعلم بعض أفراد الحملة اللغة الأسبانية السائدة ويتعاطفون مع آمال الشعب المكسيكى، ويتعلم الأهالى صناعة الخبز المصرى الذى حرص رجال الحملة على صنعه، والذى يذكرهم بما تركوه خلفهم فى أرض الوطن، ومع بداية عام ١٨٦٧ يتقرر جلاء القوات الفرنسية، ويبدأ انسحاب الأورطة يوم ١٢ يناير تاركة خلفها ذكريات مرة مع الذين سقطوا بعيداً.

وتعبر بهم الباخرة المحيط وتصل إلى ميناء سانديز الفرنسى، ويتوجهون إلى باريس، يستقبل جنود وادى النيل الامبراطور نابليون الثالث فى حديقة قصره فى حضور ناظر الجهادية شاهين باشا، الذى شاهد الامبراطور يثنى على رجال الحملة، كما شاهد قائد الحملة البكباشى الماس يرد على الامبراطور معبراً عن تقديره، ثم وزع على أفراد الحملة المكافآت والأوسمة..

وأخيراً يصل الرجال إلى الاسكندرية فى أواخر شهر مايو، ويستقبلهم الخديوى إسماعيل فى فناء قصر رأس التين . وبذلك يسدل الستار عن فصل فى تاريخ العلاقات المصرية الفرنسية أو بالأحرى فصل فى علاقات العرب بالغرب ، ولم يكن الفصل الأخير..

أما مغزى الحكاية كلها، فيظهر في أنه بالرغم مما قام به سعيد من الاستعانة بفرنسا من أجل دعم استقلال مصر تجاه الدولة العثمانية، ورغم ما استهدفه خلفه إسماعيل من خلق توازن بين كل من فرنسا وانجلترا لدعم استقلال مصر. فلم يسفر كل ذلك سوى عن نتائج عكسية!..

ولم تجد المشاركة في حرب المكسيك شيئاً ولم يفد انتشار الخبراء الفرنسيين في الإدارة المصرية، بل ولا حتى حصول فرنسا على امتياز قناة السويس، بل وحتى ما أعلنه وسعى إليه الخديوى إسماعيل من أن تكون مصر قطعة من أوروبا.

ومضت المخططات الاستعمارية في طريقها، واشتركت فرنسا في صندوق الدين، وكانت أنشط الدول المطالبة بتخلى الخديوى إسماعيل عن عرش مصر.

وتظهر المأساة التاريخية في أجلى صورها، عند المقابلة بين دوافع حرب المكسيك ودوافع الاطاحة بإسماعيل، عندما استخدمت ضد إسماعيل ذات الذرائع التي حاربت بسببها الأورطة المصرية السودانية في المكسيك، بل استخدمت الحجج نفسها التي تذرع بها البريطانيون عند احتلالهم مصر في يوليو عام ١٨٨٢، اساءة معاملة الرعايا الأجانب وضمان تسديد الديون..

ويمضي التاريخ يستصرخ من يدرك عبره..

لغز «الشخصية المصرية» !

هذا كتاب يستفزك عند قراءته ، يكتبه صاحبه وهو يتوهم أنه من جنس أرقى من غيره من البشر ، يتهكم فيه على المصريين وطبائعهم ينظر إليهم من عل ، بوصفهم قاصرى العقول بعيدين عن الحضارة !

يكتبه على سجيته ، فى رسائل خاصة لم تكتب لكى تنشر . يخطها وهو يعانى الوحدة والتفرد فوق قمة الهرم الوظيفى . كأحد كبار المستشارين البريطانيين ، لذا سخر فيها ، واستظرف كما يحلو له .. !

وتنشر زوجته هذه الرسائل في كتاب بعد وفاته ، وزواجها من اللورد ملنر وثيق الصلة بأحوال مصر وصاحب لجنة ملنر الشهيرة، فينصحها بضرورة نشره ، وتصدر طبعته الأولى فى لندن سنة ١٩٢١ . ويعاد طبعه حتى اليوم ٢٢ طبعة . لا لقيمته ولكن لولع الانجليز بأيام المجد الغابر ، ومع رواج الكتب التى تتناول دور الرجل الأبيض فى كل من الهند ومصر والمستعمرات القديمة ..

وإذا كـان الكتـاب على هذه الصـورة ، فلمـاذا الاهـتمـام به وتقديمه ؟!

ربما .. لما يشكله صدوره من سخرية القدر ، فقد صدر هذا الكتاب بعد أن أكدت الوقائع والأحداث ما يتضمنه من لغو وسطحية ، وكشف مدى زيف نظرته ومدى ما فيه من تعميم ، فإذا كان قد رصد الظاهر من الأمور إلا أنه لم يصل إلى الأغوار العميقة للشخصية المصرية ، واكتفى بنقل ما يجرى فى الدوائر العليا وتجاهل ما يضطرب به الشارع المصرى .

ولم يمض وقت قليل على وصفه للمصريين بهذا القدر من الاستخفاف والهزء إلا وقامت أهم وأول ثورات الشرق ، وأشعلت ثورة ١٩١٩ فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وهددت الوجود الاستعمارى كله ، وقدمت نموذجا لكل الدول الخاضعة للاستعمار.

وأهم ما يطرحه هذا الكتاب ، وإن كانت بصورة غير مباشرة ، هو ردود فعل المصريين على الاستعمار البريطانى ، مما يلقى الضوء على أبعاد الشخصية المصرية ، والتى كثيرا ما تقيم بأقل مما تستحق ، وفيه تظهر شخصية مصر التاريخية ، وكأنها لغز يحتاج إلى تفسير ..

فلا يمكن أن يتوقع من يقرأ كتاب اللورد سيسيل . أن يكون هذا الشعب الذى رسم بعض شخوصه ، قادرا على القيام بثورته الوطنية ، والغريب أيضا أن هذه الصورة جاءت فى تقارير القناصل قبل قيام الثورة ثم تفاجىء الثورة الجميع ، وتجد أن ذلك يتكرر فى مناسبات تاريخية مختلفة ، فلم أجد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولم يتوقع أحد الأداء المذهل الذى قدمه جنود مصر فى أكتوبر ١٩٧٣ .

كما تأتي أهمية كتاب اللورد فى أنه أحد أشكال التحدى الذى يدفع إلى تغيير بعض صور التخلف القائم ، ولعل وقع كلمة المتحامل أن تدفع المتحامل عليه إلى التخلص مما يسىء إلى صورته ، ويولد حالة من الحنق الذى يخلق طاقة العمل والتحدى ؟

وقد تطفو على السطح فى مراحل التدهور فئات إجتماعية يشغلها الخاص بدلا من العام ، يهمها الذات بدلا من مجموع الأمة ، وما تحت أقدامها بدلا من المستقبل .

ومما لا شك فيه أن حركة الشعوب ، يحكمها قانون تراكم الخبرة التاريخية وتأتى نهضتها نتيجة حركة إجتماعية عقلانية ،

وهى ليست بالقضاء والقدر ، وإنما تحسمها قدرة الشعوب على التضحية ، وقدرتها على مواءمة حركتها مع اللحظة التاريخية وموازين القوى المحلية والعالمية ، الفاصل بين أيام التدهور وأيام العز ، هو عمق الشعور بتدهور الواقع والرغبة العارمة فى تغييره .

وهذه هى الظواهر التى تقدم المؤشرات على بداية نهضتها وتجديد حياتها .

الهزء والسخرية !

نعود إلى كتاب اللورد سيسيل الذى ازدحم بالهزء والسخرية اللاذعة من المصريين ، من الوزير حتى المواطن البسيط ، وأطلق على كتابه «أوقات فراغ موظف مصرى» وصاحبه أحد أعمدة الاحتلال البريطانى ، بدأ سنة ١٩٠١ كأحد جنوده وانتهى كأهم موظف بريطانى فى الادارة المصرية ، انتهت عام ١٩١٤ ، وتولى خلالها سكرتارية وزارة الحربية عام ١٩٠٤ ، ثم أصبح سكرتيرا لوزارة المالية سنة ١٩٠٥ ، وأخيرا مستشارا ماليا عام ١٩١٢ .

يقدم فى كتابه أربعة نماذج إختارها من المثقفين والصفوة فى مصر ، أحدهما وكيل وزارة ، والثانى محسن كبير

والثالث وزير الفنون والصنائع والرابع أحد كبار موظفي وزارة المالية .. »

ويصف وكيل وزارة الحقانية بأنه قصير ضئيل يطلقون عليه سخرية «أوليفر تويست» جاءه يسعى لكى يساعده فى إقامة منزله على نفقة الدولة ، ولكنه لا يفصح عن هدفه مباشرة ، بل مدخله الحديث عن الطقس ، وينتقل إلى مسائل خاصة بعلاقة وزارة المالية بوزارته ، ويصل إلى هدفه سريعا ، فهو يتصور أن من واجب كل الوزارات أن تتحمل نفقات بيته الجديد ، ولقد قدمت له وزارة الأشغال الأحجار التى يحتاجها بنصف ثمنها ، ونقلتها السكك الحديدية بربع الثمن ، ويشرف على إقامة بيته بدون مقابل أحد مهندسي وزارة الأشغال ، وجاء يطلب تدخلى لادخال المياه إلى منزله مجانا ..

وأرفض طلبه ، وأعرف أنه لن يكف عن المحاولة ، وسيصل إلى هدفه إما عن طريق الخديوى أو رئيس الوزراء أو الوكالة البريطانية !

المكتبة والمرقص !

وها هو مثقف آخر جاء لزيارته ، اسمه أحمد بك كلام ،وهو

«محسن كبير» مترهل الجسم قصير القامة ، له عينان براقتان صغيرتان سوداوان ، يرتدى ملابس أديب أو فنان ، وفوق رأسه طربوش الوطنية .

ورغم أنه وطنى غيور إلا أنه دأب على أن يتردد علىّ ، ويسر إلىّ بما فى نفسه ، ويجتهد فى حصوله منى على بعض الأموال !

وهذه المرة يبدو عليه القلق والثورة ، أسأله .. هل أستطيع تقديم أى خدمة لك .. ؟ ويندفع ويخرج منديله ويمسح دمعة تترقرق من عينيه ، ويروى بصوت متهدج مشكلته .. إنه من عائلة عريقة في الوطنية ، تعود أبناؤها أن يقدموا أرواحهم فداء للوطن ، ويلاحقه العار لأنه لم يشترك نتيجة لمرضه فى معركة التل الكبير - التى وقعت بين جيش الاحتلال البريطانى وقوات الثورة العرابية - ولكنه يشترك فى كل مشروع وطنى يرمى إلى رقى البلاد ، ومع ذلك لم يقابل أبناء جلدته جهاده هذا إلا بالجحود والنكران ، وجاء يبث شكواه «فأنت كنت لى دائما نعم الوالد» ويمضى شارحا ، إقترحت منذ فترة إقامة مكتبة وطنية تضم ذخائر الكتب العربية ، على أن يكون رسم الدخول قرش تعريفه ، ونجحت فى

جمع الاكتتابات لهذا المشروع ، ومن بينها مبلغ كبير تبرع به الأمير أحمد إبراهيم ، ولم يصادف المشروع النجاح ، بعد إنصراف الشباب على كل ما هو جاد ، فلم يتخلصوا بعد من وحدة اليأس ، وظلوا منصرفين إلى الكتب الرخيصة ، وفشل المشروع ، وتحولت المكتبة إلى دار وطنية للموسيقى والرقص ، ولم ترحم الشرطة تلك الدار ، وأغلقوها بحجة منافاة ما يدور فيها للآداب العامة !

وكان لدىّ بعض الجنيهات التى سبق جمعها ، فأرسلتها إلى فقراء مكة ، وإذا بأسرة الأمير تطالب برد المال ، أو تقديم دليل على إنفاقه فى الخير ويهددون برفع النزاع إلى القضاء ، ولكن هل يمكن أن يحصل محسن مثلى على صك من فقراء مكة ؟!

وتظاهرت بتصديق قوله ، ونصحته بأن يرد إليهم مبلغا يساوى المبلغ الذى أرسله إلى مكة ، حتى يناله وحده الثواب (!!)

إلى جانب الغالب !

ويعود ويوزع سخريته على الموظفين ، بأنهم مولعون بإحالة المسائل إلى من هم أعلى منهم سلطة ، وهم أسرى خوفهم وتهيبهم، وعدم شعورهم بأهميتهم ، وهذا ناتج من أن عقولهم لم

تكتمل (!!) وما يثير إهتمامهم هو الأثر المباشر وليس النتيجة النهائية ، كما أنهم يتلهفون على أن يكونوا إلى جانب الغالب ، مما يبعث على الرثاء ، وحينما طلبت من أحد كبار موظفى الحسابات بعض الأرقام ، لم يفوته أن يسألنى ، عن هدفى من هذه الأرقام ، ثم جاءت الأرقام مقنعة تماما وكاذبة بالكامل !

ويروى حضوره أحد اللجان التى يرأسها محمد باشا أحمد وزير الفنون والصنايع ، ومهمة هذه اللجنة منح الامتيازات والرخص للأفراد والشركات ، ويرأسها الباشا لا بوصفه وزيرا فحسب بل ومن كبار الملاك أيضا ، وكان وصوله إلى مركزه هذا محل فكاهة واستغراب الجميع ، فهو فى الأصل ابن مالك بسيط ، وعمل فى الحكومة وترقى حتى أصبح قاضيا ، وحول من خلال منصبه نظام الأحكام فى القضايا الجنائية إلى تعريفة خاصة به ، يدفع المتهم إلى شخصه الكريم ويحصل على البراءة .

وترقى حتى أصبح مديرا عاما فى ديوان الأوقاف ، وفيها ترجم كل أعمال الحكومة إلى ما يساويها نقدا ، ولم يكن أنانيا بل يوزع بعض ما يحصل عليه على المناصب الأعلى ، ووزارة

الأوقـاف تدار أمـورها بواسطة أعلى مـقـام فى الدولة ، وكـان محبوبا من أعلى .

وبالرغم من أن أمـره كان مكشـوفـا للجـمـيع إلا أنه لا يمكن إثبات شىء ضده ..

وكنت أميل إليه لما يتمتع به من خفة روح الفلاح وفكاهته ، وهو ما يتناقض مع خبث ورياء المصرى إبن المدينة ، فـهو وغد ذكى جاهل طيب ليس له ضمير ! ..

ويعود إلى ذم الموظف المصرى بقوله .. يتقن الموظف المصرى إضاعة الوقت ، ويغرم بالكلمات الضخمة والجمل الرنانة ، التى كثيرا ما تكون بلا معنى ، فإذا طلبت أرملة معاشها ، راحوا يؤكدون على فضيلة الرحمة وعظمة الاحسان ، وانتهوا باقتراح وسيلة ملتوية ماكرة للتخلص من الاستجابة لطلب العجوز المسكينة .. (!!)

ويوقع المرءوسون وراء إمضاء رؤسائهم، ولهم طرقا يستدرجون بهـا الرؤسـاء إلى الأمـضـاء على ورقـة ظاهرها البـراءة ، وفى حقيقتها تتضمن وسائل ارتكاب كل ما يريدون ..

ولا تقع عينى اللورد إلا على كل نقيصة ، يصنف ما يراه من شرفته يوميا ، فالمنازل عمارتها قبيحة وضوضاء الترام تظهر مع كل صباح ، ويرى الترام وهو ينحنى فى «الدوران» الذى يطل عليه مثل الخنفساء ، وكثيرا ما يخرج الترام عن القضيب ، فمن المستحيل على المصرى أن يتعلم من تجاربه (!) ويكاد يخرج الترام على شريطه خمسة أيام فى الأسبوع ، وكل مرة يبدأ السائق بالاحتجاج والشكوى وينضم إليه المحصل ، ويثور الشجار بينهما حتى يأتى شرطى نعسان يسب ويلعن الجميع ، وبعد معركة حامية يعيدان الترام إلى الشريط .

أما خادمه ، فهو ناقص الأهلية يحدث جلبة وضجيجاً يوميا ، ويعجز عن إنضاج بيضتين ، «ولا يأتى إلى غرفة نومى إلا ويحدث صوتا مزعجا ، ويتعثر فى طريقه بشىء إما المائدة أو المقعد ، فيقلب قدح الشاى ويوصد الباب بعنف فى حركة واحدة ! وإننى أزعم أن لهم بقايا فضائل بعضها لم يفسد ، وهم غالبا فاسدون على نحو ما بكل الرذائل الشرقية المعروفة ، مع القليل من قلة الأمانة» .

ويصف أحد كبار موظفى المالية .. «أهم ما يميزه أنه يفيدنا بواسع معرفته بكل إختلاسات الأراضى التى وقعت فى مصر خلال الأربعين سنة الماضية ، والتى يحمل تفاصيلها فى رأسه العتيق الكثة القذرة !» .

مصدر الثروة

ويبدو أن أملاك الدولة ، هى أحد مصادر الثروة للأفاقين والأوغاد منذ زمن بعيد ، سواء قبل وبعد الاحتلال البريطانى ..

ويستعرض اللورد الكثير من الحيل للاستيلاء على هذه الأملاك، ولعل الفارق الوحيد ، أن أغلب الطامعين كانوا من الأجانب أيام الاحتلال .

أحد هؤلاء سنيور ينى الايطالى ، وهو كهل متأنق ، وجهه يوحى بالثقة ، له إلمام واسع بالتاريخ ، ويعرف خمس لغات ، ويهوى الموسيقى والتصوير ، ولديه مجموعة فريدة من عاديات عصر البطالسة ، جاء يطلب من اللورد الموافقة على شراء مساحة من أراضى الدولة فى أطراف أحد ضواحى القاهرة ، لكى يقسمها ويمهدها ويوصل إليها الخدمات ويبيعها للأهالى ، فتحصل منها الحكومة على ضرائب عقارية ، ويطلب إبقاء الأمر سرا حتى لا ترتفع أسعار الأرض فى الناحية كلها ..

وما يلبث أن يغادر مكتب المستشار حتى يقرأ رسالة من مدير مصلحة السكك الحديدية ، يبلغه أنه وجد الموقع المناسب لمحطة البضائع الجديدة ، وعرض صاحبها تمهيدها وتسليمها خلال عامين بثمن معقول ، يقل كثيراً عن ما ندفعه إذا قمنا بنزع ملكيتها وتمهيدها . وهى ذات القطعة التى طلب شرائها السنيور .

ولعل سنيور ينى قد رشا أحدهم ، وكاد أن ينسل بين المالية والسكك الحديدية ، ويفوز بغنيمته ويربح فى هذه الصفقة ما يزيد على ٢٠٠٪ .

اليهودى والأرمنى ..

ويمضى مسلسل الاثراء من خلال أملاك الدولة ، ويتداخل مع الاستثمارات الأجنبية فى مصر ، عندما يروى قصة ممثلى أحد الشركات الأجنبية الذين يطلبون إمتيازا ، عندما دلف إلى مكتبه ثلاثة أحدهم رجل أعمال ومستشار قانونى وخبير محلى ، رجل الأعمال يهودى هو «المستر سمسون» والقانونى المستر «ديبونج» الفرنسى من أصل أرمنى ، والخبير المحلى سورى يدعى «كساب» يحمل الخرائط ويتطلع فى خضوع إلى اليهودى .

يقول اليهودى .. جئت إليك ممثلا لجماعات مالية ذات نفوذ كبير ، أعرض إقامة مشروع ضخم لا نتوقع منه ربحا وفيرا ، ودافعنا الاهتمام الكبير الذى نشعر به نحو هذه البلاد وأهميتها للعالم ، فمصر مكان صالح ومناسب للاستثمار ، ويكمل القانونى شرح المشروع الذى لا يزيد على طلب إمتياز لمساحة كبيرة من الأرض ، وأخيرا يقوم الخبير المحلى بعرض خرائط ملونة وتفصيلية للمشروع المزعوم ، والذى يتضمن أدق التفاصيل . وتصل فيه التقديرات إلى أربعة شلنات وثلاثة بنسات ..

ولا يخرج المشروع عن عملية إحتيال تتكرر مع تغير التفاصيل ، طلب أراضى يزعمون عدم إحتياجها لمياه الرى والاكتفاء بمياه الصرف ، لزراعة القنب والليف ، وأشجار التوت ، وما يكادون يحصلون على الأمتياز ، حتى يبدأ الالحاح لكى تصل إليها مياه الرى ، وعندها يبيعون الأرض ويتقاضون من الجنيهات ما سبق ودفعوه قروشا ..

ويعد العرض ينسحب المدعو سمسون بأبهة ووقار ،

مقر صيفى ..

ويصل اللورد إلى الذروة عندما يرسم صورة ساخرة كاريكاتورية لأحد إجتماعات مجلس الوزراء الذى حضره ، ويتهكم على النحو التالى .. يستدعينى سكرتير رئيس الوزراء ، وهو شخص قذر وكريه الطلعة ، ولديه ارتخاء فى إحدى عينيه ، وليس له ذمة أو ضمير ..

وأبلغنى رغبة مجلس الوزراء فى استشارتى فى أمر هام ، يتعلق بالمقر الصيفى وهل نبنى أم نؤجر أم نشترى مقرا مناسبا لمجلس الوزراء ؟

وسرعان ما كنت فى حضرة مجلس الوزراء ، يقابلنى الرئيس ويهز يدى بيده الرخوة ويشير إلى مقعد شاغر ، ويفتتح رئيس الوزراء الحديث بابتسامة رياء ومداهنة ، ويتوجه إلىّ بالكلام!! «إنه يريد أن يعرف ما تم فى شأن إعداد مقر الوزارة الصيفى فى الموسم القادم وقبل أن أجيب يقفز وزير الخارجية الذى يشبه كرة القدم ويسأل !!» هل الأفضل أن نعود إلى النظام القديم ، ونستأجر غرفا فى أهم فنادق الاسكندرية ؟ ..

ويسكته رئيس الوزراء إستهجانا ، ويقول بعظمة وجلال .. «دعونا نعرف بداية ما تم ، ثم نناقش الاقتراحات الجديدة .. فأجيب .. «لم يتم شيء حتى الآن ..» .

ويعود وزير الخارجية ويطالب بتأجير غرف في الفندق حتى يأكل ويتردد على الفندق مجانا - ويرد وزير الحقانية الذى لا يهمه الأكل مجانا قائلا : إنى لا أحب الفنادق ، ولا يتفق مع كرامة الوزارة أن توجد الوزارة فى فندق ، ولكل وزير نمرة على الباب، ويعمل فى ظل صخب الموسيقى الذى يعرقل التركيز فى العمل ..».

ويضيف وزير الأشغال .. «بالفعل .. إنها خوته ودوشة» .

ويتدخل وزير المعارف - الذى كان فى شبابه ابن حظ - قائلا .. «يعيش فى الفندق كلا الجنسين ، ولا يليق أن يوجد فيها مقر الحكومة» ويزمجر وزير الحقانية قائلا .. «إن الحل أن نستأجر فيللا ، مما يتيح لنا العمل فى هدوء ..» ويقاطعه وزير المالية قائلاً .. «يمكن لنا أن نبنى مقرا وافيا من كل الوجوه ، فلدى مقاول ماهر وظريف ..» ويرد وزير الاشغال - السمج الشبيه بالسمكة - «كل المبانى يعود أمرها إلى وزارة الأشغال..» .

ويقترح وزير الحقانية شراء فيللا أحمد بك نسيم ، ونحن نعلم – يعلق اللورد – أن أحمد بك نسيم ثقلت عليه وطأة ديون القمار ، ويسعى لتأجير داره العتيقة ، ونعلم أن وزير الحقانية أكبر دائنيه .. ويتدخل وزير المعارف . يجب أن نبنى هذا المقر وأنا أعرف مقاولا ماهرا ..» وينهى اللورد إستعراضه للجلسة ساخرا بقوله .. «وفى وسعنا أن ننكر تأدبا أى علم بأن وزير الخارجية يريد العيش فى الفندق مجانا ، وأن وزير الحقانية يريد استرداد ديونه فى الميسر ، وأن وزير الأشغال يريد ويهوى قبض العمولة التى قد ينالها من المقاول ، ولكن من الصعب أن نتجاهل أمر زوج كريمة وزير المعارف الذى إنهمك فى مضاربات عقارية ، وأن إقتراحه بأن يتولى شراء سراى للوزارة ، معددا محاسن إقتراحه ، إن تجاهل هذه المسألة شديد الصعوبة !» .

وينتهى الاجتماع دون الوصول إلى أى قرار ، وبقى أن نعرف أن الوزارة التى يتحدث عنها والتي لم يحدد شخوص وزرائها هى على الأرجح وزارة محمد سعيد باشا التى تشكلت سنة ١٩١٠ واستمرت حتى سنة ١٩١٤ ، وكانت تضم :

* محمد سعيد باشا الرئاسة والداخلية .
* سعد زغلول باشا الحقانية (استقال فى ابريل ١٩١٢) .

* حسين رشدى باشا الخارجية .

* أحمد حشمت باشا المعارف .

* اسماعيل سرى باشا للأشغال والحربية .

* يوسف سابا باشا للمالية .

ويؤكد ذلك ما ذكره سعد زغلول فى مذكراته فى ١٦ يونيو سنة ١٩١٠ حول هذا الاجتماع ، ويقول .. «انعقد مجلس النظار بسرأى زيزينيا يوم ٢ يوليو ١٩١٠ ، تحت رئاسة سعيد باشا ، وحضره اللورد إدوارد سيسيل بالنيابة عن المستشار المالى ..».

وقد تشكلت هذه الوزارة بعد إغتيال بطرس غالى ، ويقول عنها عبد الرحمن الرافعى .. «بالرغم من أن الآمال كانت معقودة على أن تساير هذه الحكومة الحركة الوطنية لما عرف عن محمد سعيد قبل تولى الوزارة من ميول وطنية ، إلا أن وزارته كانت شرا على الحركة الوطنية من وزارة بطرس غالى السابقة ..» .

وما يثير الدهشة أن كتاب اللورد سيسيل قد ترجم ونشر عام ١٩٢٢ ، وقام بتعريبه الكاتب الكبير محمد التابعى ، تحت عنوان «مذكرات اللورد إدوارد سيسيل» ولم يظهر صدى لنشره ، رغم أنه نشر فى ذات الفترة التى كان شخوصها مازالوا على قيد الحياة !

دور الصفوة المصرية

أحد إصدارات المعهد الأمريكى لأبحاث السياسة العامة (واشنطن)

تحرير : چورچ لتروفسكى

يتناول هذا الكتاب تحليل الصفوة السياسية فى سبع من دول الشرق الأوسط هى : إيران وتركيا ومصر وسوريا والعراق ولبنان واسرائيل .

وسنكتفى بعرض ما جاء عن مصر .

لكى نتبين أهمية النخبة فى تطوير المجتمعات المساهمة فى حل المشاكل التى تقف فى طريق التحديث .

ماذا قدمت الصفوة العربية فى مصر؟

هل يصنع التاريخ الصفوة ..؟! أم يصنعه التفاعل الطبيعى للقوى الاجتماعية المختلفة ..؟

ترى المدرسة الأمريكية أن التاريخ يصنعه الصفوة ، لذلك اهتمت بالدراسات التى تتناول دور الصفوة ، على اعتبارها المؤثر الحى على ما يحمله المستقبل ، وقام المعهد الأمريكى للأبحاث

السياسية باعداد كتاب مهم ساهم فيه عدد من أساتذة العلوم السياسية ، يتناول دور النخبة السياسية فى بعض بلدان «الشرق الأوسط» .

ويبدأ الكتاب بتحديد النخبة وحصرها فى القيادات السياسية والتنفيذية ، ويبحث مكوناتها والمؤثرات التى تحدد قيمها واتجاهاتها ودورها فى الفترة الزمنية التى تبدأ من الخمسينات وتنتهى بمنتصف السبعينات ، وتمتد آثارها حتى اليوم .

انها دراسة ربما لا ترضينا ، ولكنها تتحدانا وتحفزنا من أجل بناء نظمنا السياسية على أساس المؤسسات والأفكار وليس على أساس الأشخاص والشلل ، وتكشف أهمية الطريق الديمقراطى الذى نسلكه وما يمكن أن ينتج عند غياب الديمقراطية، وهى أحد نماذج التحليل ينبغى أن نعرفه وأن نناقشه، ويكفى أنه يقودنا إلى ضرورة قيام خلايا حية فى المجتمع، تملك آليتها وقدرتها الخاصة على الحركة ..

ويقوم منهج دراسة النخبة على أن النخبة أقلية نشطة تتمتع بالموهبة والثروة معا ، ويتركز عندها إبداع المجتمع وقدرته على

المبادرة ، فالمجتمع يضم فريقين ، فريق حاكم قليل العدد وفريق محكوم كثير العدد ، يتولى الفريق الأول مقاليد القوة فى المجتمع ، ويدافع هذا المنهج على أن النخبة شرعيتها من أنها النتاج الطبيعى لهذا المجتمع .

ونصل إلى ما جاء فى الكتاب عن دور النخبة فى مصر ..

اهتم الكتاب اهتماما خاصا بدراسة دور النخبة فى مصر ، وكتب هذا الجزء الأستاذ روبرت سبريجبورج - مؤكدا أن مصر كانت دائما فى مقدمة الدول العربية ، وضعها فى المقدمة الانسجام بين سكانها ، وعدم معرفتها لأى انقسامات عرقية أو عشائرية ، كما أهلها لذلك حجم سكانها ومواردها الاقتصادية ودور المثقفين فى حياتها السياسية ، فقد تلقى المثقفون منذ عهد بعيد تعليما منظما .

وأحدثت ثورة ٢٣ يوليو تحولات أساسية على مسرحها السياسى ، فقد قامت الثورة من أجل تأكيد الاستقلال الوطنى وتحقيق العدالة الاجتماعية .

ولكن اتسمت مرحلة الثورة بظاهرتين :

أن تحقيق الأهداف الوطنية جاء على حساب الوسائل والاجراءات الموصلة إلى هذه الأهداف . مما ساهم فى ضعف البناء التنظيمى وغياب المؤسسات التى ترتفع على الأشخاص .

أدت الحاجة إلى قيام سلطة مركزية قوية وقادرة على تحقيق هذه الأهداف ، إلى إهمال اشتراك الشعب فى اتخاذ القرارات ، خاصة أنه صاحب نجاح الثورة والقضاء على الهياكل القديمة .

ويلاحظ الكاتب عندما يحلل النخبة السياسية الجديدة ، أن الثورة لم تكن راديكالية بالقدر الذى يمكنها من تجاوز التقاليد والقيم القديمة الراسخة ، كما عجزت عن التحرك السياسى فى إطار مجموعات منظمة ، وبالتالى غابت العلاقات والروابط المتماسكة لمؤسساتها أفقيا ورأسيا . مما جعل قيام تنظيمات شعبية قوية صعبا سواء تلك التى تقوم على التضامن المهنى أو الطبقى أو الدينى ، وتم اختيار النخبة من خلال تشكيلات غير رسمية . لا تستند كما فى السابق إلى ملكية الأراضى الزراعية . بل اقتصرت على أناس قادرين على أن يرفعوا من قدر المتصلين بهم .

لذلك ظهرت النخبة السياسية كبيرة الحجم ، ضعيفة التماسك، ترتبط بالشلل ، والمجموعات المتغيرة على الدوام .

ويصل الكاتب إلى غياب المؤسسات والتشكيلات المنظمة ذات القواعد الراسخة ، ليس أمرا جديدا ، فقبل الثورة لم يؤد النظام الاقتصادى القائم إلى بنيان طبقي مستقر ، واستمرت الطبقة الوسطى تعانى من الضعف منذ قيامها فى أواخر القرن التاسع عشر ، عندما تحول الحرفيون إلى أجراء . وعندما لم يسمح حجم التصنيع بقيام طبقة عاملة قوية .

ولا يتجاهل الكاتب - مثل غيره من الكتاب الغربيين - ما شهدته مصر قبل الفترة الاستعمارية ، وان كان لا يحسن تقييمها، فهو يسلم بوجود تنظيمات قديمة ، تتمثل فى العلماء وطوائف الحرف والتجار والطرق الصوفية ، ويزعم أن دور هذه التنظيمات قد اقتصر على اختيار الرؤساء الذين يكتفون بدور الوسطاء بين أتباعهم وبين الحكام .

أما تلك المؤسسات الحديثة التى أدخلها الفرنسيون : أيام الحملة الفرنسية ، أو تلك التى أدخلها البريطانيون مع إحتلالهم ، فيشبهها بالسلع المستوردة غير المنتجة محليا ، تتنافر مع مظاهر

الثقافة المحلية والقيم السائدة . ! وبدلا من أن تؤدى إلى تقوية النخبة أدت إلى إضعافها ..

واستمر ذو النفوذ في مصر محاصرين في المدينة بين السلطة السياسية من جانب ، وبين ذوى النفوذ من ملاك الأرض فى الريف من جانب آخر ، واستمر طويلا النظام السياسى لا يسمح للقادة في الريف بالاشتراك فى النخبة التى تتخذ القرارات نتيجة لما عرفته مصر من مركزية السلطة ، مما جعل هذه السلطة تواجه المعارضة على الدوام سواء العلنية أو المكتومة من ذوى النفوذ في الريف وأتباعهم !

ولم تعرف مصر أية مدارس خاصة للنخبة تقوم باختيار وابراز أولئك المؤهلين لاتخاذ القرارات الكبرى ، وهو هنا يتجاهل الأزهر الشريف الذى أخرج العلماء الذين يتصدون للحاكم الجائر ويدافعون عن حقوق الأهالى ومصالحهم .! ، ثم يعود من الابحار في التاريخ ويقول :

وهكذا تميزت النخبة فى مصر بالتماثل ، فهى لا تنقسم على أساس أية فروق عرقية أو دينيــة أو لغوية ، لكنها تميزت بعدم الانسجام لافتقادها إلى أيديولوجية سياسية مترابطة أو مثل أى مشترك .

النسق السائد ..

ويلاحظ الكاتب غلبة ثلاثة أنساق في الحياة السياسية المصرية، تؤدى إلى ظهور النخبة ، وهذه الانساق هى العائلة والدفعة الدراسية والشلة ، وهى أنساق تقوم على الأشخاص وليست على المبادئ ، مما عرقل تحقيق الكثير من أهداف الثورة .

ويبدأ بالعائلة التى يعتبرها أبرز تنظيم سياسى غير رسمى ، وإن لم تعد لها ذات الأهمية التى كانت لها قبل عام ١٩٥٢ ، عندما كان الانضمام إلى النخبة يقوم على علاقات القرابة والمصاهرة ، وحينما كان ملاك الأرض يحتكرون شبكة واسعة تقوم على ما فى حوزتهم من ثروة ، وعندما كانت حتى الشلل والأحزاب السياسية أداة لتحقيق المصالح العائلية ، وبقيت بعد ثورة يوليو ساحة لدور العائلة باعتبارها وحدة التنظيم السياسى غير المعلنة ، فتنظيمات إبراز النخبة الجديدة لم توفر بديلا للعلاقات العائلية ، مع ضعف التنظيمات الشعبية والسياسية .

وصحيح أنها لم تعد تستند إلى الثروة المادية وحدها كما كان فى الماضى عندما كان الانضمام إلى النخبة مضمونا بالنسبة إلى أبناء كبار ملاك الأرض . ولكن بقيت العائلة حلقة

اتصال بين شبكات شخصية متعددة قادرة على إفساح الفرص أمام ابنائها ..

الشلة رابطة الصداقة التى تضم مجموعة .. سواء أعضاء دفعة دراسية واحدة ، أو علاقات الأقرباء أو الناتجة عن نشاط داخل تجمعات فى نطاق المؤسسات والمنظمات الرسمية ، وقد ساهم في تقوية «الشللية» ضعف أثر العائلة واتساع الصفوة ، فالشلة لا تستند إلى أى لقاء فكرى . ويحركها الطموح والمكاسب المادية . وهي التنظيم المتاح لمن يشغلون مراكز متساوية أو متقاربة . ولكنها من الصغر والضعف بحيث لا تشكل مصدرا للتماسك القوى فى نطاق النخبة .

دفعة التخرج : تزداد أهمية الدفعة عند غياب حزب سياسى فعال ، وزاد من أهمية التضامن بين الدفعة الدراسية الواحدة ، عدم وجود المساندة من الذين فى المناصب العليا . ولم يبق سوى الانتماء إلى الدفعة لتبادل المساعدة . على أن الدفعة لا توفر لأعضائها علاقات شخصية متينة . فهى لا تمثل وحدة متماسكة . ولا يتوقع الكثير من التضحيات من جانب أعضائها ، ويبقى الدور السياسى الذى تقوم به . وهو توفير إطار لقيام علاقات شخصية

أوثق . ومنذ عام ١٩٥٢ ظهرت أهمية الدفعة فى أعلى مواقع النخبة ، فالضباط الذين قضوا على الحكم الملكى كانوا خريجى الدفعات الأولى التى يسمح لها بدخول الكلية الحربية بعد عام ١٩٣٦ . واستمرت صداقات وعداوات دفعات الثلاثينات بعد إتساع نطاق النخبة حين ضمت إليها المدنيين .

ويبقى بعد ذلك التشكيلات الرسمية التى تشبه طوائف الحرف فى العصور الوسطى . وهى التى تسعى لكى يكون قادتها قريبين من مراكز السلطة . وعندئذ تغلب العلاقات الشخصية على الولاءات التنظيمية . ويجد الداخل فى إطار هذه التشكيلات مجالا للتقدم والترقى .

كما أن النقابات المهنية والطرق الصوفية والأندية الرياضية . توفر أرضا محايدة تمكن أفرادها من مد علاقاتهم خارج نطاق مجالاتهم إلى آفاق أوسع ، والغريب أنه يضع النقابات المهنية وهى الهياكل التنظيمية المهمة على مستوى الاندية الرياضية .! فالفروق بينها واضحة سواء فى ظهور النخبة السياسية ، أو الدور السياسى الذى تلعبه النقابات .

ويخلص الكاتب إلى أن التبعية لذوى النفوذ تساهم فى الاستقرار السياسى ، إلا أنها توفر قاعدة تنظيمية تمكن النخبة من فرض وحدة الهدف وتحقيق مثلها الأعلى ، فالشخص الواحد يستحيل أن يقيم علاقات شخصية وثيقة مع ما يزيد عن ثلاثين فردا من أتباعه . وتؤدى زيادة هذا العدد إلى ظهور ، الوسطاء ، فى الحياة السياسية .

الشوام فى مصر

«الهجرة اللبنانية إلى مصر .. هجرة الشوام» مؤلفه مسعود ضاهر - صدر فى بيروت ، وهو كتاب ينقص المكتبة العربية ويعالج علاقات الشعوب العربية بعضها مع بعض ، وسجل الكتاب كمية كبيرة من المعلومات المهمة ، والتى ربما لو لم يسجلها هذا الكتاب لاندثرت وضاعت مع الأيام .

ويتناول الكتاب الفترة الزمنية الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين .

حدد الكتاب دوافع الهجرة من لبنان ، وأرجعها إلى أنه جرف على البحر وامتداده بحرى أكثر منه داخلى صحراوى ، لذا فهو بلاد طاردة ، تدفع أهلها إلى الانطلاق إلى آفاق واسعة ، ويتميز أهلها بالنشاط والذكاء ، ويعتمدون على الخدمات والنشاط المالى ، وعندما تشح الموارد يبحث أهله عن أرزاقهم فى الدنيا الواسعة ، ولعل الكثير من المصاعب التى تواجه لبنان المعاصر ترجع إلى أنه البلد القادر على منافسة إسرائيل فى الخدمات وأعمال الوساطة والنشاطات المصرفية .

هذا عن مصدر الهجرة أما عن مصر التى تستقبلها فكانت فى نهاية القرن التاسع عشر أغنى البلاد العربية وأكثرها تقدما ، وتتمتع بدرجة كبيرة من الحرية ، وتمثل نقطة جذب لكل من حولها من طالبى الرزق وطالبى الحرية .

بذل الكاتب مجهودا كبيرا حتى يعثر على مادة بحثه ، وبعضها توافر من مصادر شفهية ، والبعض الآخر من سجلات الكنائس التى يسجل فيها الزواج والتعميد والوفيات ، كما حصل على بعض المعلومات من مركز الدراسات الشرقية فى دير الفرنسيسكان ، وسجلات مطرانية الأرمن الكاثوليك فى القاهرة والأسكندرية ، وسجلات البطركخانة المارونية فى القاهرة .

ويلفت الكاتب النظر إلى أن كل من هاجر إلى مصر من سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن كان يعتبر من الشوام ، فقد كانت كل هذه البلاد حتى الحرب العالمية الأولى تتبع الدولة العثمانية ، ولا توجد أية قيود على تنقل رعاياها ودخولهم إلى مصر ، وبعد انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى قامت هذه الأقطار فى ظل الانتداب البريطانى والفرنسى ، وبدأت القيود

تفـرض على انتـقـال السكان ، وبدأت الهـجـرة إلى دول أمـريكا اللاتينية والدول الافريقية ودول الخليج العربى .

ثم بدأت عمليات الفصل والتمايز بين السوريين واللبنانيين عام ١٩٤٣ بعد استقلال كل من سوريا ولبنان .

وانقسم الشـوام عند تحـديد الهـوية وصـدور قـانون الجنسـيـة حـسب مـعـاهدة لوزان سنة ١٩٢٤ ، والتى أعطت رعـايا الدولة العثمانية الحق فى اختيار الجنسية التى يرغبون في الجنسيـة ، واخـتـار البعض جنسيـة البلد الذى قدم منه ، واخـتـار الكثيـرون الجنسية المصرية .

مصر الحديثة

وللمـوجة الأولى من الهجرة إلى مصر ثلاث أطراف : مـحـمـد على باشا ، والأمير بشير الشهابى ، ومدينة دمياط التى استقبلت هذه الموجة .

ويمسك الكاتب ببداية الخيط عندما قامت صداقة وطيدة بين محمد على باشا والأمير بشير الشـهابى ، وأدت هذه العلاقة إلى فتح أبواب مصر أمام المهاجرين من الشوام ، وقدم لهم المجتمع المصرى فرصة الاندماج وجمع الثروات الطائلة وممارسة التجارة ومختلف أنواع الأعمال .

وفى ذلك العهد طلب محمد على باشا من الأمير بشير أن يرسل من يتولى غرس أشجار التوت فى التربة المصرية لتربية دودة القز .

«وأوفد إليه جرجس الزند وابن عمه شاهين مع ثلاثين من العيال المارونية » ومثل عصر محمد على بداية نفوذ واسع للشوام امتد أكثر من مائة عام ، وتحدد دور الشوام كصلة الوصل بين الأجانب والأهالى لإجادتهم اللغات الأجنبية ، كما كانوا يتمتعون بحظوة لدى «الباشا» الذى أخذ يغدق عليهم بسخاء ، ووصل أحد الشوام المسيحيين لعضوية المجلس الخاص للتجارة الذى أقامه الوالى ، وأعطاهم الحق فى الانضمام إلى البعثات التى أوفدها إلى الخارج ، فضمت البعثة الأولى عام ١٨١٣ أحد اللبنانيين هو «نقولا مسابكى » الذى أرسل إلى روما وميلانو ليتعلم فن الطباعة وسبك الحروف وصنع قوالبها ، كما تخرج فى مدرسة الطب فى قصر العينى عدد كبير من الشوام ، زاول بعضهم مهنة الطب فى مصر ، وبعضهم الآخر فى بلادهم .

واحتضن المجتمع المصرى - فى سماحة - المهاجرين الشوام بصرف النظر عن طائفتهم .

المهاجرة والمتاجرة

ويورد مسعود ضاهر من كتاب «الرهبانية الجلية المارونية فى وادى النيل» القول : «ورث اللبنانيون عن أجدادهم الفينيقيين حب المهاجرة والمتاجرة .. وكانت مدينة دمياط نقطة الاتصال بين مصر ولبنان».

ودمياط كانت أهم الثغور المصرية ، ونقطة لقاء وحلقة اتصال بين المنتجات المصرية والمنتجات الأوروبية ، وأهم المحطات التجارية المصرية على ساحل البحر الأبيض . ويصفها ريتشارد بوكوك عام ١٧٧٣ قائلا : «معظم التجارة تمر من دمياط ، فمنها يتم تصدير الأرز والبن إلى جميع جهات الدولة العثمانية .. الانكشارية يحتكرون الجمارك بها ويؤجرونها لليهود ..» .

ومازالت مدينة دمياط تضم بين عائلاتها عددا من العائلات تعود أصولها إلى ربوع الشام ، حتى بعد أن انتقل دور دمياط التجارى بعد فتح قناة السويس إلى بور سعيد .

أما المحطة التالية فى استقبال المهاجرين الشوام فهى مدينة الاسكندرية «فتعود الهجرة إليها إلى عام ١٧٤٩ ، ووجدت عائلات مارونية فى طنطا عام ١٨٥٠ وفى مدينة المنصورة يرجع وجود الموارنة إلى أوائل القرن التاسع عشر» .

طلب الحرية ..

ويجب التمييز بين الهجرة طلبا للحرية أو الهجرة طلبا للرزق ، فقد انعكس ذلك على نشاط المهاجرين وممارساتهم ، كما يجب ملاحظة أن الهجرة شملت كل الطوائف ، ولكن الطوائف غير المسلمة حرصت على تجمعاتها الخاصة ، وتبلور المسيحيون الشوام كمجموعة متميزة فى مصر ، ويقتصر التزاوج بين الشوام أنفسهم وكثيرا ما يقتصر على ذات الطائفة وأحيانا داخل العائلة ومن ذات المنطقة ، مع عدم الانفتاح على المصريين من أقباط ومسلمين ، وربما كان ذلك سببا فى أن العديد من هذه الأسر أخذت فى التناقص !

أما المهاجرون المسلمون فسرعان ما اندمجوا فى المجتمع المصرى ، فمثلا تبينت أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى وشقيقه أمين الرافعى والأديب مصطفى صادق الرافعى ، جاءت عائلاتهم من طرابلس ، ولا يذكر ذلك عبد الرحمن الرافعى فى سيرته الذاتية ، ويكتفى بالقول : «ولدت بمنزل جدى لأمى المرحوم الشيخ محمود رضوان ، بعطفة أبو داود رقم ٢ شارع درب الحصر قسم الخليفة» ، ويضيف : «ووالدتى مصرية صميمة ..

ووالدى الشيخ عبد اللطيف الرافعى ويرجع أصله البعيد إلى الحجاز وهو من علماء الأزهر» ، وأيضا الراحل د. محمد فؤاد شكرى أستاذ التاريخ الحديث من مواليد حلب ، والزعيم السورى د. عبد الرحمن شهبندر ، والسيد رشيد رضا صاحب المنار ، والأمير شكيب أرسلان وغيرهم .

وعثر الكاتب فى سجلات الأزهر الشريف ، وفى رواق الشوام على سجل الشوام القادمين للدراسة ، فقد جاء عبد القادر الرافعى وابنه مصطفى والشيخ محمد مصطفى الرافعى وأخوه الشيح عبدالقادر ، ويضم أيضا الشيخ أمين الحسينى ، الزعيم الفلسطينى والشيخ عبد الحميد السائح ، والشيخ مصطفى فاضل العودا ، والشيخ عبد الله غوشة ، والشيخ مصطفى السباعى ، وغيرهم .

ووفرت مصر الكثير من التسهيلات والضمانات للمهاجرين إليها ، وسمح للشوام بتملك الأرض وإقامة المصانع والمشروعات التجارية والمالية ، وتحولت بعد ذلك هذه التسهيلات إلى عقبة كأداء أمام حركة المجتمع المصرى وسعيه إلى التحرر من الامتيازات الأجنبية .

ولعب الشوام دورا مزدوجاً ، فالأجانب فى حاجة إليهم كصلة وصل مع المجتمع العربى فى مصر ، وهناك دور موكول إليهم فى المشروعات التى وضعتها الحكومات المتعاقبة ، وكانت الهجرة الكبرى للشوام عند افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، عندما قدمت لهم فرص واسعة للعمل ، كما توافدوا على مصر بأعداد غفيرة فى الفترة التى سبقت مباشرة الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ ، عقب فشل الثورة العرابية ، وهى العصر الذهبى من حيث العدد والنفوذ والاتساع الجغرافى وبروز الشوام فى كل المجالات وعلى كل المستويات ، وعندما وقفت الصحافة الوطنية ضد الاحتلال بعد فشل الثورة العرابية ، جاء مثلا جماعة المقطم : فارس نمر ويعقوب صروف ليقفوا إلى جانب سلطات الاحتلال !

مثلث الاستثمار !

وهناك صفحة تعبر عن جانب مما يدور فى مجال المال والأعمال ، جاءت فى مذكرات اللورد سيسيل المستشار المالى البريطانى فى عام ١٩١٢ ، وهى صفحة لم يتناولها الكتاب ، عندما يقدم صورة حية وساخرة لدور بعض الشوام فى مصر ، يصف مجموعة من ثلاثة أشخاص أحدهم سمسون اليهودى

القائد، والثاني ديبونج القانوني ، والثالث كساب الذي يحمل رسومات وخرائط المشروع المعدة بعناية فائقة ، والمشروع الذي يقدمونه ليس أكثر من عملية نصب متقنة ، يطلبون امتياز الحصول على مساحة كبيرة من الأراضي لاستصلاحها بثمن رمزي ، وبعد حصولهم على الأرض يمارسون ضغوطهم على الحكومة لتوصيل مياه الري إليها ، وعندها يبيعون الأراضي - التي حصلوا عليها بملاليم - بالملايين !

وكان يأتي الواحد منهم يبحث عن عمل ، وسرعان ما يصبح ثريا يملك القصور والضياع ، ويستدعي الكثير من أفراد عشيرته. يقول بيار ليوتي : «استقطبت مصر عددا كبيرا من الشوام ، والذين قدرت ثرواتهم عام ١٩٠٧ بحوالي ٥٠ مليون جنيه مصري، أي ما يزيد على مليار ونصف مليار فرنك فرنسي ، وهو ما يعادل عشر الثروة القومية المصرية» ، ويسجل الأب قرالي مواهب الجيل التالي من مهاجري الشام عام ١٩٢٧ ، فمن بينهم سامي الشوا ، والرسام جورج صباغ ، ورائد المسرح مارون نقاش ، والممثل اسكندر فرح ، وبشارة واكيم ، وجورج أبيض ، ونجيب الريحاني ، وعزيز عيد ، وبديعة مصابني ، والروائي أنطون يزبك ، والكاتبة مي زيادة» .

سجلات الكنائس

أما بالنسبة للتركيبة الطائفية للمهاجرين ، فكان الأرثوذكس الطائفة الأكثر عدداً ؛ يليهم الروم الكاثوليك الذين بلغ تعدادهم حوالى ٤٠ ألفا ، ويأتى الموارنة فى المرتبة الثالثة ويصل عددهم إلى حوالى ثمانية عشر ألفا ، وسجل المعمورية فى طنطا فى الفترة ما بين ١٩ نوفمبر ١٨٧٦ وحتى ٢٣ أكتوبر ١٩١٢ يضم عائلات الجميل من وادى شاهين ، وإده من بيروت وحبيقة ، وترد عائلة بويز وصفير فى سجلات معمورية الزقازيق ، وكانت أعداد أبناء الطائفة المارونية بالقاهرة كثيرة ، وتزايدت بعد الحرب العالمية الأولى ، وتظهر أسماء العائلات أن معظم اسماء العائلات المارونية عرفت الهجرة إلى مصر ، ولم تتأثر هذه الهجرة بعد قيام لبنان فى ظل الانتداب الفرنسى عام ١٩٢٠ .

وكانت الشركات الخاصة تزدحم بالشوام خاصة شركة قناة السويس والبنك العقارى والبنك العثمانى والكريدى ليونيه والبنك البلجيكى والبنك الكونتوار وشركة السكر وشركة مصر الجديدة وشركة الترام وشركة المياه وشركة الغاز وغيرها .

وكان رؤساء هذه الشركات من الأوروبيين ، ومعظم موظفيها من الشوام الذين يتقنون العربية .

لطف الله ليمتد

وحصل عدد من الشخصيات اللبنانية ألقابا على النمط الأوروبي كالكونت دى صعب والكونت دى شديد ، وألقابا أخرى تركية فحصلوا على لقب باشا وبك ، ومنهم من حمل ألقابا عربية كالأمراء آل لطف الله .

وكثيرا ما أثارت هذه الألقاب حفيظة الرأى العام ، ولقد صادفت – بينما كنت أقلب السياسة الأسبوعية التى أعاد نشر مجموعتها الدكتور جابر عصفور – مقالا ساخرا كتبه عبد العزيز البشرى فى تاريخ ١٩٢٦/١١/٦ تحت عنوان «لطف الله ليمتد» جاء فيه : «هذه النفس التى طبعت منها ثلاث نسخ أفرغت فى ثلاثة أبدان (كان لدى لطف الله ثلاثة أبناء) تتجشم النبل تجشما حتى لتمس ما تعانى من جهد ومشقة فى سبيل الانتساب لثوب الإمارة ، ومازال عليها – مع كل العناء – فضفاضا ، وحين نرى الأمير نتمثل فى الحال «أرتيست» أدبر عنها الزمن ، كان حبيب لطف الله رجلا عصاميا من أهل الجد والعمل ، طوى فى تحصيل

المال عمرا طويلا حتى أحرز ثروة ، ولم يطلب أولاده المجد الذى تعارف عليه الناس ، ولكنهم التمسوه عند الشريف حسين ، وأصبحوا ثلاثة أمراء ، والعجيب أن تزول «جلالة» حسين ويزول ملك حسين ، ومع هذا لا يزال آل لطف الله مصممين على أنهم أيضا برنسات ، ولعلهم شعروا بأن برنسيتهم «مخلخلة» فعمدوا إلى تقويتها بشراء قصر الجزيرة» (الذى أقامه الخديو اسماعيل ثم أصبح فندق ماريوت) .

فلم تعد مصر بعد ثورة ١٩١٩ ، كما كانت بقرة حلوباً للأجانب، وخاصة بعد قيام طلعت حرب بإقامة بنك مصر سنة ١٩٢٠ ، وبعد أن أسس أمين يحيى باشا شركات كبس وتصدير القطن وشركة للتأمين وأخرى للملاحة البحرية بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٣٠ ، وبعد أن ألغت لجنة التجارة والصناعة برئاسة اسماعيل صدقى الامتيازات الأجنبية ، وبلغ عدد الشركات المصرية التى قامت ثلاثمائة شركة عام ١٩٣٨ .

ولا يمكن إنكار ما قدمه الشوام من خدمات جليلة لمصر ، وخاصة فى ميدان الثقافة والفنون والمسرح والصحافة ، وهذا لا يمنع من القول أن بعض عناصر هذه الهجرة لعبت دورا ضد الحركة الوطنية المصرية .

فكما وجد أمثال محب الدين الخطيب ومحمد رشيد رضا وخليل مطران وداود بركات وانطون الجميل ، وجد أيضا المهاجر الذى وضع أمام عينيه هدف الغنى السريع ، مما يجعله أداة طيعة وعونا للسلطة القائمة ، ينفذ رغباتها ويتزلف لها ضمانا لمصالحه وثروته .

وكما عاش البعض أسير مجتمعه الخاص ، انخرط البعض الآخر فى الحياة السياسية ووصل بعضهم إلى عضوية مجلس الشيوخ كأنطون الجميل وخليل ثابت ، وواحد من عائلة آل شماس، ودخل البعض الآخر السجون وهم يعملون فى صفوف أحزاب ثورية ...

وتوجد مادة وفيرة تدور حول الشوام فى مصر ، وانعكاس وجودهم على الرأى العام ، لم يصل إليها المؤلف خلال بحثه ، وتبدأ هذه المادة من الثورة العرابية التى اشترك فى التمهيد لها أديب اسحاق أحد تلامذة جمال الدين الأفغانى ، والذى أصدر جريدة مصر سنة ١٨٧٧ ، وانتقل إلى الاسكندرية واشترك مع سليم نقاش فى إصدار جريدة التجارة سنة ١٨٧٨ ، وعندما عطلت أصدر جريدة «مصر القاهرة» سنة ١٨٨٠ .

ويظهر جليا أثر الشوام فى الاسكندرية من نشأة الصحافة ، فقد أسس سليم الحموى صحيفة كوكب الشرق بالأسكندرية عام ١٨٧٣ ، وأسس سليم وبشارة تقلا جريدة الأهرام عام ١٨٧٥ ، وانتقلت بعد ذلك إلى القاهرة ، وصدرت جريدة الاسكندرية بمعاونة سليم نقاش عام ١٨٧٨ .

ومن جانب آخر ترك كثير من الشوام الاسكندرية بعد الثورة العرابية ، وبعكس موقف جريدة الأهرام التى كانت تصدر فى الاسكندرية كان موقف عدد من الشوام المعادى للثورة العرابية ، والممالىء للإنجليز ، وقد غادر الشوام الاسكندرية على متن باخرة ايطالية ، وبقى سليم وبشارة تقلا يتمتعان بالحماية الفرنسية .

وتعرض هؤلاء الشوام لهجوم عنيف من جانب عبد الله النديم الذى وصفهم بأنهم «مرابون فاحشون ودخلاء وصنائع للفاتح الأجنبى» ... بعد أن وقف بعضهم مع سلطات الاحتلال البريطانى ضد الثورة العرابية .

ومنذ ذلك الوقت أصبح العدو الرئيسى للحركة الوطنية المصرية هو الاحتلال البريطانى ، والعدو الرئيسى فى الشام هو سيطرة

الدولة العثمانية ، وفى الوقت الذى عمل فيه الزعيم مصطفى كامل من أجل الحصول على عون الدولة العثمانية فى مواجهة الاحتلال، كان أغلبية الشوام يتطلعون إلى عون بريطانيا وفرنسا لمساعدتهم ضد الدولة العثمانية ، وهكذا كان موقف الثورة العربية الكبرى الذى تحدد بعدائها للدولة العثمانية ، وتحالفها مع بريطانيا ، واستمرت هذه الحالة حتى الحرب العالمية الأولى عندما خضعت الشام للاحتلال البريطانى والفرنسى . وحمل عليهم مصطفى كامل فى خطبه ووصفهم بأنهم «دخلاء وأعداء» .. أنكروا وطنهم ولم يبدلوا كرم مصر وضيافتها إلا بالعقوق والكراهية» .

وبعد قيام ثورة ١٩١٩ بدأ الهجوم على بعض الصحفيين الشوام ، ومن أبرز هذه المعارك تلك المعركة التى نشبت بين سلامة موسى وكريم ثابت ، فقد كان لكريم ثابت علاقات وثيقة بالقصر الملكى ، واعتبر «الحاكم غير المتوج» ، وقامت ظاهرة فريدة ونادرة ، فأصل عائلته من دير القمر ، وألف كتابا عن محمد على وآخر حول سيرة مصطفى كامل ، وعمل مستشارا خاصا للملك فاروق ، وسجن بعد ثورة يوليو ، ورفض مغادرة مصر بعد الإفراج عنه .

وحتى د . طه حسين ميز فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» بين المصريين وبين «جاليات» المشرق العربى المسيطرة مع الأجانب على حياة مصر الاقتصادية .

وأخيراً ...

لعبت الأجيال المتعاقبة من المهاجرين الشوام أدواراً متنوعة ، تبعا للموقع والنفوذ ، ولم يكن الجميع ملائكة ولم يكونوا أيضا خونة ، ولم يتمتعوا جميعا بالغنى الفاحش ولا النفوذ السياسى والاقتصادى ..

وقام عدد منهم - بنشاطهم وحيويتهم - بدور مهم فى الحياة المصرية ، وخاصة عندما جذبت مصر إليها طلاب الحرية ...

بعد نصف قرن
يقول سكرتير الملك شهادته

كتبت هذه المذكرات منذ أكثر من نصف قرن ، ولم تنشر إلا مؤخرا ، وقد أوصى صاحبها ، وهو د. حسين حسنى السكرتير الخاص للملك ، بنشرها بعد وفاته .

وسنوات مع الملك فاروق يلقى الضوء على بعض جوانب الكثير من الأحداث التاريخية التى عاشها د. حسين داخل أروقة القصر. بعضها سبق نشره وبعضها الآخر لم يسبق نشره .

ولعل نقطة الضعف فى هذا الكتاب هى الفصل المتعسف بين مواقف الملك السياسية وحياته الخاصة ، التى يعيد إليها الكاتب ما لحق بالملك من نكبات ، رغم أن ما قوض عرش محمد على ، وجعل فاروق آخر ملوكه ، هو السياسات التى اتبعها ، وعدم احترامه للدستور ، فلم يترك برلمانا واحدا يكمل مدته ، والعمل الدائم على تفتيت القوى السياسية . يغير الوزارات بخفة متناهية، حتى أكد د. حسين حسنى واقعة أن عبود باشا دفع مليون جنيه لإلياس اندراوس لكى يطيح بحكومة نجيب الهلالى ، وأن الهلالى

هو الذى أبلغه بذلك ، نقلا عن معلومات السفارة الأمريكية !! كما يسعى إلى إضعاف مؤسسات الدولة متصورا أنه يقوى عندما يضعف الأخرون ..

وتضاءلت مسئولية الوزارات وأصبح الملك يملك ويحكم ، وبذلك أستطاع أن يستبد بالمواطنين ، وينهب الثروات ، يحمى الملتفين حوله ، بل وتردد أن معظم محاولات الاغتيال السياسى كان الملك يقف وراءها ، كاغتيال أمين عثمان وعبدالقادر طه ومحاولتين لاغتيال مصطفى النحاس .

فليست الفضائح النسائية ، ولا الخمر ولا الميسر هى السبب ، ولكن لعل الإلمام بالظروف الشخصية للملك والإمساك بها ، يلقى الضوء على بعض الأحداث التاريخية ، ويساعد على فهم أبعادها .

وما جاء على لسان د. حسين حسنى يقدم تفسيرا لتلك النظرة التى كثيرا ما أثارت انتباهى ، نظرة الحزن العميق فى عينى الملك التى لا تخلو منها معظم صوره ، واستمرت فى مراحل حياته المختلفة ، إنها حقا مأساة ملك . وهى مأساة إغريقية فى عنفوانها وقسوتها ، وهى شكسبيرية إذ تتناول المتربع على قمة

السلطة . العلاقة الآثمة بين الأم والمعلم الصديق ، وضرورة كتمان خيانة الزوجة التى تسئ إليه أكثر مما تسئ لنفسها ، ثم تخلى الزعماء من الباشوات عنه فى ٤ فبراير ، يعانى ذلك كله وحده وهو فى فترة الصبا وقبل بلوغه واحدا وعشرين عاما ، وتتأكد أن ما تردد على أنه شائعات كان وقائع مؤكدة ، مما حول الملك إلى شخصية عدمية لا تلوى على شئ ، وجعلته وكأنه يتعجل نهايته وينتظرها .

ربما تعود مأساة الملك إلى تلك الطفولة الباردة والقاسية التى عاشها ، وهو الولد الوحيد وسط أربع شقيقات ، بلا أقران أو أصحاب فى مثل سنه ، وهى الفترة التى قضاها وحيدا مع أم تدلله وأب يقسو عليه ، وفرضت عليه مربيته الانجليزية مسز تايلور عزلة تامة ، وحرمته من اللعب مثل سائر الأطفال ، وما كاد ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا حتى وجد نفسه يجلس على عرش البلاد ، ولم ينل كفايته من التعليم لا فى الدروس الخصوصية ، ولا فى المدرسة البريطانية التى لم يكمل فيها عاما كاملا .

ويكفى أن تعرف أنه تنازل عن العرش بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولم يزد عمره عن أثنين وثلاثين عاما ، فهو مولود فى فبراير سنة ١٩٢٠ ، ووضع على أريكة الحكم ولم يتجاوز السادسة عشرة ، وكان حكمه سلسلة متصلة من الأخفاقات والصدمات الشخصية والعامة .

مأساة ملك

مأساة الملك الأولى كان أطرافها الثلاثة ، الملك والأم والعشيق، فاروق ونازلى وأحمد حسنين .

تكشف المذكرات الدور المدمر الذى لعبه أحمد حسنين فى حياة فاروق ، فقد ولد لأب فى الحادية والخمسين ، وجاء نتيجة علاقة متوترة بين الملك والملكة ، وعكس بيرم التونسى رأى الشارع فى أنشودته التى ختمها بالقول «والوزة قبل الفرح مدبوحة» ودفع ثمن هذا القول النفى إلى فرنسا !

ورغم تعلق الأبن بأمه حدد الملك فؤاد لقاءهما فى أوقات محددة ، ولم يكترث أحد بتعليمه ، وكان أحمد حسنين هو رائده ، وهو الذى نجح فى إبعاد عزيز المصرى الرائد الثانى فى انجلترا ، وسعى إلى التأثير عليه بكل الحيل الممكنة .

ويلقى د. حسين حسنى الضوء على المسكوت عنه من شخصية أحمد حسنين «١٨٨٩ - ١٩٤٦» وهو ارتباطه بالسلطات البريطانية منذ نشأته ، وهو أحد أبناء أحد شيوخ الأزهر ، وأكمل دراسته فى أوكسفورد ، وكان راعيه اللورد منلر - صاحب المشروع المعروف - ووزير المستعمرات ، وهو الذى ألحقه بالجامعة ، وكان كثيرا ما كان يقضى نهاية الأسبوع فى قصره الريفى . كما أنه تطوع فى الجيش البريطانى أثناء الحرب الأولى ، بل وعين عند عودته إلى مصر سكرتيرا خاصا للچنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال ، وكان يرتدى زى الجيش البريطانى ، وفاوض بأسم الانجليز السنوسيين فى الصحراء الغربية ، ثم عين مفتشا فى وزارة الداخلية ، التقى مع حسين حسنى عندما قبض عليه ، كان خلالها سكرتيرا لهوربنلور كبير مفتشى الداخلية والمشرف العام ، ونقل إلى وزارة الخارجية ، وتم تعيينه فى واشنطن وهناك إلتقى بلطيفة هانم كريمة الأميرة شويكار وتزوجها ، وهى ابنة الزوجة الأولى للملك فؤاد .

وأصبح بذلك يتمتع برعاية كل من قصر الدوبارة «الانجليز» وقصر عابدين ، ويتضح أن أحمد حسنين شخصية مغامرة لا يحد طموحه أى كابح من أخلاق أو ضمير .

ويتساءل محمد التابعي الذى كان صديقا لأحمد حسنين .. هل هو بطل ؟ ومصرى وطنى مخلص يقدم مصلحة بلاده على كل ما عداها .. ؟ أم هو خائن وصنيعة الإنجليز .. ؟ ولا بأس من أن يضحى بمصلحة مصر فى سبيل مصلحة ذاتية يحققها له الاستعمار .. ؟ وهو حقا شخصية درامية تبحث عن مؤلف .

تباينت الآراء واختلفت حول الرجل ، وهو مغامر يجوب الصحراء مع روزيتا فوربر الإنجليزية ، ويحصل على ميدالية الجمعية الجغرافية البريطانية وأول مصرى يقود طائرته من أوربا إلى مصر .. وسقطت به الطائرة مرتين إحداهما فى فرنسا والأخرى فى ايطاليا .

يجيب محمد التابعي قائلا .. «لم يكن بطلا ، ولم يكن خائنا لبلاده ، وإنما كان رجلا له مطامع واسعة كثيرا ما أفلح فى اخفائها وراء قناع من الزهد فى المناصب والجهل بالسياسة وأسرارها .

الخطة الأولى نحو طريق طويل تبدأ بمصاهرة الأسرة المالكة ، ثم العمل على الاستيلاء على صاحب القرار فى القصر .. ومن الواضح أن بريطانيا كانت تسعى إلى إفساد الجالس على العرش، وحسنين كان أداتها فى تنفيذ ذلك !

أما الملكة نازلى فقد أصبحت أهم شخصية فى القصر بعد وفاة زوجها ، فقد مات السجان وأنطلقت السجينة التى ما زال لديها بقية من شباب «٤٥ سنة» . ووجدت فى غياب الملك الأب فرصتها للتحرر من القيود والانتقام من الأب القاسى وأيامه ، وفرضت إرادتها فى عدم التقيد بالتقاليد التى كان يتمسك بها الملك فؤاد ، ووجدت من حسنين كل العون على تنفيذ إرادتها كما يسجل حسين حسنى .

وساهم فاروق بلا قصد منه فى تقديم العون لأحمد حسنين ، فعندما عاد من أنجلترا رغب فى أن تتعرف والدته على الرجل الذى أصبح صديقا وليس مجرد رائد ، وفى اليوم التالى لعودة الملك الشاب من انجلترا ، «دعا فاروق إلى قصر القبة أحمد حسنين ، وقدمه للملكة نازلى والتى قالت له : إنها بعد كل ما سمعته من أبنها عن مبلغ عنايته به أثناء وجوده

فى أنجلترا حرصت على أن تلقـاه لتعرب له شخصيا عن مـدى تقديرها لكل ما بذله نحـو فـاروق» .

ويروى د. حـسين حـسنى نزوات الملكة نازلى ، عند أول رحلة يقوم بها الملك إلى أوروبا «غضبت الملكة لعدم اشتراكها مع الملك فى مراسم الاسـتقبـال الرسـمى ، وأصـرت على عدم النزول من القطار إذا لم تتم مراسم الاستقبال الرسمى لها مثل الملك تماما .. وأنها عقب وفـاة زوجها الملك فؤاد ، ذهبت إلى حفلة سـاهرة فى بيت إحـدى صـديقاتـهـا قبل مـضـى أربعين يومـا على وفـاة الملك وبررت ذلك بأنها فى أشـد الحاجة إلى الترفيه بعد طول ما عانته من الحرمان فى حياة الملك» .

غرام وانتقام

ويصـف مـا جـرى خـلال الرحـلة التى قـام بهـا فـاروق مع أسـرته وحـاشـيتـه قبـل توليـه الملك بقـوله : «يفـاجـأ أحـد رجـال الحاشيـة بحسـنين باشـا جالسـا على إحـدى الآرائك الخشبية على ظهر السـفينة وإلى جانبـه الملكة فى حـالة استرخاء لا تكون إلا بين من رفعـت بينهـم الكلفـة .. «وأخذنا نفكر فيمـا قد يحدثه ذلك مـن الأثر فى نفـس الملك الشـاب المسكين إذا عرف ما يجرى

بين أقرب مخلوقين كان يعتز بهما وينظر إليهما كالمثل الأعلى للحب والوفاء والاخلاص» .

وتساءل د. حسين حسني .. «كيف لا ينتبه الرجل الكبير – أى حسنين – أنه زوج ، وزوج لسيدة لها مكانتها التى أضفت عليه الكثير مما وصل إليه» .

فهل هذه إحدى صور الغرام والانتقام ؟ أى انتقام نازلى من شويكار زوجة الملك السابق ؟!

وظلت نازلى طوال الرحلة لا تقيم وزنا لشئ سوى ما يروقها وظلت تخرج إلى الملاهى الليلية فى صحبة حسنين ، ولا تحفل بالمواعيد المقررة للقيام ببرنامج زيارة المعالم والمصانع .

ويضيف حسين حسنى فى مذكراته .. «كانت الملكة نازلى تساند حسنين باشا وتطالب له بما يرضيه ، وابنها يرى نفسه أمامها عاجزا عن كبح جماحها أو إيجاد وسيلة لاتقاء الفضيحة فيما لو اشتد الصراع بينهما .. وذاع بين رجال القصر أن الملكة نازلى قد تزوجت من حسنين باشا بعقد عرفى ، وكان ذلك هو الحل الوحيد الذى لم ير الملك بدا من التسليم به حتى يضع حدا للصراع النفسى الرهيب الذى كان يعانيه منذ أمد بعيد .

وهناك رواية أخرى يرويها الاستاذ هيكل نقلا عن حسن باشا يوسف ، حول العلاقة الملتبسة بين فاروق وأحمد حسنين ففى أوائل عام ١٩٤١ ، وقعت غارة جوية على القاهرة ، وأراد الملك ٢١ عاما أن يطمئن على أمه ولم يجدها في منزلها وهو قصر والدها عبدالرحيم صبرى فى الدقى وعندما عرفت نازلى محاولات إبنها العثور عليها ذهبت إليه قبل الفجر ، ويروى الملك ما يجرى بعدها ..

دخلت الأم إلى ابنها والدموع فى عينيها ، وركعت تحت قدميه تعترف له أنها أحبت أحمد حسنين ، وأنه أول رجل دخل حياتها وتطلب من أبنها أن يسامحها ، وأقسمت انه لولا فاروق وحرصها عليه لكانت تجرأت على طلب الطلاق ، فقد كان يحبسها فى غرفة نومها اسبوعا كاملا عقابا لها ، وقالت الأم إنها لم تفعل شيئا يغضب الله وإنما تزوجت حسنين على سنة الله ورسوله ، واحتفظت بالزواج سرا حتى تنتهز فرصة مناسبة وتتحدث إليه: وتوسلت إليه ألا يؤذى أحمد حسنين فهو مخلص له ولعرشه ، وقالت الأم لإبنها . إذا عفوت بقيت عمرى كله تحت قدميك ، وإذا أبى فسوف تشعل النار فى نفسها ..

فأى صراع ذلك الذى يعانى منه الابن أمام هذه الفاجعة التى تتضارب فيها المشاعر ، فهاهم من يستمد منهم القوة والمثال سواء الأم أو المعلم والصديق يطعنانه طعنة نجلاء !

وها هى الكاتبة الانجليزية ارتيمس كوبر فى كتابها عن القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية تروى قصة أخرى تقول .. لم يكن سرا أن أقرب مرافقى الملكة نازلى كان حسنين باشا .. وفى إحدى المرات أبلغ الملك أن ثمة رجلا فى جناح الملكة ، فاقتحم الملك المكان وضبط حسنين وهو يقرأ القرآن لوالدته وأشيع عندها انهما تزوجا سرا فى عام ١٩٣٧ ، كما طلق حسنين زوجته بعد أن أثارت ضجة حول علاقة زواجه بالملكة» .

ونعود إلى حسين حسنى الذى يروى تأثير هذه الأحداث على الملك .. وقع اللقاء مع الملك فى بيت عمر فتحى بعيدا عن المتلصصين .

قال الملك بعد فترة صمت طويلة :

لم أعد استطيع الصبر وقد أوشكت على الجنون فماذا أصنع مع الملكة نازلى وحسنين ، هل اقتلهما ... ؟! هل ارسلها إلى مستشفى المجانين ؟!

وابعث به سفيرا إلى اليابان .. لم أعد أطيق ما يجرى .. ؟

وأبدينا له أنا وعمر فتحي ضرورة التمسك بالحكمة والتفكير الهادئ فلعل الملكة تفيق من غفوتها ، أو لعل حسنين يصحو ضميره .

ولست أنسى ما حييت - ومازال الحديث لحسين حسنى - وجه فاروق المسكين فى تلك الليلة وقد احتقن بدماء الغيظ والكبت وهو يروح ويجئ فى أرجاء الغرفة وكأنه وحش ثائر جريح احكمت حوله الأسوار ويتساءل عما أحدثه هذا الانفعال النفسى العنيف من جرح غائر فى نفسه فى باكورة أيامه فى الحكم .

وظل مشهد ثورة الملك يمثل فداحة الفاجعة التى نزلت به فى شخص أعز مخلوقين لديه ، أمه التى كان يخصها بكل الحب بعد طول إبعاده عنها ، واستاذه ومرشده الذى كان يوليه الثقة والتقدير ، ويتساءل :

ألا يحتمل أن هذه الفاجعة قوضت إيمانه بالمثل العليا ، ثم ما حدث بعدها من فقد ايمانه بالزعماء من قادة الشعب ورجال الحكم فى حادث ٤ فبراير ؟

ودارت رحى المعركة فى دهاليز القصر ..

وأصبح الملك يضيق بسماع اسم أحمد حسنين .. ويتألم من مجرد رؤيته في القصر !

وعندما لقي حسنين مصرعه في حادث سيارة علي كوبرى قصر النيل عام ١٩٤٦ .

سارع فاروق وبحث عن العقد أو أى وثيقة حول العلاقة بين أمه وحسنين . .

سفر الملكة الأم !

ويتحدث د. حسين حسني عن هموم الملك العائلية ، ويروى قائلا: «كان القدر يخبئ للملك الشاب صدمة عنيفة أخرى تلقاها من آخر ما كان يتصور وقوعها منها . وهى الناحية التى صدرت منها أول وأقسى ما عصف بشبابه من صدمات وأعنى بها ناحية أمه فبعد وفاة حسنين باشا في حادث ببضعة شهور ، قررت السفر إلى الخارج ومعها كريمتاها فائقة وفتحية القاصرتان المشمولتان بوصايتها وفي صحبتهن التشريفاتي فؤاد صادق ، وفي مرسيليا وجدت شابا هو رياض غالي في الانتظار من موظفي القنصلية المصرية أوفدته ليقدم ما تدعو إليه الحاجة من خدمات .. ووجدت الملكة نازلي في

لباقته ونشاطه ما جعلها تطلب السماح له بمرافقتهن إلى سويسرا ، فأجيبت إلى طلبها . وهناك عادت وأصرت على إبقائه في معيتهن إلى أن ألحقته نهائيا بحاشيتها كسكرتير خاص لها . وامتدت إقامتها في سويسرا ، وانتقلت بعدها إلى أمريكا .. وخلال إقامتها في الخارج كان الملك يحثها بين حين وآخر على العودة فكانت تعتذر ، وشبت العاطفة بين الاميرتين والشابين الملازمين لهما ، فؤاد صادق ورياض غالى ، ووافقت الملكة نازلى على زواجهما ، وغضب الملك أشد الغضب .. وأرسل إلى أمه يحذرها من إتمام المشروع ، وأبرق لها أنه يرجو ويلح ألا ترغمه باصرارها على عدم الاستجابة إلى دعوته بالعودة مع شقيقتيه على أن يتخذ القرار القاسى الذى يفرضه عليه واجبه الملكى بحرمانهن من ألقابهن ، وبعدها أصدر الملك أمرا بحرمان أمه من لقب الملكة وشقيقتيه من لقب الإمارة ، واستطاعت الأميرة فائقة أن تحصل على عفو أخيها وعادت إلى مصر مع زوجها فؤاد صادق ، وبقيت الأم مع كريمتها الصغرى وزوجها فى أمريكا وانتهت حياة الجميع بمأساة أشبه بفاجعات شكسبير ..

ويصل د. حسين حسنى إلى .. «أن من يستعرض حياة فاروق والأزمات والصدمات النفسية التى مر بها فى حياته وما عساها أن تكون أحدثته فى نفسه من تأثير ، والتى وضحت معالمها فيما كان يصدر عنه بعدها من تصرفات شاذة بطريقة تكاد تكون آلية كأنها رد فعل تلقائى ، يجد فيها راحة نفسية تخفف عنه بعض ما يشعر به من التمرد على الأوضاع التى أفقدته وزعزعت نفسه فيما كان يحيط به ، مما كان يدفعه لاتخاذ مواقف متعارضة على سبيل التحدى . شأن الطفل الذى يأبى أن يطيع الأمر الذى لا يوافق هواه .. وأنه على سبيل التحدى وما يملأ نفسه من التمرد على كل من يقف منه موقف المعلم والموجه ، بعد فقدانه الثقة فى معلمه ورائده ، فضلا عن أمه التى كان مفروضا أن توجهه إلى كل ما هو صالح ، وحتما لن يستمع إلى قول أى ناقد أو معارض» .

فاروق وفريدة

ونأتى إلى أحد الفواجع التى لا تقل عن سابقتها فى حياة الملك الشاب ، وهى زواجه وطلاقه السريع من فريدة التى كان

أسمها قبل الزواج صافيناز ، بعد أن قوبل هذا الزواج بفرحة وأمل كبير وتأييد كبير للملك الشاب ، بدأت القصة فى أول رحلة يقوم بها الملك إلى الدول الأوروبية ، وخلال هذه الرحلة قامت علاقة حب بين الملك و«فاقيت» كما كان يطلق على فريدة ، وعلى متن الباخرة «قايسروى أوف إنديا» فى صيف عام ١٩٣٧ ، قامت علاقة آثمة أخرى بين نازلى وحسنين ، بل ولعب كل من كان على ظهر الباخرة دورا سياسيا فى حياة البلاد .

ويروى سكرتير الملك الخاص فى كتابه «سنوات مع الملك فاروق» ، بعض ذكريات هذه الرحلة .. «كان الملك يشكو له من أن نازلى وحسنين يسعيان إلى عدم الارتباط بينهما ، وربما كان ذلك حتى لا تفقد الملكة مكانتها ، وقبل انتهاء الرحلة أخذت نازلى تضيق بها وتبدى عدم الرضا عنها ، ولاحظ الملك تغير سلوك حسنين نحوها ، وأخذت نازلى تلاحق صافيناز بألوان من الإساءة والاستفزاز .

وفى النهاية نجح الفتى والفتاة فى عقد قرانهما فى ٢٠ يناير ١٩٣٨ ، قبل شهر من عيد ميلاده الثامن عشر ، ولم تبلغ عروسه الستة عشر ربيعا .

ولكن سرعان ما وقعت الفاجعة ، وتم الطلاق بينهما ، مما كان له وقع مؤلم وقوبل هذا النبأ بالأسف العميق فى كافة الأوساط وصب الجميع جام غضبهم على الشاب ، وبقيت هذه القصة أحد الألغاز في حياة الملك ..

وتكشف بعد ذلك حجم الألم الذى أصاب الملك ، ولم يتمكن من الأفصاح عن المسكوت عنه فى العلاقة بينهما ، وأدين وهو المجنى عليه إذا أخذنا بما جاء فى بعض الكتابات بعد فترة طويلة من الكتمان .

تورد الكاتبة الإنجليزية أرتيمس كوبر فى كتابها القصة التالية : قامت الملكة فريدة بزيارة الفنان الرسام سيمون ألويز فى صيف سنة ١٩٤٣ ، وكان الرسام رجلا وسيما فى أوائل الأربعينات من عمره ، وجاء إلى مصر فى نوفمبر ١٩٤١ ، وكان يعمل فى العلاقات العامة بالقيادة البريطانية ، وأصبح عمله الرئيسى هو رسم البورتريه ، للبارزين فى حياة المجتمع القاهرى ، وكان لويز يتصور نفسه فاتنا للنساء ؛ وأخذ يردد بفخر أنه لا يمكن أن يرسم بورتريه لأى امرأة إلا إذا نام معها ! وتمنى قبل أن يغادر مصر أن يرسم الملك والملكة ، وقدمت هذه الرغبة

ناهد سرى زوجة حسين باشا سرى وخالة الملكة فريدة ووافق الملك على أن يتقاضى الرسام عن كل منهما ألف جنيه يدفع نصفها مقدما ، وبدأ يرسم الملكة فى قصر عابدين ، وسط ثرثرة الوصيفات ومقاطعات لا تنتهى ، وطلب الرسام من الملكة أن تأتى إلى مرسمه الخاص ، وأصر ألويز على أنه ليس بوسعه العمل فى هذا الجو ، ووافقت الملكة ، وكانت فى العشرين من عمرها ولها ابنتان هما فريال وفوزية ، وكانت تمر بظروف نفسية قاسية عندما شعرت بإهانة جارحة من علاقة توطدت بين الملك والأميرة فاطمة ابنة الأمير عمر طوسون ، وهى احدى سيدات العائلة المالكة الفائقة الجمال ، ولهذا السبب لم تكن تبادله الحديث ، ولم تستأذنه لكى يسمح لها بإكمال اللوحة فى مرسم الفنان .

وأبقت جلساتها فى بيت ألويز سرا ، ترافقها وصيفتها عقيلة ، ولم يغب ذلك عن القصر طويلا ، وعلم فاروق بزيارات زوجته إلى ألويز ، وكان يشاركه مسكنه اثنان من الضباط ، أصابهما الذعر عند دخوله المنزل فجأة ، وفرت الملكة ووصيفتها من الباب الخلفى .

وعندما وقعت أزمة دبلوماسية بين القصر والسفارة البريطانية، وطالب الملك أن يغادر ألويز البلاد ، وكان السفير البريطاني مايلز لامبسون ، اللورد كيلرن فيما بعد حريصا على تفادى الفضيحة وبالفعل أوفد سيمون ألويز إلى جنوب إفريقيا ومنع من العودة إلى مصر ، فكتب الرسام رسالة إلى الملكة ينتقد خلالها بشدة السفير البريطاني ، وحصل عليها السفير من خلال الرقابة ، ثم نقل بعدها من جنوب أفريقيا إلى الهند ، حتى يقطع الصلة تماما بينهما !!! .

وجاءت اشارات متفرقة حول هذه الواقعة في الوثائق البريطانية كما أشار إلى هذه الواقعة السفير في أوراقه الخاصة.

وما يثير الدهشة حقا أنه بعد شهر من مغادرة الرسام البلاد ، طلب الملك بعودة ألويز حتى يكمل اللوحتين اللتين اتفق عليهما واللتين حصل على نصف ثمنهما .

فهل كان الملك يريد الانتقام من غريمه ؟!

كادت الملكة تقتل !

والرواية هذه المرة التى تتناول مسلك فريدة جاءت على لسان سيد جاد أحد رجال الحرس الحديدى فى كتابه كيف كان الملك

يتخلص من خصومه ؟ فخلال إحدى مهماته رأى هو وخاله فوزى سيدة عظيمة - لم يذكر اسمها - فى طريقها إلى إحدى الفيلات فى شارع أحمد حشمت بالزمالك ، وصاحب الفيلا هو وحيد يسرى ابن الاميرة شويكار واكتشفنا - على لسان سيد جاد - أن هذه السيدة هى الملكة فريدة وقررت اقتحام الفيلا وقتل من فيها لكن باقى الضباط منعونى من ذلك وغضب الملك عندما علم بالقصة متصورا أننى الذى رفضت قتلها حتى قابلته وشرحت له الحقيقة فعفا عنى ! .

ومع التسليم بأنه من الصعب اعتبار سيد جاد مصدرا يعتد به إلا أنه يلاحظ أن الأميرة شويكار زوجة الملك فؤاد السابق لعبت دورا فى تدمير عائلة فؤاد !

ويلمح مرتضى المراغى - آخر وزير داخلية فى عهد الملك - إلى هذه القصة قائلا كانت حاشية السوء تشير من طرف خفى وعبارات مبهمة إلى أن الزوجة بدورها أخذت لا تبالى ، وأخذوا يلصقون بها الاتهامات ، مما أثر فى الملك فاروق فمضى يتمادى فى علاقاته النسائية لكى يكيد الملكة ويغيظها .. وذلك فى مذكراته غرائب فى عهد فاروق ..

وإذا صحت هذه الاتهامات أو لم تصح فأى شقاء عاشه الملك ، خاصة بعد إدانته من الرأى العام .

لامبسون على الأكتاف !

ونأتى إلى ذروة المأساة وهو حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، عندما اقتحمت الدبابات البريطانية قصر عابدين ، ودخل عدد منها فناء القصر من دون أى مقاومة ، وقدم انذار إلى الملك يطالبه بالتخلى عن العرش ، إذا لم يكلف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة وحملت الجماهير مايلز لامبسون على الاكتاف عندما ذهب يهنئ رئيس الوزراء مصطفى النحاس ، وهتفوا بحياته فكان تكريم السفير على هذا النحو لطمة أقسى وأشد لكل من يقدر الكرامة والوطنية ..

وتركت تلك الحادثة أثرا بالغا على الملك ، وخلفت فى قلبه جرحا عميقا وتركت كراهية نحو الانجليز ، ونحو الجماهير التى لم تهب لنجدته ، وحزب الوفد ومصطفى النحاس ، هذا ما قاله سكرتيره كما يعيد مرتضى المراغى إلى هذا الحادث إنشاء الحرس الحديدى .

ووجد رجالات مصر متخاذلين عندما دعي عدد من الزعماء السياسيين ومنهم زعماء الاحزاب إلى اجتماع فى قصر عابدين للمشورة وابداء الرأى ، خلال أحداث ٤ فبراير ، وانتهوا بضرورة الاستجابة لطلبات الإنجليز ، وثبت أن وزارة حسين سرى تطوعت وتقدمت إلى لامبسون بطلب عزل الملك .

ويرصد د. حسين حسني أثر هذا الحادث على الملك ويأسه من رجال الأحزاب ، ويروى ما قاله الملك .. لقد جربت كل الاحزاب ولم يحقق واحد منها ما كنت أرجوه ولا يستطيعون التغلب على الروح الحزبية التى تتسلط عليهم جميعا ، فتجعلهم يعجزون عن الارتفاع إلى مستوي تغليب مصلحة الوطن على مصلحة أحزابهم بل على مصلحتهم الذاتية ، فلا يوجد زعيم واحد مخلص ، وكل منهم يطعن فى زميله ، بل إن رئيسهم قد يطعن فى معاونيه ، حتى أصبحت فى حيرة من يمكن الوثوق به ومن يجب الحذر منه ؟!

لقد بلغ منى اليأس حد التفكير فى اعتزال العرش ..

ويروى د. حسين حسنى فى كتابه بعض الأسرار التى تروى لأول مرة ، منها التحذير الذى ابلغته للقصر القيادة البريطانية ، من حركة بين ضباط الجيش المصرى ، ومنهم بعض ذوى الميول

الشـيوعية الذين يتلقـون تعليـماتهم من روسيا !! وأنه تم رصد لقاء بعض الضباط ، واحدهم معروف بميوله الشيوعية وأطلق عليـه الماجور الأحمر وأخذ يتلقى التعليمات من السفن الروسـية المارة فى قناة السويس ! ، وعرضت القيادة البريطانية تقـديم أى مسـاعدة للكشـف عن هذه الحركة والقضاء عليها ! .

وبقى الكثير من الاسئلة لم يجب عليها سكرتير الملك مثل :

– انشاء الحرس الحديدى ، وحوادث الاغتيال التى اتهم بها .

– مغزى رفض النقراشى رئيس الوزراء اشتراك الجيش فى حرب فلسطين ، ثم عرضه اشتراك الجيش على البرلمان .. ؟

– أثر هزيمة ١٩٤٨ على الملك .. ؟

لقـد رضى السكرتيـر الخـاص للملك أن يبـقى فى ظل وفقـد تأثيره على الملك ، وعلى سير الأمور ، فـأخذ يتحسـر أحيانا ويتألم أحيانا أخرى ، ولم يقم بأى عمل لانقـاذ بلاده ولا حتى لإنقاذ مليكه .

الباب الثانى

خفايا الشرق

القهوة والمقهى فى الشرق

«فنجان القهوة» الذى يقدم تعبيراً عن الود والكرم .. أصبح قصة طويلة شيقة ، تبدأ من القرن السادس عشر ، عندما عرف الشرق شراب القهوة لأول مرة ، وما أحدثه دخول تلك العادة الجديدة من آثار على نسيج الحياة الاجتماعية ، ثم كيف خرجت القهوة من القاهرة إلى كل أنحاء العالم .. ؟!

وكيف قام المقهى كمؤسسة اجتماعية عتيدة عكست العادات والتقاليد .. ؟ ولماذا جذب أنظار الرحالة الذين تناولوا الشرق ، وحرصوا على تقديم عالمه الرحيب بكل ملامحه الانسانية .. هذا ما تقدمه أحدث دراسة أمريكية لمؤلفها زالف هاتوكس .. بعنوان «القهوة والمقهى فى الشرق» ومن مطبوعات جامعة واشنطن .

والكتاب الذى نقدمه رواية تاريخية حضارية ، اعتمدت على المخطوطات العربية وكتب الرحالة ، وهى مصادر تكاد لا تتوفر للباحث العربى ..

واهتمام الغرب بالشرق اهتمام قديم ، أحيانا بسبب جاذبية الشرق وولع بقيمه وعاداته ، وفى أغلب الأحيان للوصول إلى أحسن الوسائل للتعامل معه .

قفز إلى ذهنى بعد قراءة الكتاب .. تلك المقارنة التى ذكرها رفاعة رافع الطهطاوى ، فى كتابه «تخليص الابريز فى تلخيص باريس» بين مقاهى فرنسا ومقاهى مصر .

«القهاوى عندهم ليست مجتمعا للحرافيش بل هى مجتمع لأرباب الحشمة .. فلا يدخلها إلا أهل الثروة ، أما الفقراء فيدخلون قهاوى فقيرة أو الخمارات أو المحاشش !» .

وربما لم يكن يعلم أن المقهى قد انتقل من الشرق إلى الغرب ، ومن مصر إلى الحجاز وتركيا ، ونقله الأرمن واليونانيون إلى بقية الدول الأوروبية ولكنه تدهور عندنا وتطور عندهم .. !

تبدأ القصة بمحاولة الإجابة عن سؤال : متى وكيف ظهرت القهوة .. ؟ وإلى أى عمق تاريخى «يمتد المقهى الشرقى ..؟

وقد مضى وقت طويل قبل أن تستقر القهوة كشراب معترف به. فلم يقبلها المجتمع إلا بعد صراع حاد ، ونظر لها البعض باعتبارها تهديدا للقيم العامة ، وأدخل الصوفية شراب القهوة ،

فى القرن الخامس عشر ، فهى ليست مسكرة أو مغيبة ، وتساعد على السهر وتمكن شاربها من استمرار الذكر وتلاوة الأوراد ..

ويورد هاتوكس ما ذكره شهاب الدين بن عبد الغفار وجاء فى كتاب «عمدة الصفوة فى حل القهوة» للفقيه اليمنى عبد القادر بن محمد الأنصارى الحنبلى فى القرن العاشر الهجرى .. أن الأخبار قد وردت علينا بمصر أوائل هذا القرن ، بأنه قد شاع فى اليمن شراب تقال له القهوة تستعمله شيوخ الصوفية للاستعانة به على السهر فى الأذكار والأوراد» وكان ظهورها وانتشارها على يد الشيخ جمال الدين بن أبى عبد الله محمد بن سعيد الذبحانى وسبب إظهاره لها ، أنه كان قد عرض له أمرا أقتضى الخروج من عدن إلى الحبشة ، فأقام بها مدة ، فوجد أهلها يستعملون شرابا اسمه القهوة ، وعندما احتساها اكتشف ما تحدثه من يقظة ونشاط ، وقال فخر الدين بن أبى يزيد المكى أنه يقال أن أول من أنشأها وأشاعها بأرض اليمن الشيخ على بن عمر الشاذلى .. ولذا سميت القهوة فى بعض المناطق «الشاذلية» .

وإذا كان أحد أبناء اليمن «هو أول من قدم القهوة» إلا أنهم لا يشربون القهوة ، وإنما يكتفون بغلى «قشر البن» فذكر

فخر الدين بن أبي يزيد المكى .. أن قشر البن انتقل إلى مكة في القرن الخامس عشر ، ولكن القهوة عرفت وانتشرت بها بعد ما يزيد على القرن ..

أما القهوة كما نعرفها الآن ، فقد نقل عن شهاب الدين بن عبدالغفار متى وكيف دخلت إلى القاهرة ، والذى يحددها بالسنوات العشرين الأولى من القرن العاشر الهجرى - الخامس عشر الميلادى فى عام ٩١٧ هـ ١٥١١ م ، حينما كانت تشرب فى رواق اليمن بالأزهر الشريف ، فى ليلتى الذكر - الاثنين والخميس - ويضعونها فى إناء كبير من الفخار الأحمر ، وتبدأ طقوسها عندما يتولى الشيخ تقديمها لاتباعه الأيمن فالأيمن ..» .

حانات بلا خمر

وانتقلت من الأزهر إلى بيوت المتصوفة ، ومن أوساط المتصوفة إلى غيرهم من الأهالى ، وبدأ بيعها فى محال محيطة بالجامع الأزهر ، وسرعان ما أدى انتشار هذه العادة إلى اقامة المقاهى ، والتى كانت فى البداية حانات بلا خمر ..!

وبعد شيوعها فى القاهرة انتقلت إلى الأراضى الحجازية مع قوافل الحج ، وانتقلت مع التجار إلى الشام ، ومن الشام انتقلت

إلى تركيا بواسطة اثنين من أبناء الشام هما حاكم وشمس ، اللذان حققا مكاسب طائلة من تجارة البن ، واقتحم المقهى الحياة الاجتماعية التركية ، وفى ظل الدولة العثمانية نقله الأرمن واليونانيون إلى بقية الدول الأوربية .

وتحفل المخطوطات العربية والتركية التى اعتمد عليها هاتوكس بجوانب الصراع الحاد بين القديم والجديد الذى قام على اشلائه المقهى .. فعندما يرتضى أو يقبل مجتمع ما عادة جديدة ، فإنما يتم ذلك بناء على القيم السائدة فى هذا المجتمع .

والمجتمع الطبيعى يختبره ويقيسه بمعاييره ثم يحدد موقفا منه .

وهذا ما حدث عند دخول القهوة إلى الشرق ..

اختلف العلماء حولها ؛ وكان معيارهم الحلال والحرام ، وكان أول من نادى بإباحتها لأسباب دينية هم المتصوفة وحرمها البعض الآخر لما تصوروه من اضرارها واستندوا إلى أنها تحاط عند شربها بطقوس كالتى تحاط بها الخمر ، وقال بعضهم إذا كان الخمر يقضى على شهية الأكل ، فالقهوة تقضى على الرغبة فى النوم ، كما أن القهوة أحد اسماء الخمر كما جاء فى المحيط للفيروزبادى ..

ويقدم الكاتب حجج كلا الطرفين كنموذج للمعارك الضارية والقيم السائدة فى القرن السادس عشر ، وتدور هذه الحجج على فهم كل جانب لأحكام الشريعة الإسلامية ، وتركز الجدل حول ثلاث قضايا .

* أن القهوة بدعة ، وكل بدعة ضلالة (رغم أن البدعة المرفوضة تتعلق بالعبادات ولا تتناول المعاملات) .

* ما يمكن أن يصيب المجتمع من تهديد ، من التجمع داخل المقهى والذى يمكن أن يتحول إلى نشاط سياسى يهدد الأوضاع القائمة .

* ما يقع فى المقهى من أثام مثل لعب الميسر ، وتعاطى المخدرات وقذف المحصنات ، واضاعة الوقت فى لعب الشطرنج والقهوة !

وقيام مجتمع للرجال بعيدا عن الجامع ، وبعيدا عن الأسرة !

وقوع الفتنة

ويستشهد الكتاب مرة أخرى بعمدة الصفوة فى حل القهوة .. حدث عليها الانكار بمكة الشريفة عام (٩١٧ هـ - ١٥١١م) فقام خير بك (العثمانى) بتشجيع من الشيخ شمس الدين الخطيب

باصدار فتوى بابطالها ، وعندما وصلها القاضى محمد بن الوراق (٩٣٢ هـ - ١٥٢٥ م) وسمع المنكرات التى ترتكب فى مقاهى المدينة ، اشار علي السلطات باغلاق المقاهى ، ولكنه لم يقل ببطلان القهوة ذاتها ، ولما توفى ابن الوراق فى مكة رجع الحال لما كان عليه ..

أما ما جرى فى القاهرة ، فكما انتشرت القهوة من الأزهر ،جاء تحريمها من الأزهر ، حيث انقسم شيوخ الأزهر ، وشهدت شوارع القاهرة فتنة كبرى عندما اشتد الخلاف .

وافتى عام ٩٣٩ هـ الشيخ شهاب الدين السنباطى الشافعى بتحريمها ، وفى عام ٩٥٤ هـ فى إحدى ليالى شهر رمضان عندما يحلو السهر فى المقاهى قام صاحب العسس (الشرطة) وألقى القبض على كل من صادفهم من رواد المقاهى ، وجلد كلا منهم سبع عشرة جلدة . وقضوا ليلتهم فى الحبس ثم أفرج عنهم فى اليوم التالى ..

ولم يمض يومان .. وعادت المقاهى تستقبل روادها !

وأكد عام ٩٥٤ هـ الشيخ احمد بن عبد الحق السنباطى ما سبق وذكره والده ، عندما سئل عن القهوة وما يرتكب فى المقهى

من الآثام . وأصدر فتوى جديدة بتحريمها ، وعندما لم يتخذ أى أى إجراء ضد المقاهى ، قام الأهالى بالهجوم على عدد منها وأخذوا يحطمون محتوياتها ويضربون روادها ، ووضعت المسألة من جديد بين أيدى قاض حنفي هو محيى الدين محمد بن الياس ، الذى تقصى الأمر ، بل وعقد مجلسا قدمت خلاله القهوة ، وعندما لم يجد لها أية أثار ضارة عقلية أو جسمية أفتى باباحتها ، وأصبح لدى الأهالى حكمان متضاربان أحدهما شافعي يحرمها ، والآخر حنفى يبيحها ..!

ولا يفوت الكاتب أن يلاحظ الاخفاق المتكرر فى منع القهوة واغلاق المقاهى ، بعد أن رسخت عادة الجلوس على المقهى واحتساء القهوة مع الخلان والأصدقاء .. وفى أحد فصول الصراع ، عاد مرة أخرى خيرى بك عام ٩٥٠ هـ وأصدر مرسوما بمنع القهوة ، ورغم ذلك تعددت المقاهى وشربت القهوة بلا مبالاة فى تلك الفترة جهارا فى الأراضى الحجازية .

وقد صدر كتاب «الرسالة فى أحكام القهوة» استعرض كاتبه المناقشات الفقهية والصحية ، والتى تقوم على أن الأصل هو الأباحة ، وأنه لا تحريم إلاّ بنص ، وأن هناك فارقا جوهريا بين ماهو ضار وما هو محرم ، ويمكن القول أن الضار مكروه !

وصاحبت المعركة الفكرية معركة أخرى علمية تدور حول أثر القهوة الطبى على من يتناولها ، وتكونت لجنة من المتخصصين ، وقدمت وصفا دقيقا لأثر القهوة على الجهاز العصبى لمن يتناولها وأثرها على وظائف الجسم المختلفة ، وقد قارن هاتوكس هذا التقرير بآخر التقارير الطبية عن القهوة ، والذى صدر عن أحد المراكز العلمية الأمريكية ، وأدهشه قلة الفروق بين التقريرين ، اللذين يتفقان فى خطوطهما العريضة رغم صدور تقرير علماء المسلمين فى القرن السادس عشر ، وقبل التطور المذهل فى أدوات البحث والتحليل .

وقد أقرت هذه اللجنة شرب القهوة من الناحية الصحية .

وتناولت المناقشات ايضا الجانب الاجتماعى للقهوة والمقهى ، فالمقهى يجمع صغار القوم وكبارهم والأرزال الذين يروجون الأكاذيب ، ويغتابون الناس ، ويلعبون الشطرنج والطاولة . ووصل البعض إلى أن ارتياد المقاهى يخل بالمروءة ويسقط الشهادة ..!

وذكر مؤيدو القهوة بيان منافعها وذكروا أن شجرة البن فى الجنة غرسها سبعون الفا وتبسمى شجرة «السلوان» لأنها خرجت من آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم ، وذكروا أن مداومة أكل

البن يقوى النظر والفهم ، ويدفع الجدرى والحصباء والسحر ، وفى أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة !!

طقوس المقهى

واستقر المقهي ، واحتل مكانا بارزا فى الحياة الاجتماعية ، وأصبح يقوم فى أهم مكان فى المدينة الشرقية ، وجذب اهتمام أولئك الرحالة الذين تجولوا فى الشرق ، مدركين أهمية المقهى فى الحياة الاجتماعية العربية ، ولم يفوتهم طقوس اعداد القهوة ، وطقوس تقديمها ، فهى تقدم ساخنة وتعطى الحق لشاربها فى الجلوس والسمر ..

وتقوم المقاهى فى كل من سوريا وسط الحدائق تحيطها المناظر الخلابة ، ويصف جون توفنت GEON THEVENOT المقهى الشامى فى كتابه رحلة إلى الليفانت بقوله « .. يقع المقهى فى أجمل البقاع ، ويتفنن صاحبه فى تأثيثه ، ويحيطه بالنافورات ، وكثيرا ما يشرف على نهر بردى ، ويقوم تحت ظلال الاشجار الوارفة ، يستنشق رواده أريج الأزهار والورود .

ويصف مقاهى بغداد الرحالة البرتغالى بدرو تكسييرا PEDRo TEIXEIRA فى مطلع القرن السابع عشر (١٩٧٥ –

١٩٤٠م) .. يطل المقهى البغدادى على نهر دجلة ، ويتكون من مبني متعدد النوافذ والقاعات ، ويعد من أكثر الأماكن بهجة فى بغداد ، تمتد الأرائك خارج المقهى لمن يرغب فى مراقبة الطريق ، ومن يسعى للتمتع بدفء الشمس فى الأيام الباردة أو فى ليالى بغداد الحارة وخلال شهر رمضان ..».

أما الرحالة البريطانى إدوارد لين Lane الذى وصف مقاهى القاهرة فى مطلع القرن التاسع وقبل أن يلحقها التغيير يقول المقهى هو المجتمع الأدبى للعامة وهى بصفة عامة حجرة صغيرة ذات واجهة خشبية .. يقوم على طول الواجهة ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الأجر تفرش بالحصر ، ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثا .. وجمهور المقاهى من الطبقات الدنيا والحرفيين وصغار التجار .. الذين يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية، ويحمل كل منهم شبكه الخاصة وتبغه ، ويقدم القهوجى القهوة بخمس فضة للفناجان الواحد» .

المقهى والمجتمع الشرقى

إذا كان من الممكن تبين معالم المجتمع ، من خلال المناقشات الحامية التى جرت بين المؤيدين للقهوة والمقهى والرافضين لهما ،

فهى تكشف ايضا دور الفرد فى هذا المجتمع وفى العالم من حوله .

فالمقهى أساسا مؤسسة اسلامية ، تختلف كثيرا عن الحانة التى تقدم الخمر ، لذا سيطر العرب والمسلمون على تجارة البن ردحا طويلا من الزمن .

فما هى صورة المجتمع الشرقى من خلال المقهى ..؟

ومن هم رواده ؟ .. ومتى ولماذا يترددون عليه ..!

وكيف يجذبهم صاحب المقهى .. ؟ وما الذى قامت «مؤسسة» المقهى لتحل محله فى الحياة الاجتماعية ؟

أم أنها قامت لتشبع حاجات جديدة ظهرت فى المجتمع ..؟

ولعل المؤسسة التى تأثرت أكثر من غيرها بظهور المقهى ، هى الحمامات العامة التى كانت تقدم لروادها فرصة للتواصل الاجتماعى ، يختلط روادها بأنواع مختلفة من البشر ، ولكن يبقى الفارق بين الحمام والمقهى ، فى أن المقهى يقدم لرواده اشكال التسلية المتعددة ، وهذا ينقضى بانتهاء الاستحمام ، فيمكن أن يتحول الجلوس على المقهى إلى عمل يومى .

وإذا كانت هناك ثمة ملامح مشتركة بين كل من المقهى والحمام والحانة ، إلا أنه يوجد أيضا بينهم فروق جوهرية ، أما المطاعم ، فقد كانت القيمة السائدة تقلل من احترام من يتردد عليها ، وكانت تقضى بضرورة أن يتناول الفرد طعامه فى منزله ومن أعداد أهل بيته .(وهى قيمة مازالت سائدة فى بعض قرى الصعيد) . فكان ظهور المقهى نقلة مهمة فى العلاقات الاجتماعية ، بما قدمه من مكان مقبول لقضاء أوقات الفراغ ولقاء الأصدقاء ، وساعد رواده على السهر ، و بعد أن كانت النشاطات الاجتماعية خارج البيت تنتهى بعد صلاة العشاء .

ويذكر ابراهيم باسيفى .. أنه إذا كنت تنفق عددا من الدينارات من أجل دعوة بعض الأصدقاء إلى البيت ، فلا تنفق سوى بضعة دراهم حين تدعوهم إلى المقهى وهنالك تكون محاطا بالحريم بل بمجتمع يقتصر على الرجال .

تبادل المعلومات

لم ترحب السلطات بتجمع الأهالى فى المقاهى ، لما يحتمل أن يقع من آثار اجتماعية على تبادل الافكار والمعلومات ، وتأثير ذلك على مجموع القيم السائدة ، فى عصر لم تعرف فيه الصحف

والإذاعة والتليفزيون ، ويظل قائما احتمال أن تبدأ التغييرات السياسية من رواد المقهى .

وقد ذكر الرحالة التركى تايتز TIETZ عن مقاهى القاهرة فى القرن السادس عشر .. «إذا تصورت المقهى كتجمع يضم الغوغاء والسوقة ، يصبح الأمر مخيفا حقا ، خاصة إذا علمت أن فى هذه المقاهى يؤكل الأفيون ، وتزدحم المقاهى بالعديد من الجند الذين يسخر منهم روادها !» .

وكثيرا ما ينتهى الحديث إلى السياسات القائمة ، خاصة وقد بدأ أكثر من انقلاب سياسى من المقهى ، أو رسمت خطوطه داخله، مما أدى مرة إلى اغلاق جميع مقاهى اسطنبول أيام السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ م - و ١٦٤٠م) ، بعد أن أصبحت مكانا لتجمع الجنود المتمردين ورجال السياسة الساخطين ، وبقيت المقاهى معلقة طوال الربع الأخير من القرن السادس عشر.

وكان محمد على باشا أزكى من تعامل مع عناصر المعارضة الذى بدأت فى المقاهى ، عندما أدرك امكانية أن يتحول الحديث التى يبدأ همسا إلى انفجار سياسى كبير ، فأطلق العسس والبصاصون على هذه التجمعات ، حتى يواجه تلك المعارضة قبل أن تتصاعد..

رواد المقاهى

أما عن رواد المقاهى فتخبرنا المصادر المتاحة بمعلومات متناقضة فمثلا يذكر لين أن الذين كانوا يترددون على مقاهى القاهرة فى القرن التاسع عشر من سفلة القوم والغوغاء ، ويخبرنا الكسندر راسل أن الحرافيش والزعر هم المترددون على مقاهى حلب فى القرن السابع عشر .. ويصف خطيب صليبى المتمردين على المقاهى بأنهم بعيدون عن التهذيب ، ولكنه يقول : إن من بينهم الأمير والغفير والجميع يستمتعون بالطعن فى الآخرين ، وفى الوقت نفسه يذكر ديفور Dufoer «أن الفئات العليا من البكوات والنبلاء والضباط والقضاة يترددون على المقهى» ويتعجب ذيوفنت THEVENOT ، من عالمية المقهى التى تجمع بين كل أنواع البشر من غير تمييز دينى أو اجتماعى ، ولا يشعر أحد بالخجل أو الغربة عند ارتياده ».

وينتهى الكاتب الأمريكى إلى أنه ربما يكون سبب التناقض الذى يظهر فى هذه المصادر يعود إلى اختلاف المراحل التاريخية الذى كتب فيه كل منهم شهادته ، فيقدم كل من لين وراسل المقهى فى مرحلة زمنية متأخرة ، عندما ساءت ظروف الشرق ،

وتردت الأحوال العامة ، وبرزت التناقضات الاجتماعية وقامت الحواجز بين الفئات الاجتماعية المختلفة ، وربما أقلع فى هذه الفترة كبار القوم عن ارتياده ، وربما أصبحت لهم مفاهيمهم الخاصة .

الفن فى المقهى

وبظهور المقهى انتعش فن الكلام ، بالفرصة الذى قدمها أتاحت الفرصة للحديث الجاد أو حتى مجرد الثرثرة والسمر ، وهذا السمر لا يليق فى الجامع ، وفى المقهى إذا كان لديك ما تقوله ، فتعثر على من ينصت اليك ، ولن يوجد ذلك الحوذى فى قصة تشيكوف ، الذى لم يجد سوى حصانه يشكو إليه أحزانه وهمومه، ويمكن أن تتبين هموم الناس ومشاغلهم من الكلمات المتناثرة من أفواه رواد المقاهى . وأظهرت صاحب موهبة الحديث الحلو الطلى الذى يسعده اقتناص مستمعين جدد !

كما قدمت المقهى منبرا لأصحاب المواهب الأدبية ، وعرفت بعض المقاهى بالشعراء والأدباء المترددين عليها ، وقدمت صورا مبتكرة للتسلية ، مثل الراوى أو العازف الذى يتقاضى أجرته من الرواد ، وأدت إلى انتعاش القصص الشعبية ، وسجل «ادوارد

لين» و «كريستين نيبور» الوصف التفصيلى للفن الذى يقدم فى مقاهى القاهرة .

وأكد الرحالة أن الموسيقى كانت تقدم فى كل من مقاهى مصر والحجاز والشام والعراق ، وكان الغلمان الحسان يقدمون القهوة فى المقهى البغدادى بملابس جميلة خاصة فى القرن السابع عشر .

وها هو عالم المقاهى الرحيب يوشك على الاندثار ، أمام الحياة الحديثة . وأمام النوادى والمخال التى تقدم المشروبات ووجبات الطعام السريعة .

فهل ستختفى المقاهى التاريخية التى شهدت العديد من الأحداث السياسية والفنية .

وهل آن الوقت لكى يقدم باحث عربى تاريخ المقاهى ، أى تاريخ الحياة الاجتماعية للشرق .

كيف تتداعى وتنهار الدول ؟

«لاتنهض الدول على الأباطيل ولا تشيد صروحها على الأكاذيب»

«النظام البوليسي يبعد الأكفاء .. ويقرب بطانة السوء !!»

تعود السلطان أن يسمع من جواسيسه كل يوم خبراً ، إذا لم يأته وقع ما يخشاه ، ويبقى متكدراً حتى تأتي له التقارير بشيء فيشتغل بتحقيقه ، فإذا ظهر زيفه استراح .

وماذا يبقى من الوقت للدولة وتشييدها والشريعة وتأييدها ، والجنود وترتيبها ، والأحكام وتقويمها ، والمالية وتنظيمها ، والمعارف وتعميمها ، وعلائق الدول وتوثيقها ، والسياسة وتنسيقها ، والسفن وتعميرها ، والمنافع العامة وتكثيرها ، لا يبقى من الوقت سوى ما يكفي ليأخذ زيد مكان عمرو ، وينال بكر منزلة خالد .

لقد بالغوا في إشغال السلطان وقلب الحقائق حتى صاروا يقدمون لجلالته في اليوم ماينيف على مائة وخمسين تقريراً كلها كذب وإفك .

فيا كساد العلم ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق وسعادة الباطل ، وياخيبة الصادق ونجح المنافق ويا بكاء الأمين وضحك الخائن ، بعد أن أصبحت دار السلطنة التى كانت عرينا للأسود خلايا تطن فيها زنابير الجواسيس ، وأصبح العالم من شر الجهلاء بدعا على قواعد العلم يكتبها من تأليفه ، وأصبح الجاسوس الذى يظلم العلماء يمشى مرحاً ويختال تكبرا ، وأصبح يصدر عشرات القرارات كل يوم لتفتيش بيت زيد أو استنطاق عمرو أو إبعاد خالد أو سجن بكر ، وأصبحت الأستانة طبقا من الفضة مملوء بالعقارب والأفاعى .!

هذا ما جاء على لسان إبراهيم المويلحى فى كتاب قديم ، نشر على شكل مقالات في صحيفة المقطم لصاحبها فارس نمر ، تحت عنوان «ماهنا لك .» وجمعت هذه المقالات فى كتاب صدر عام ١٨٩٦ ، ولكن سرعان ما اختفت نسخه من الأسواق .. والكتاب يتضمن تجربة شاهد عيان يحكى ما شاهده فى البلاط العثمانى فى الآستانة أيام حكم السلطان عبدالحميد ، بعد أن عاش كاتبه فى عاصمة الخلافة بين عامى ١٨٨٥ و١٨٩٥ .

وكشف للمويلحى الحفيد سر اختفاء الكتاب بقوله :

«بعث السلطان عبد الحميد بأمره إلى مؤلفه إبراهيم المويلحى يطلب منه إرسال النسخ إلى الآستانة ، فخضع إبراهيم لأمر جلالته ، لذا يندر وجوده» .

وبالفعل لا يوجد من هذا الكتاب رغم أهميته أى نسخة فى دار الكتب ، ويقتنى الباحث أحمد حسين الطماوى نسخة منه قام بتحقيقه ونشره ..

وتظهر خطورة هذا الكتاب وأهميته ، إذا نفذنا إلى الخيط الذى يربط مقالاته ، وتجاوزنا عن الخلاف الحاد حول تقويم شخصية السلطان عبد الحميد ، وتناولنا ما جاء من شواهد انهيار الدولة العثمانية ، وهو ما وقع بعد نشر هذا الكتاب بأقل من عقدين من الزمان .

لقد اهتم الغرب طويلا بأسباب سقوط الدولة الرومانية ، وصدر حولها عشرات الدراسات والبحوث ، حتى يتجنب السقوط ويحمى حضارته من الانهيار ، وكان ينبغى أن يشغل الشرق أسباب سقوط أطول دولة فى تاريخه وهى الدولة العثمانية .

يقول أحد كبار المؤرخين: إن أكبر معضلات التاريخ قضيتان، الأولى ، تفسير قيام الدول والأمبراطوريات ، والثانية، تفسير

سقوطها ، وإذا كان قيام الدول وصعودها قد حظى باهتمام مؤرخيها الذين عاشوا في ظلها ، إلا أن عملية السقوط لم تلق الاهتمام نفسه لما في هذا الحديث من أسى ، والسقوط ليس حادثا واحدا ، بل عملية تداع طويلة تمتد إلى عدة أجيال ، وعدم اهتمام المؤرخين بها يخفى الكثير من الدروس والعبر ..

ويقدم المويلحى فى كتابه الفصل الأخير من حياة الدولة العثمانية التى امتدت ستة قرون . ويحلو للكثيرين تفسير سقوط الدول إلى القوى الخارجية ، متجاهلين أن هذه القوى لا تنفذ إليها إلا بعد أن تقضى هى على نفسها من الداخل ، فسقوط روما يعود إلى شعب روما ، عندما انتشر بين أفراده الفساد الخلقى ، ونشبت بينهم المنازعات ، وقادته حكومة استبدادية .

إن الفساد الخلقى عجل بانحلال الامبراطورية الرومانية ، عندما فقد أهلها صفات الرجولة التى قامت من بساطة العيش وتحمل المشاق ، وأضعفها بهرج الثروة ، وأصبحت الفئات المسيطرة تنكب على شهواتها وتستسلم للغوايات ، فلا يراعون الآداب العامة وساهم ازدحام المدن بالسكان فى انحطاط الخلق والجمال ، وضاعت الحرية السياسية ..

وتعود الأسباب السياسية لانهيار الامبراطورية الرومانية إلى الاستبداد المتزايد الذى قضى على شعور الفرد بحقوقه . مما أضعف قدرته على القيام بأعباء الحكم ، وعندما لم يصبح أمام المواطن الرومانى فرصة للتعبير عن آرائه السياسية سوى بالعنف ، فقد اهتمامه بشئون الحكم ، وانهمك فى أعماله ومتعه ، ولم يعد أمامه سوى الخلاص الفردى !

هذا عن الامبراطورية الرومانية ..

فماذا عن الدولة العثمانية كما يصورها إبراهيم المويلحى فى مشاهداته ؟

يزخر كتاب «ماهنالك» بمظاهر الضعف والوهن الذى ينخر فى كيان دولة الخلافة ، فى كل مناحى الحياة يبين عللها وأسباب عجزها فى مواجهة التحديات الخارجية وفى تحديث مؤسساتها ونظمها ..

وأمام هذا العجز الفاضح ، لجأت الدولة إلى أسهل الحلول وأكذبها .. واعتمدت على نظام بوليسى يعد على الناس أنفاسهم ويلتقط كلماتهم ويحلل أعمالهم ، يتصور سدنة هذا النظام ، أنه

يقدم أداة طيعة تحمي الدولة من الانهيار ، والحقيقة أنه يعجل بانهيارها ، بما يساهم به من إخفاء الحقائق وستر جوانب الخلل ، فيقود إلى الهاوية ، ويسد المسالك للقيام بعمل عام من أجل الانقاذ الوطني ..

يوضح المويلحي ذلك في مقالته عن أعمال دائرة الخفيات ، يقول : «للإنسان في الآستانة طريق مختصر ينال الاثراء والعلياء وشهرة العلم في يوم واحد ، بأن يكتب تقريراً ملفقا يتهم فيه الأبرياء الأمناء والصادقين والغافلين فتنهال عليه الدنانير ، ويطلع في صدره قمر الوسام بازغا وتخاطبه الدول بألقاب الفضيلة والسعادة ..

في مجتمع لم يعد فيه من هو فوق الشبهات ، ويتحول الجميع وكأنهم أعداء لساكن قصر يلديز (قصر السلطان) . ولا حسابَ ولا عقاب لمن يقدم فرية يثبت التحقيق كذبها ، وتتنافس .. «الخفيات» في عرض هذه الافتراءات ، في مجتمع لا يتورع الابن في الدس على أبيه لينال رتبة أو يحقق حظوة ، وهكذا شاع جو من الريب والشكوك ، وتلاحقت الفتن القاتلة فلا تنهض دولة على الأباطيل ، ولا تشيد صروحها على الأكاذيب .

ويرد السلطان عبد الحميد بعد خلعه في مذكراته أسباب اهتمامه بجهاز الأمن - من مذكرات السلطان عبد الحميد ، تحقيق الدكتور محمد حرب - يقول : «كنت أعلم أن السر عسكر عوني باشا قد أخذ من الانجليز أموالاً ، إن رجلا من رجال الدولة يأخذ مالا من دولة أخرى لابد وأن يكون قد قدم لها خدمات ، كان حسين عوني يعمل كل ما في وسعه دون أن يطلع أحدا عما ينتويه ، وعندما سافر إلى أوروبا طرق أبواب رجال الحكم هناك ، وخلال سفره إلى فرنسا وانجلترا ارتمى في أحضان الانجليز ، وأخبرني سفيرنا في لندن موسوروس باشا تسلم حسين عوني نقودا من الإنجليز ، إن الصدر الأعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته ، لذلك تكدرت وتأثرت ، ومسألة أن قائدا عثمانيا يقبل نقوداً من دولة أجنبية لم يكن عملا يستهان به ، فوقفت طويلا أما هذه المسألة ، فلا يمكن لدولة أن تكون أمنة إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصا في درجة وزير أعظم ، وعلى هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة ، وكان ضروريا أن أعرف أن بجوار هؤلاء لابد أن يوجد أشخاص مفترون ، لكنني لم أصدق ولم أخذ أي شيء يأتي من هذا الجهاز دون تحقيق دقيق ..» .

ويفسر بعض المؤرخين انتشار هذه الظاهرة السرطانية ، بالهزائم العسكرية التى اقترنت بالسنتين الأولتين من حكم السلطان ، وأن عبد الحميد رأى بعينيه عمه السلطان عبد العزيز وهو يخلع ثم يقتل ، ووقعت محاولة لخلعه قبل مضى عامين على حكمه ..

ويظل النظام البوليسى محاولة يائسة ، لمنع الانهيار والأخذ بشكل القوم دون حقيقتها .

ولننظر ماذا كانت نتيجة النظام البوليسى .. ؟ قامت الرقابة على المطبوعات ومنعت وصول الحقائق والأفكار للمواطن ، حتى حجبت المعلومات عن المنوط بهم إتخاذ القرارات السياسية ، فتخبطت الدولة فى الظلام ، ويروى المويلحى ، كيف تجمع الكتب وتحرق مثل كتاب فى الفقه تضمن شروط الإمامة ، وتلقت الصحف تعليمات بعدم ذكر جمهورية أمريكا واستبدالها بمجتمع أمريكا ، ولم تكن صحيفة تستطيع أن تكتب ولى عهد روسيا خشية أن يحدث لفظ ولى العهد إنقلابا فى السلطنة !

الأغوات والحريم

وهناك نتيجة واحدة للحكم البوليسى . وهو ظهور بطانة السوء وابتعاد الأكفاء من العناصر القديرة .. فالحكومة إذا غلب عليها

الجبن وأحاط بها الخوف وتولى الأدنياء أمورها وساس الأغبياء جمهورها وانتشر فى جسمها ميكروب التجسس فبشر حكامها بالخراب القريب والدمار الوشيك .

ورأى السلطان أن الكون لا يستتب وأن النظام لا يحفظ ، وأنه لا يأمن على ملكه ونفسه إلا إذا قبض بيده القوية على زمام كل الأمور كبيرها وصغيرها ، وطاف حول العرش زمرة مختلفة الأجناس والأنواع من نزاع الآفاق .. رأوا أن أغراضهم لا تنال ومراكزهم لا تحفظ وراحتهم لا تدوم إلا بمضاعفة مخاوف السلطان ، فتشتت أهل الفضائل الذين كانت الدولة تنتفع بهم فى حل مشاكلها ، ولم يبق منهم إلا من تغابى أو تجاهل أو أفرط فى إظهار الجبن حفظا لوظيفته أو طمعاً فى وظيفة ، وأصبح التعيين فى وظائف الدولة هو مجرد مزاج سلطانى ، حتى لقد عزل والى الحجاز عبد الحميد باشا عثمان لأن أهل الحجاز أحبوه ..

وأصبح الصدر الأعظم لا يعلم بتوظيف زيد وعزل عمرو إلا بعد وقوعه ، وصار الباب العالى ديواناً للقيد والتسجيل وانحصرت أمور الدولة فى رجال المابين (الحاشية وهى تعبير يعنى الحجرة التى لها بابان ، باب إلى جهة الحريم وباب إلى جهة الخدم) ،

فاختلطت الوظائف وتقلدها غير أربابها ، وأصبح الشيخ سفيراً ، وطابخ الشاى واليا ، ولاعب التياترو مبعوثا ، حتى أمست الوظائف كخرزات مختلفة الألوان وضعها واضع فى جعبة ثم جلجلها ما استطاع وفتحها فانكب عليها شبان القصر يفرقون ما وقع فى أيديهم على أصحابهم ، وكانت نتيجة هذا ما تراه من حال الدولة في نصفها الثانى بعد ضياع النصف الأول .!

وتآمرت بطانة السوء لابعاد ذوى الكفاءة .. فمن الياوران الأكارم فؤاد باشا المصرى الذى تفتخر به مصر لعزة نفسه وثبات جأشه وقوة فؤاده وصداقته للسلطان ، إلا أن فضائله رمت به فى مشاكل لم يسلم منها ، وضيعت عليه حلقات الاستنطاق - التحقيق - فى أمور رمته فيها سذاجة الصادق الأمين ..

بعثه السلطان إلى امبراطور النمسا بنيشان فاشترى من فينا سلاحا أعجبه ليقدمه إلى السلطان ، فأبلغوه أن فؤاد باشا اشترى سلاحاً لقصد سيء ، فأخذ عند قدومه إلى التحقيق ، واتهمه خصومه بأكبر من هذا حتى رمى بشرائطه العسكرية أمام السلطان ، كان هذا حال الأمين إذا وجد بين الخائنين ، فى إضاعة الأوقات الضرورية لإصلاح حال الدولة ..

ووصل الأمر إلى سقوط الوزارة بعد يوم واحد من تشكيلها لوشاية أو دسيسة ، دخل أبو الهدى الصيادى على السلطان فى اليوم الثانى من صدارة أحمد وفيق باشا مضطربا ، ويقول : يا أفندينا إن عثمان بك مع الصدر وبعض الوكلاء يكتبون ورقة فى السر بخلع جلالتك بناء على فتوى من عريانى ذادة شيخ الإسلام ، فأمر السلطان باحضار عثمان بك تحت حراب البنادق ، وأمر بتفتيشه لإخراج الورقة ، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا ، ورغم هذا عزلت الوزارة بعد يوم وليلة من تأليفها .

من رجلى إلى يدى!

وأخذ المويلحى يروى الحكايات فى عبارات نافذة عن سيطرة بطانة السوء فمثلا أرادت الدولة أن تبعث زكى باشا قائدا على عساكرها فى طرابلس الغرب ، فوقف بين يدى الأغا وقال : يا مولاى إن الدولة عينت عبدكم قائداً على عساكرها فى طرابلس الغرب ولى أمنية هى تقبيل يدكم الشريفة .

قال الأغا : متى وصل قدركم أن يتعدى رجلى إلى يدى .

وانقلب الهرم فى الدولة العثمانية ، وأصبح أسافلها فى أعلى الهرم الاجتماعى ، وأصبح عدد المشيرين حول السلطان ستون

مشيراً ، ويعلن المويلحى قائلا : ليس فى الدولة البريطانية سوى ستة مشيرين ، والدولة الفرنسية عندها أربعة وبعد حربها مع ألمانيا لم يخلفهم أحد بعد وفاتهم .

وفى الدولة البوليسية يتوارى القضاء وتهتز مكانته .. فكان على الآباء أن يدعو الله لأبنائهم ألا يحكم عليهم بدعوى ، فالدعوى قصامة الظهور لابطاء الحكم واهمال الفصل فيها أو لمصيبة الحفظ لأوراقها ، وربما ورث الابن دعوى أبيه وجده ..

مر عبد الله باشا فكرى فى أحد أسواق الآستانة فوجد رجلا يبيع المناديل ، ووقف يشترى منه وخلال حديثه تبين طيب أصله فسأله عن بلده ، فقال : من بغداد ، كنت من علية قومى فرمانى القضاء والقدر فى البلد لدعوى بينى وبين جماعة من أهل بغداد ، فجئت إلى دار الخلافة لأنال عدل الحكومة فبقيت ثلاثا وعشرين سنة ، ودعواى واقفة لا يحكم لخصومى فاستريح باليأس ، ولا يحكم لى فأحصل على حقوقى ، وبعت جميع ما أملك ، وانتهى بى الحال إلى ما ترى !

الرشوة والبذخ

وبدلا من أن تنفق الدولة التى فى طريقها للانهيار أموالها على حل مشاكلها والخروج من مأزقها ، تعيش حالة من البذخ المدمر

وتنتشر فيها الرشوة والفساد ، ولقد فاقت السلطنة العثمانية وهى في ذروة ضعفها جميع الدول الأوروبية في الأبهة والفخار بأعظم مقتنيات الزينة ، ويصف المويلحي موكب السلطان بأنه ليس مثل قيصر في موكب انتصاره ولا الاسكندر في يوم افتخاره ، ففى يوم الجمعة ترد عشرة آلاف من العساكر إلى ساحة المسجد أمام باب السراى ، وتصطف صفوف مضاعفة بعضها وراء بعض ، وتتسابق مركبات المشيرين والوزراء والمشايخ والأجانب من السفراء ، ومجلس السفراء في قاعة الجيب الهمايونى المطلة على تلك الساحة .. أما المراقبة والمحافظة على المسجد ، فترى على كل نافذة من نوافذ المسجد مصل إلا فتشه المراقبون تفتيش اللص سرق فص خاتم ، فإذا دخل المسجد دخل وعن يمينه جاسوس وعن شماله آخر ومن خلفه إثنان ..

وفى شهر رمضان ، يفطر السلطان في سراى طوب كابى ، ويأتى الخدم من سراى يلديز بالأوانى الذهبية المرصعة والموائد الفضية وما يتبعها من أنواع الزخارف والزينة التى لا توجد عند جميع ملوك الأرض لإفطار جلالته ، وأفطر مرة إلى جانب المخلفات النبوية التى بقيت ثلاثة عشر قرنا .. وما هى

بذهب ولا بحجر كريم ، إنما هى صوف خشن من لباس خاتم المرسلين !

ويحكى عن الفساد الذى ضرب أطنابه فى الدولة ويقول :

«يأتى المعزولون من المأمورين إلى دار السلطنة ، فيدخلون وعبابهم مملوءة بالمال ورءوسهم بالأحلام يطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتاب والحجاب ، ويقدمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والكاتب والحاجب والنديم ، وعندما يعودون إلى وظائفهم لا ترى الرعية منهم إلا نموراً تمزق الأعضاء وأسوداً تفرق الأشلاء وأفاعى ناهشات وعقارب قاتلات ، وعرفوا أن لاعقاب على الرشوة ولا مؤاخذة فى استعمال القسوة ، ولا جناح على الكاذب ، ولا عيب على الخائن ، ولا صحة على منافق ..

راسبوتين العثمانى

وشاع فى أعلى درجات المجتمع والإدارة العثمانية الخرافة بدلا من العلم ، وتفسير الأحلام والتنجيم ، ولعل قصة أبو الهدى الصيادى خير دليل ، على نوعية الشيوخ الذين أحاطوا السلطان ، ويروى هذه القصة ابراهيم المويلحى ويكملها الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه القيم عن الدولة العثمانية .

قدم الشيخ أبو الهدى الصيادى إلى الآستانة من حلب فى آخر حكم السلطان عبد العزيز فى زى أهل الطريق ، وأخذ ينشد الذكر ويضرب على الدف فى إحدى التكايا الرفاعية ، وعاد وهو يحمل لقب نقيب الاشراف فى حلب ، ورجع إلى الآستانة بعد تولى السلطان عبد الحميد بشهرين ، ورأى السلطان رؤيا ففسرها له الشيخ أبو الهدى تفسيراً راق له ، وبعد أيام أبلغ الشيخ رجال المابين ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قد جاءه فى الرؤيا وأبلغه رسالة إلى السلطان عليه أن يبلغها من غير واسطة ، وقيل له إن السلطان لا يعرف اللغة العربية وأنت لا تعرف اللغة التركية ولابد من وسيط ، وعاد الشيخ فى اليوم التالى وقال لقد علمنى النبى اللغة التركية ! فبحثوا إن كان الشيخ يعرف اللغة التركية وتأكد عدم معرفته بها من قبل ، فدخل على السلطان ، ونال حظوة لديه لم ينلها أحد من قبله .

وهو بحق راسبوتين الدولة العثمانية ، فإذا كان راسبوتين أحد أسباب سقوط القيصرية فى روسيا فأبو الهدى أحد أسباب سقوط الدولة العثمانية بنفس الوسائل والأساليب .. فقد كان أفاقا دفعته المقادير إلى السلطان ، ماهراً ذكيا ، قادرا على التغلغل فى أعماق

النفس البشرية ، ومعرفة مواطن الضعف والقوة فى كل منهم ، استحوذ على السلطان ، ولا يطيق أن ينافسه أحد ، وانتزع نقابة الأشراف فى حلب من أسرة عبد الرحمن الكواكبى ، ولم يقف نفوذه عند الأمور الدينية والتكايا بل إمتد إلى الأمور السياسية والقصور ، وحمل العديد من الألقاب فهو مستشار السلطان وحامى العثمانيين وسيد العرب وشيخ الشيوخ ، ويقف خلف كل القرارات التى أدت إلى سقوط السلطان وانهيار الدولة ..

تعرض لدسائسه جمال الدين الأفغانى ، وعبد الله النديم ، فبعد أن عفا عبد الحميد عن عبد الله النديم وسمح له بالسفر إلى استانبول وعينه مفتشا للمطبوعات بالباب العالى ، استقبله الصيادى بالعداء ، ونازله النديم بلسانه اللاذع وفضح دسائسه وشغفه بوضع تقارير ملفقه للسلطان ، ووضع كتابا اسمه «المسامير» أطلق فيه على أبى الهدى أبا الضلال ، وصور الشيطان فى كتابه مكتئبا حزينا لأنه وجد منافسا له من بنى الإنسان هو الصيادى ، ورد الصيادى باستعداء السلطان ومحاولة مصادرة الكتاب ، ولكن النديم استطاع أن يصدره فى مصر ، ورد عليه الصيادى بكتاب سماه «صوت الهزار ونعيق العذار» قال

فيه عن مصر «إنها دار الفاسدين ، ودار الفجور ، وموضع فن غير مستور ، ومقر فضائح تضيق لها الصدور» !

وعرف عن «أبو الهدى» عداءه لكل إصلاح وخصومته لكل رجل حر ، ويكفى أنه أفتى للسلطان أن اهلاك الثلث فى إصلاح ثلثى الرعية جائز !!

اليأس .. اليأس

ومن الطبيعى أن تصيب الناس أمام تلك الهزائم ونتيجة هذه الأوضاع جرثومة اليأس التى تفضى إلى موت الأمم والأفراد ، وينقل المويلحى عن أسعد باشا سفير الدولة العثمانية فى باريس قوله لأحد الذين يعملون من أجل نصح الدولة وإيقاظها بكتاباته وخطبه : «أيها السيد الفاضل إن الله أراد موت هذه الدولة فكيف تقدر على إحيائها ..» .

بقيت كلمة أخيرة تتناول الشاهد وشهادته ، لقد كان إبراهيم المويلحى من أهم كتاب النثر الأدبى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وعاش مرحلة كثرت فيها الحوادث والخطوب ، وشهد التدخل الأجنبى من خلال صندوق الدين ، وخلع الخديو .. اسماعيل وقيام الثورة العرابية وأخيراً الاحتلال الانجليزى لمصر ..

وكان قريبا من هذه الأحداث ، وعمل سكرتيرا للخديو اسماعيل خلال وجوده فى نابولى . يحرر رسائله ويعلم أولاده .

ومن العسير أن تجد أحد الكتاب فى المسائل السياسية فى هذه الحقبة ، يثبت على موقف واحد ، فهاجم السلطان ودولته فى الصحف التى أصدرها فى أوروبا مثل صحيفة الخلافة عام ١٨٧٩ وصحيفة الاتحاد ، ثم عاد وأصدر جريدة «عين زبيدة» يدافع فيها عن الدولة العثمانية ، ويهاجم الانجليز ، ثم انضم إلى جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى تحرير العروة الوثقى فى باريس.

ووصل إلى استانبول عام ١٨٨٥ وعينه السلطان فى «انجمن المعارف» وبقى بها عشر سنوات ، ثم عاد إلى مصر وأصدر صحيفة «مصباح الشرق» عام ١٨٩٨ يدافع خلالها عن الدولة العثمانية .

وأخيرا نشر هذه السلسلة من المقالات عن الدولة العثمانية فى صحيفة المقطم .

وعرف عنه أنه كان مدافعاً صادقا عن الدولة العثمانية ، مثل كل أبناء جيله ، فكانت بالنسبة إليهم رمز وحدة الشرق وحاميته ، تعلق بالأحلام طويلاً بأن تخرج من مأزقها وأن تصحح أخطاءها ، وأن تتمكن من الانتصار على أعدائها .. وخذلته وأحبطته .

تخليص الابريز
فى تلخيص باريز

تخليص الابريز - أى الذهب - في تلخيص باريز » أحد الكتب المصرية الخالدة ، التى تفوق أهميتها حدود عصرها ، وكاتبه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، لا يختلف أحد على ريادته ، وأثره العميق فى الثقافة المصرية ، بل ويرى بعض النقاد أن هذا الكتاب أهم وثيقة أدبية في مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلا تجد كتابا آخر فى عصر محمد على (٤٠ سنة) ، يستحق الاهتمام .

وقصة حياة الشيخ ذات دلالات وإشارات كثيرة ..

فما كاد القرن التاسع عشر يبلغ عامه الأول حتى ولد رفاعة وسرعان ما غادر قريته مع أسرته إلى فرشوط فى قنا فرارا من الضائقة الاقتصادية التى أصابت الأسرة .

وهى قصة تكررت مع عدد غير قليل من زعماء النهضة والإصلاح ، وأن انتقالهم وتخليهم عن ديارهم نتيجة ما يتعرضون له من اضطهاد وبعد أن تحاصرهم المشاكل ، فهذا ذاته ما وقع

للشيخ محمد عبده الذى هاجر من بلدته «محلة نصر» هربا من الحبس والاضطهاد ، وإصرار كل منهم رغم هذه المصاعب على التعليم والتحصيل الذى كثيرا ما تلعب فيه المصادفة دوراً حيويا ، وحدث شيء قريب من ذلك مع علي باشا مبارك ومع د. طه حسين .. وخرج هؤلاء من رحم الشعب المصرى ، يعرفون معاناته واحتياجاته وأوضاعه البائسة ، وقدم كل من رفاعة الطهطاوى وطه حسين لمصر أعمالاً عظيمة ، وجمعتهما الدراسة فى الأزهر الشريف ثم التعرف على الثقافة الغربية ببعثة كل منهما إلى فرنسا ، وهو أيضا ما حدث مع محمد عبده الذى عاش فى باريس وسكن أمام كنيسة مادلين عندما كان يصدر مجلته «العروة الوثقى» .

ولولا اختيار شيخه حسن العطار ما أخذ فرصة الدراسة فى باريس مع البعثة المكونة من أربعين دارسا ، عندما كان الفتى فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ بنصيحة شيخه العطار فى تدوين رحلته وأخذ يسجل مشاهداته وملاحظاته وانطباعاته .

وجاء هذا الكتاب الرحلة ، محتشدا بالمعلومات والمعارف وبالأمثلة والشواهد ، ويتناول العلاقة بين الشرق والغرب ، والتى بدأت مع بداية الرحلة عام ١٨٧٢ .

وتوسم جومار - الذى كان يشرف على البعثة - فى الفتى الذكاء والذى جاء يدرس الترجمة ، ويهتم بالعلاقة بين الشرق والغرب ، ووضع فى رحلته خبرة خمس سنين ، فقد عاد إلى وطنه عام ١٨٣١ .

وكان هذا الكتاب ، رحلة شائقة تروى رحلة غنية بالمعارف .

إنه رجل تربى فى الأزهر الشريف أعرق الجامعات الإسلامية ، ثم انتقل إلى باريس ينهل من علومها وفنونها ، واستطاع أن يمزج الشرق والغرب ، واحتفى بايجابيات الغرب ولم يتخل عن الشرق ، وخلال اكتشافه الغرب أعاد اكتشاف الشرق . وفى كتابه ترى الذات وترى الآخر ، ولم يعدم فى كتابه من روح الفنان .

وما أراده رفاعة من وراء تأليف هذا الكتاب .. «ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التى يقال فيها أنها عرائس الأقطار ، ويبقى دليلا يهتدى به إلى السفر طلاب الأسفار، خصوصا أنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة

العربية شىء فى تاريخ مدينة باريس ، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها » .

* * *

وليست هذه هى المرة الأولى التى ينشر فيها هذا الكتاب ، وإن كان كلما صدرت طبعة نفدت ، فقد صدرت الطبعة الأولى فى مطبعة بولاق عام ١٨٣٤ ، أعقبها طبعة ثانية عام ١٨٤٩ ، ثم احتفلت وزارة الإرشاد بذكرى الطهطاوى ونشرت كتابه بمقدمة كتبها د. مهدى علام و د. أنور لوقا و د. أحمد بدوى ، وأعادت الوزارة نشره عام ١٩٧٤ مع تعليق د. محمد فهمى حجازى ، كما نشره د. محمد عمارة ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى ، كما ترجمه إلى اللغة الفرنسية د. أنور لوقا .

وكما قدم العالم الفرنسى شامبليون إحدى الصفحات المشرقة فى العلاقات المصرية الفرنسية ، كذلك فعل رفاعة الطهطاوى ، الذى ساهم فى الإطلال على النهضة الأوروبية ، وكما نجح شامبليون فى كشف أسرار اللغة الهيروغليفية ، قام رفاعة بفك طلاسم الحضارة الأوروبية ، وقدم للقارىء فى الشرق صورة فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الأوربية .

ووصل رفاعة إلى النغمة الصحيحة ، والمعادلة المتوازنة ، وأنه من الضرورى الإمساك بحضارة العصر والتفاعل معها ، ولم يكن حديثه عن الحضارة الأوروبية مجرد ناقل لما يشاهده ، وإنما كان يناقش ويحلل ويعلل ويقارن ، وكان فى ذلك يقظ الذهن ، عميق النظر نافذ البصيرة .

ووقف خلف صورة باريس التى يتجول فى شوارعها ويراقب أهلها ، يرى ما يجرى فى وطنه ، وكان أول من اهتم بأن يوجه حديثه للقارىء وليس للمختصين وحدهم .. «حاولت فى تأليف هذا الكتاب سلوك، طريق الايجاز والسهولة فى التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه ويقول ..» لو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، فمصر أم الدنيا» .

فلم يكتف بالمقارنة ولكن رسم معالم النهضة فى بلده ، ونادى بسرعة العمل على اللحاق بالدول الأوروبية ونقل مشاهداته وخبرته، وبحث أسباب النهضة المتمثلة فى حضارة العصر الحية المتطورة .. وها هو الشيخ يحتفظ بزيه الشرقي ، ويحافظ على عادات بلده ، ويستوعب كل ما يراه وينقله لشعبه ، ويبحث عن إجابة السؤال

الذى كثيرا ما تردد وهو يسير فى دروب باريس .. لماذا تأخر المسلمون؟ .. ولماذا تقدم غيرهم ؟! .. ، ويلاحظ «تفوق هذه البلاد وبراعة أهلها في العلوم البرانية والفنون والصنائع والرغبة فى جلب ذلك إلى الديار الإسلامية لخلوها منها» .

فكانت رحلته عملية وصل بين الشرق والغرب ، لم يقتصر مع مجرد التعريف ببلاد الفرنسيس ، بل حث الشرق على الأخذ بأسباب التقدم يقارن ويلتقط الفروق ويحللها ، ويرى التشابه بين ثورة ١٨٣٠ فى باريس وبين ثورة همام فى صعيد مصر ، وهو يتقبل النهضة الأوروبية ويبحث عن أسبابها ، ولا يرى فى ذلك أى شبهة تعارض مع تراثه .

هل هناك خريطة جديدة للشرق الأوسط ؟ ؟

ما هي حقيقة الخريطة الجديدة للشرق الأوسط .. ؟ وهل يمكن أن يعاد تقسيمه كما حدث في عشرينيات هذا القرن .. ؟ وما الذى يراد من المنطقة العربية في ظل المتغيرات العالمية الجديدة ؟

وهل يمكن ونحن في القرن الواحد والعشرين ، أن تطرح أفكار حول مستقبل البلدان العربية بعيداً عن دوله وشعوبه ؟! وما هو الحد الفاصل بين الوهم والحقيقة في المشروعات والأفكار المطروحة.. ؟

ولماذا يعيد الغرب طرح أسس (سايكس /بيكو) التقسيم القديم..؟

تطرح من جديد أفكار وآراء حول إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط ، وتولى مراكز البحث الغربية أهمية كبيرة لمستقبل المنطقة العربية ، ويرى الباحثون الغربيون في النظام الغربى ماضياً عتيقاً استنفد أغراضه . ويبحثون عن صيغة جديدة ونظام شرق أوسطى جديد ..

ويقسمون الشرق الأوسط إلى عدة أنساق ، يفصلون فيها دول الخليج عن مصر والشام ، ومصر والشام عن دول المغرب العربى التى يلحقونها بدول جنوب أوروبا ودول حوض البحر الأبيض ، ويدخل البعض ضمن الشرق الأوسط دولاً مثل قبرص وأفغانستان وتركيا وإيران وباكستان والجمهوريات الإسلامية التى استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفييتى كما يدخلون إسرائيل ، وتخرج منه عند البعض دول عربية مثل المغرب والجزائر وتونس وأحيانا ليبيا والسودان ..

وحتى الآن تظل هذه الأفكار مجرد مشروعات يتناولها الباحثون ، وهى ظاهرة تخفى أكثر مما تظهر وتقوم تصوراتها على المصاعب الراهنة التى تواجهها الأقطار العربية ، التى جعلت من الشرق الأوسط لوحة تتسم فى مجمله بعدم اليقين ، بعد انتهاء ترتيبات ما بعد الحرب العالمية ونهاية الحرب الباردة ، وسقوط الاتحاد السوفييتى ، ونتائج حرب الخليج .

والهدف الذى تسعى هذه الدراسات لتحقيقه من النظام الجديد، منع ظهور قوة محلية تنازع فى السيطرة على مستودعات الطاقة فى هذه المنطقة الحساسة من العالم ، أو تتحكم فى

فوائض البترول ، ومعالجة الخلل الاستراتيجى المتمثل فى التهديد الذى تتعرض له دول صغيرة قليلة السكان وشديدة الغنى ، من دول كثيفة السكان وشديدة الفقر كما تهدف إلى ضمان مستقبل إسرائيل .

ومن يتابع هذه البحوث ، يشعر وكأن العالم يعود إلى الوراء ، إلى الفترة التى تشكل فيها دول الشرق الأوسط ، عندما اقتسمت كل من بريطانيا وفرنسا أراضى الامبراطورية العثمانية ، وهى ذات الترتيبات التى يعملون على تغييرها .

وفى هذا الإطار صدر كتاب أمريكى بالغ الأهمية ، عنوانه «السلام الذى ينهى السلام» أو «سلام ما بعده سلام» ، كتبه دافيد فرومكين ، عضو مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية ، والكاتب فى مجلة «فورين أفيرز» والذى صاغ من الوثائق والأسرار والمذكرات قصة قيام الشرق الأوسط ، والذى تشكل خلال ثمانى سنوات من سنة ١٩١٤ حتى سنة ١٩٢٢ ، كشف فيه خلال ٦٥٠ صفحة من الترجمة العربية العديد من القضايا التى لم يكشف عنها الستار ، وهى الفترة التى لم تكن فيها الولايات المتحدة ، طرفا فاعلاً ..

وما أن بزغ فجر القرن العشرين ، إلا وكان الشرق الأوسط هو الحصن الوحيد الذى لم يقتحمه الاوربيون – باستثناء شرق آسيا – فقد كان من بقايا الامبراطورية العثمانية فى آسيا ، لذلك كان تثبيت سيطرة الحلفاء فى الشرق الأوسط ذروة استيلاء أوروبا على بقية العالم ، والفصل الأخير فى مغامرات استعمارية شديدة الخطر .

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى استطاعت بريطانيا أن تباهى بأن جيوشها قد اقتحمت آخر الحصون فى العالم ، وانجزت تلك المسألة المزعجة الشرق الأوسط القابل للانفجار ، التى استمرت ملحة فى السياسة العالمية منذ حملة نابليون على مصر ، وها هى قد سويت بواسطة ترتيبات ما بعد الحرب التى توصلت إليها الدول الأوروبية ، فأقامت بريطانيا دولا وعينت حكاما ، ورسمت حدوداً جديدة ، وأجلست بريطانيا فؤاد الأول على عرش مصر عام ١٩٢٢، وجعلت مصر قبلها محمية بريطانيا مستقلة باعلان اللنبى، وأنشأت محمية العراق بموجب معاهدتها التى عقدتها فى ذات العام ، وأجلست على عرشه مرشحها فيصل ، وبمقتضى أحكام الانتداب على فلسطين عام ١٩٢٢ وضع شرق الأردن على الطريق

ليشكل وجوداً سياسياً ، ووضع الأمير عبد الله على رأسه ، أما فلسطين فقد وعد اليهود بوطن قومي ووعد غير اليهود بحقوق كاملة .. (!)

ويؤكد الكاتب الأمريكي أن هذه التقسيمات جاءت مصطنعة ، ولم يلبث أن عم الاضطراب هذه المناطق ، وكانت البداية ثورة ١٩١٩ في مصر وثورة العشرين في العراق وانتقلت الاضطرابات إلى أفغانستان وإيران وتركيا .

وقيام هذه الدول كان أحد نتائج صراع القوى الكبرى ، فالعراق والأردن اختراعان بريطانيان ، وأقيمت حدود السعودية والكويت والعراق من قبل موظف مدني عام ١٩٢٢ ، ورسمت فرنسا الحدود بين سوريا ولبنان ..

ويخلص الكاتب من ذلك إلى أن سيطرة الدول الأوروبية أدت إلى تدمير البنى الأساسية التي كان يعيش في ظلها الأهالي ، وإقامة بنى أوروبية جديدة . ولكن السؤال الملح هو : هل يحدث في الشرق ما حدث في أنحاء العالم الأخرى من الأخذ بهذه النظم وما تحدثه من أثر عميق ودائم .. ؟ وأهمية هذا السؤال ليس فقط لأن الشرق منطقة حضارات قديمة عريقة يفخر بها أصحابها ، وله

معتقدات عميقة الجذور ، بل لأن التغييرات الجذرية التى اقتحمت حياة الشرق تحتاج إلى أجيال متعاقبة قبل أن تضرب بجذورها فى الأرض ..

فقد صاغ السياسيون الغربيون النظام الجديد ، ونشروا الجنود والطائرات في مساحة تمتد من مصر إلى العراق ، وسقط الحكم التركى للشرق ولم تتوقف المعارضة المحلية ولا الرفض العميق لهذه النظم ، ويعانى التقسيم الجديد منذ اللحظات الأولى لقيامه من التناقض والاضطراب ، فمثلاً لم تكن الحكومة البريطانية راضية عن اختيار كيتشنر بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٦ ، رعايته الهاشميين كزعماء للشرق العربى ، ومع حلول عام ١٩١٨ أخذ البريطانيون يعتبرون الشريف حسين عبئاً عليهم ، فهو يدفعهم إلى صراع خاسر مع ابن سعود ، ومع حلول عام ١٩١٩ ، أخذوا ينظرون إلى فيصل ابن الحسين حاكم العراق باعتباره غادراً وإلى عبد الله حاكم الأردن باعتباره غير فعال ، وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى اضطر مجلس الوزراء البريطانى للاعتراف بأن سياسته اختلفت فى شبه الجزيرة العربية ، نتيجة الخصومة بين حليفى بريطانيا الحسين ملك الحجاز وابن سعود

سيد نجد ، واشتكى الحسين من أنه مضطر لانفاق ١٢ ألف جنيه شهريا من المساعدة البريطانية التى يتلقاها فى سبيل الدفاع عن نفسه من هجمات يشنها عليه ابن سعود الذي يتلقى بدوره مساعدة تبلغ خمسة آلاف جنيه شهرياً .

وتتغير السياسات وتتبدل المواقف ويستخلص الكاتب .. «تطرح الأوضاع فى الشرق الأوسط حق الوجود لبلدان قامت كالعراق واسرائيل والأردن ولبنان ، لذلك لا يزال الشرق الأوسط حتى اليوم، المنطقة التى تشهد حروبا من أجل البقاء ... وتستمر المقاومة للسياسات الغربية وتشكل خاصية تميز هذه المنطقة نتيجة غياب الإحساس بالشرعية من جانب ، وغياب قواعد اللعبة السياسية المتفق عليها من جانب آخر .. فالشرق الأوسط منطقة لبلدان لم تصبح أمما بعد ، وربما أصبح الشرق الأوسط شبيهاً بوضع أوروبا فى القرن الخامس الميلادى ، عندما انهارت سلطة الامبراطورية الرومانية ، ودخلت الامبراطورية فى خضم صراع حضارى طويل ، حتى انبثق من هذا الصراع نظام سياسى جديد ..»

وهـذه الفقـرات التى نقلتـهـا عن الكاتب بنصـهـا تعبـر عن الرسالة التى يحملها كتابه ، وهى هشـاشة النظام العربى وقابليته للتغيير ، وهى أخطر ما يتضمنه كتابه ، مما يفرض على العقل العربى استخلاص عبر الماضى ودروسه ، ومعـالجة طبيعة العقبـات التى توجه إلى هذا النظام من موقع وطنى يحرص على مستقبل أهله .

القومية والدين

وإذا كان الشرق الأوسط يواجه احتمالات التغيير التى يتوقعها الكاتب ، فما أجدرنا بقراءته ، لكى نتأمل كيف فعلها الغرب ، وأعاد رسم خريطة المنطقة .

يقف إلى جانب فكرة الكاتب المحورية ، تفاصيل كثيرة يجدر تأملها ، ولعل أهمها تراوح السياسة البريطانية بين تأييد فكرة انتقال الخلافة العثمانية إلى العرب أو إقامة الدول الجديدة فى المنطقة على أساس الفكرة العربية .

وهنا يلاحظ عدم اهتمام بريطانيا بمضمون الأفكار المطروحة ، وتركز اهتمامها على مصالحها ، وتصبح الأفكار لديها أداة فعالة

للانقسام والتناحر ، وهذه المرحلة التاريخية تزخر بالمراوغة والخداع والوعود الكاذبة ، والعرب سكان المنطقة ليسوا بشراً كغيرهم بل أشباحاً بلا ملامح أو مطامح أو أهداف ..

بل ولم تكن السياسة البريطانية قائمة على خطة استراتيجية ، إنما على سياسات آنية تتغير بتغير الأحوال ، ولم تكن القضية العربية أكثر من واجهة تأمل بريطانيا أن تحكم من خلفها .

ترتبط الخريطة الجديدة القديمة للشرق الأوسط باللورد كيتشنر ، الذى رسم الخطة الرئيسية للاستيلاء على دول الشرق الأوسط ، وأمسك بكل خيوط المسألة ، فهو صاحب الحرب المنتصرة ضد الثورة المهدية فى السودان ، وهو الذى حكم مصر .. «البلد الذى كان جزءاً من الامبراطورية العثمانية من وجهة النظر الرسمية ، ولكنه واقعيا كان بلداً مستقلا حتى احتلته بريطانيا مدعية أن هدفها هو إعادة النظام ثم ترحل ، ولكنها بقيت ولم ترحل ..».

واستمر حلمه - حتى وهو وزير للدفاع خلال الحرب - أن يعود إلى مصر من جديد ، فكرته الأساسية التى سعي لتنفيذها أن لبريطانيا مصلحة حيوية فى الاستيلاء على جانب كبير من

الامبراطورية العثمانية الناطقة بالعربية . حتى لا تستخدم الدولة العثمانية «الخلافة» فى تقويض مركز بريطانيا فى الهند ومصر والسودان ، خاصة وبريطانيا تحكم أكثر من نصف مسلمى العالم، وحتى تمنع الدولة العثمانية من إعلان الجهاد ضد بريطانيا، وكان يهدف إلى الهند ، يبدأ من جزيرة قبرص ثم الاسكندرون ويمتد إلى بلاد الرافدين ، وكان يخشى أن تسبقه روسيا وتستولى على هذه المناطق .

وشجع كيتشنر الشريف حسين على المطالبة بالخلافة . ولكن سرعان ما تضاربت السياسات وظهر الصراع بين السلطات البريطانية فى الهند ومصر من ناحية أخرى ، حتى لقد عاد الضابط السياسى ستورز - كما برهن الكاتب - وحذف من مذكراته ما جاء عن الخلافة فى برقية كيتشنر إلى الحسين عام ١٩١٤ ، وأدعى لورانس أن المكتب العربى آمن بالقومية العربية منذ البداية .

العباءة الخضراء

ولا يفوت الكاتب فى دراسته الأعمال الأدبية التى تعبر عن صورة العرب فى المخيلة الغربية ، وأبرز هذه الأعمال رواية «العباءة الخضراء» التى صدرت عام ١٩١٦ لمؤلفها البريطانى

جون بوتشان .. وقد عبرت هذه الرواية عن المخاوف من اشتعال حرب دينية ويتخيل استخدام المانيا «نبى جديد مزيف» في خطة تدمير الإمبراطورية البريطانية ، وينتقل هذا النبى إلى تركيا .. «ثمة ريح جافة تهب عبر الشرق ، والهشيم في انتظار شرارة ، وهذه الريح تهب فى اتجاه الحدود الهندية .. » وتقول الرواية فى الفصل الثانى « .. إننا الجنس الوحيد الذى يستطيع تدريب رجال قادرين على النفاذ إلى ما وراء جلود شعوب نائية ، وربما يكون الاسكتلنديون أفضل من الانجليز ، ولكننا جميعاً أفضل ألف مرة من أى جنس آخر ..»

والسمة العامة لأدبيات هذه المرحلة التاريخية ، سوء الفهم والمراوغة والخداع ، يكتب الصحفى البريطانى جورج ستيفنز عن العربى قائلاً .. «ابن الاكاذيب الغامض» ويقول مبعوث الرئيس الأمريكى عن المخططات البريطانية « .. هذه خطة كلها سوء تجعل من الشرق الأوسط مكانا للقتال والحرب في المستقبل ..» .. «وكانت الشعوب والبلدان موضع مقايضة تنتقل من سيادة دولة إلى أخرى وكأنها سلع أو بيارق ، ولم يتحقق شئ لمصلحة الأهالى ، إنما من أجل تهيئة الأجواء للتوفيق بين مطالب دول متنافسة .. !!

سقوط الأوهام !

ونتوقف قليلا عند عدد من الشخصيات التى يزيح عنها الكاتب الستار والتى لعبت أدواراً مهمة فى ولادة الشرق الأوسط ، وأول هذه الشخصيات هو لورانس ، والشخصية ذات الأفق الكاذب ، الذى لم يكن الصدق من فضائله ، ويكشف الكاتب الأمريكى سر الأسطورة الكاذب ، والذى لم يكن أكثر من شخصية مصرية صنعها كاتب موهوب وطموح ، فبفضل جهود أمريكى اسمه لويل توماس ، وهو مقدم عروض ناشىء فى الخامسة والعشرين طموح يبحث عن الشهرة والثروة خلال الحرب العالمية الأولى ، فسافر إلى جبهة القتال باحثا عن قصة تصلح لعمل مسرحى ، فالتقى بلورانس وهو يرتدى اللباس العربى ، فقرر أن يجعل منه بطله المنشود لقصة مثيرة تكون الأساس لعرض مسرحى يمكن تسويقه وذيوعه ، وقدم فى العمل كل عناصر الأسطورة ، لورانس قائد وملهم ثورة عربية تدمر الامبراطورية العثمانية ، وكتب لهذا العرض النجاح والانتشار ، وعرض في نيويورك علي مسرح سنيشري ، ونقل إلى حديقة ميدان ماديسون ، وحقق نجاحاً كبيراً انتقل بعده إلى لندن ، واستمر يعرض بها لمدة ستة أشهر ،

وشاهده ما يزيد على مليون مشاهد ، ثم طاف بالعرض حول العالم ، وخلقت الأسطورة ، وصدقها حتى صاحبها !!

عزيز المصرى

ويقدم الكتاب عزيز المصرى فى صورة جديدة ، وينال من صورته القديمة كثائر عربى لا يهدأ ، والصورة التى يقدمها مازالت تحتاج إلى الدراسة وإلى البحث والتأمل .

يدعى الكتاب أن عزيز المصرى كان على علاقة وثيقة ببريطانيا ، وعندما أصدر أنور باشا أمرا بسجنه عام ١٩١٤ ، توسط اللورد كيتشنر للعفو عنه وتم له ذلك واعتبره الانجليز حليفا .

ويبدو من السجلات البريطانية أن عزيز المصرى زار مقر المعتمد البريطانى فى القاهرة فى سبتمبر عام ١٩١٤ ، والتقى بكلايتون ضابط المخابرات البريطانية ، ونقل إلى كلايتون أن عبدالعزيز آل سعود وغيره من زعماء الحرية العربية يفكرون فى الثورة على الباب العالى .

ثم .. جرى إتصال آخر مع عزيز المصرى حول إشعال الثورة العربية ، وعلى أثره سافر المصرى إلى الحجاز واشترك فى

قيادة قواتها ، وقبلها اقترحت القاهرة إرسال عـزيز المصرى فى حملة لتنظيم التمرد والثورة فى بلاد الرافدين (العراق) ورفضت السلطات البريطانية فى الهند .

ويروى لقاء تم عام ١٩١٨ فى مدريد بين عزيز المصرى والسفير البريطانى ، وكتب السفير فى تقريره أنه تلقى من المصرى اقتراحاً بتنظيم الإطاحة بأنور وطلعت فى القسطنطينية ، على أن يعاد تنظيم الامبراطورية العثمانية على قاعدة الفيدرالية وأن يعرض الحكم الذاتى على العرب .

ماذا بعد استعرضنا الكتاب الذى يروى قصة ثمانى سنوات شكلت دول الشرق الأوسط بحدودها الحديثة .. ؟ ، ألا يحق لنا أن نتساءل : هل يمكن أن تفرض خريطة جديدة على المنطقة دون العودة إلى دولها وأهلها .. ؟!

وألا يفرض ذلك على الفكر العربى ومؤسساته المبادرة ، بوضع معالم المستقبل ، ومواجهة العالم بفكر موحد ، وحتى يصبح العرب طرفاً فاعلاً ، فى صنع الحاضر والمستقبل .

فلم يعد مقبولا أن يكتفى «الفكر العربى» بنقد الغير عاجزاً عن المبادرة وسط الفجوة بين الأفكار المجردة والوقائع القائمة ، حائراً

بين موازين القوى السائدة والشعارات والأهداف المطروحة . كما كان عليه الحال فى عشرينات هذا القرن .

ويثير الدهشة تجاهل الجامعات ومراكز البحث هذه القضية ، وكأنه كتب علينا أن يصنع مستقبلنا غيرنا ، ولعل جامعة الدول العربية هى الإطار العربى المؤهل لبحث احتمالات المستقبل وحتى تقوم إرادة عربية معتدلة وعقلانية ، لا تكون خطواتها قفزات فى الهواء ، ولا تضع العصى فى العجلات ، إنما تطرح أفكاراً واقعية تتلاءم مع موازين القوى فى المنطقة والعالم ، وتحافظ على المصالح والهوية الحضارية العربية .

وتجد نقطة لقاء وتوافق بين الأهداف الوطنية والاتجاهات العالمية ، وتستغل آخر نقطة فى المساحات القائمة بين المصالح الوطنية للعرب وقواعد العصر الذى نعيش فيه .

اسرائيل
والقرن الحادى والعشرين

هل تنتصر العلمانية فى إسرائيل ؟! أم أن الحكاية مجرد فصل فى الصراع بين الأصوليين والعلمانيين ؟.. وهل يمكن أن تتداخل معركة علمانية الدولة مع التسوية السياسية فى المنطقة ؟

وربما نجد فى الكتاب الذى صدر أخيرا جانبا من الإجابة ..

شغل مستقبل اسرائيل العديد من الباحثين . الذين لم يكتفوا برصد الواقع الراهن فقط ، بل امتد بصرهم الى المستقبل ، ومن الدراسات الحديثة والزاخرة بالمعلومات ، كتاب «الدولة اليهودية» قرن مقبل، كتبه ألان دوتى Alen Douty الذى انقسمت حياته بين اسرائيل والولايات المتحدة..

وأهمية الكتاب تأتى فى تلك الصورة التى يقدمها لاسرائيل من الداخل، والضوء الذى يلقيه على الانقسام الحاد الذى يصل الى الانغلاق الكامل داخل المجتمع اليهودى، بين التيار الاصولى من جانب والتيار العلمانى من جانب آخر ، والصراع المرير الذى

يجـرى بين الـداعين الـى الانـدمـاج فى العـالم المعـاصـر وأولئك المتمسكين بالحفاظ على الخصوصـية اليـهودية ويقدم رصـدا دقيـقا للأزمـة المجـتـمـعيـة التـى تعيـشـهـا اسـرائيل، وتشكلت الدراسـة فى قالب البحوث عن مستقبل الديقراطية ، ومـاتواجـهه الديمقراطية من عقبات، ومـا أحوجنـا حقـا الـى مـعرفة اسـرائيل من الداخـل معـرفة متجددة وواقـعية وبلا أوهـام . .

ومنذ قيـام اسـرائيل ويدور الصـراع حـول إمكانيـة فـصـل الدين عن الدولة ، فـبعد أن هـاجـر اليـهود المتدينـون الى فلسطين ، أرض الميعـاد ، يسـعون من أجل حياة يـهودية خـاصـة ، وجـدوا أنفسـهم وسط دولة يجاهر حكامها بالإلحاد..

ويتـسـاءل الكـاتب .. هـل يمكن أن تكون اسـرائيـل يهـودية وديمقراطية معا ..؟

فـاليهودية عند البعض منافيـة للديمقـراطية ، وأنه بقدر يـهودية الدولة بقـدر عـجـزهـا على أن تـكون ديمقـراطيـة، وأنه لا يـجـوز أن تستند إلى قـانون علمانى بل ينبـغى أن تعلـو الشـريعة الالهـية على القواعد والقوانين والمؤسـسـات البشـرية ، كمـا نصت عليه التـوراة (٢٣) سفـر الخروج ..

«لا تتبع الكثيرين الى فعل الشر ، ولا تجذب فى دعوى مائلا وراء الكثيرين للتحريف .. ويؤخذ هذا النص حجة فاصلة ضد حكم الأغلبية ..

وبلغ التعصب والانقسام ذروته في نوفمبر ١٩٩٥ ، عندما أطلق أحد المتشددين اليهود النار على رئيس الوزراء اسحق رابين، احتجاجا على التفريط في أرض اسرائيل .

ويمكن رصد تنامي قوة الأصوليين من خلال مؤتمرات انتخابات الكنيست الاسرائيلى . ففى انتخابات ١٩٩٢ و ١٩٩٦ حدث تصدع واضح فى التيار الرئيسى فى اسرائيل وحقق حزب العمل والأحزاب اليسارية أغلبية ضئيلة وهى التى كانت تهيمن على الحياة السياسية فى إسرائيل منذ قيامها وحصلا معا على ٦١ مقعدا، وفى أول انتخابات مباشرة لرئيس الوزراء سنة ١٩٩٦ حصل نتانياهو على ١٪ من الاصوات المرجحة ووقفت اسرائيل المدنية وراء بيريز واحتشدت اسرائيل الأصولية خلف نتانياهو ، وهى الأكثر فطرية وخصوصية وطائفية وتدينا ومحافظة وتشددا، وتراجعت اسرائيل المدنية وهى الأكثر عصرية وليبرالية وميلا الى السلام (!) .

كما أن اسرائيل التقليدية الأصولية عاطفية ، واسرائيل المدنية عقلانية . وهوية اسرائيل الاصولية هى العرقية اليهودية، أما اسرائيل المدنية فالمواطن اسرائيلى أولا ثم يهودى بعد ذلك ويستدرك الكاتب قائلا : وليست هذه الحالة مُطلقة ، فالحياة الواقعية تمتلىء بالتناقضات فهناك فى اسرائيل حمائم متدينون وصقور علمانيون ، وتقليديون من أصول أوربية وأناس لهم نزعات عربية من أصول شرقية ..

ويعود الاستقطاب للظهور فى انتخابات الكنيست عام ١٩٩٦ وخسرت الأحزاب اليسارية الاغلبية الطفيفة التى حصلت عليها من ٦١ مقعدا الى ٥٢ مقعدا وخسرت فى ذات الوقت أحزاب اليمين تسعة مقاعد من ٢٣ مقعدا الى ٣٤ مقعدا ، وظهر فريق جديد بزعامة المنشق السوفيتى ناثان شارانسكى والذى يميل الى التشدد .

وهنا يثور السؤال التالى .. أيهما أكثر صعوبة ، الاتفاق بين الفرقاء داخل اسرائيل اى بين الأصولى والعلمانى هل ذلك أسهل أم أن الاتفاق بين العرب وإسرائيل أسهل ؟!

ويرى العديد من الباحثين الإسرائيليين أن الاتفاق الداخلى أكثر صعوبة (!) وترسم البحوث صورة قائمة للصراع الداخلى الحاد، الكارثة الوشيكة الوقوع والتى تهدد وحدة اسرائيل ، فمطالب الاحزاب الدينية قد تكون خطيرة بنفس القدر لخطورة المطالب العربية ، فالجماعات العربية اكثر استعدادا للتفاهم بشأن مطالبها من الاحزاب الدينية التى لم تظهر يوما أى استعداد للتفاهم !.

فقد بدأ الرد الأصولى على الحداثة فى الرفض الكامل للعالم المعاصر والدعوة الى العودة الى الماضى والتمسك بالجذور ، وبدلا من أن يصبح الإسرائيليون أمة كغيرهم من الأمم» ! اخذوا ينظرون الى ذواتهم على أنهم «هو ذا شعب يسكن وحده ، كما جاء فى التوراة فى سفر العدد» «آية ٢٣» ، واخذت اسرائيل تنتقل من العلمانية العقلانية المدنية الى اتجاه صوفى غيبى وأخذت بالتالى تتقهقر ، وشهدت إعادة تأكيد للديانة اليهودية بعد فاصل زمنى يغلب عليه موجة أيدلوجية علمانية أخذت بعد ذلك فى الانحسار .

ومن مظاهر ذلك ، تدعيم الدراسات الدينية اليهودية فى جميع المدارس، واقتصارها على الشئون الخاصة، فاسرائيل مازالت متخلفة عن الكثير من الدول فيما يتعلق بالمساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة - مازال الحديث للكاتب اليهودى - وانخفض تمثيل المرأة من الكنيست بصورة متتابعة حصلت على اثنى عشر مقعدا عام ١٩٤٨ وثلاثة عشر مقعدا عام ١٩٥٥ ثم هبط الى سبعة مقاعد عام ١٩٨٨ وثمانية عام ١٩٩٦ (أعد الكتاب قبل ظهور نتائج الانتخابات الأخيرة) .

وانتعشت ثقافة يهودية من شبكة مدارس دينية، هى التى أمدت التنظيمات المتطرفة بعناصرها . مثل جوش ايمونيم (وهو التنظيم الارهابى الذى أقامه الحاخام كاهانا القادم من بروكلين ، والتى تأسست عام ١٩٧٤ بهدف استيلاء اسرائيل على كامل أرض فلسطين من خلال التوسع فى الاستيطان ، والذى يعود لأحد عناصرها المذبحة التى شهدها المسجد الإبراهيمى عند الفجر) ، والمساواة بين البشر لدى هؤلاء غير ممكنة والديمقراطية لديهم مستحيلة ، وعلى العرب أن يختاروا بين العيش دون حقوق أو الرحيل !...

ويمضى الكاتب قائلا .. يلاحظ مايرون أرتوف .. ان الانقسام في اسرائيل يقوم حول تفسيرات متعارضة ، بشأن ما يجب أن يكون عليه الطابع اليهودى لاسرائيل والاستقطاب الذى يضم عند أحد طرفيه الذين يؤكدون ضم واستيعاب الضفة الغربية ، قلب اليابسة التوراتى القديم ، بين من يرون أن ذلك سيهدد الطابع اليهودى والديمقراطى للدولة، ويجعل الصراع والحرب فى الشرق الاوسط امرا حتميا ويؤكد المنهج الاول على تفرد الشعب اليهودى وعزلة إسرائيل بينما يدعو التوجه الثانى الى تطبيع ودمج الدولة اليهودية فى العالم المعاصر كمنارة وسط الظلام ! .

ويرتبط هذا الانقسام بانقسام طائفى أخر بين الاشكيناز والسفارديم ، أى بين اليهود ذوى الخلفية الاوروبية واليهود القادمين من الشرق ، كما يرتبط أيضا بانقسام بين اليهود المتدينين وغير المتدينين ، ومن انقسام عرقى ثالث بين اليهود والعرب ..

تآكل الصهيونية

ويزعم الكاتب تآكل الصهيونية بعد أن حولت اليهود من مجرد دين إلى دين وسياسة ، ويغفل الكاتب هنا البعد الدينى العميق،

فإن كان الأباء المؤسسون ذوو الاصول الاوروبية تأثروا بالمفاهيم الليبرالية إلا أنهم سعوا لاستخدامها من أجل الوصول الى أهداف دينية بعيدة عن الليبرالية ..

ونعود الى ما قاله الكاتب .. يؤكد أن الجيل الجديد من الشباب في اسرائيل أكثر ميلا للسلام من آبائهم ، وأخذت تتناقص الفجوة التي كانت قائمة بين نخبة اشتراكية علمانية تنتمي إلي أوروبا ، وجمهور اكثر تقليدية جاء من الشرق، أي الاشكناز والسفارديم ؛ ويقف الشرقيون مع الدولة الدينية والاشكناز مع العلمانية . ومن المفارقات أن حرب ١٩٦٧ ساهمت في تقويض حزب العمل العلماني (!) . الذي كان يهيمن بلا منازع على الحياة السياسية في اسرائيل ، عندما تراجع التهديد الخارجي وأدى الى عدم الحاجة للوقوف خلف الحكومة، وجاء رحيل الرئيس المصري جمال عبد الناصر في سبتمبر عام ١٩٧٠، لكي يزيد الشعور بالامن والانحسار التهديد داخل اسرائيل . كما شكل أبناء اليهود القادمين من البلدان العربية وهم قرابة نصف الناخبين . الذين لا يرون أي اجحاف او ظلم في استمرار خضوع الفلسطينيين في الضفة الغربية للسيطرة الإسرائيلية ، وظل الكثيرون متمسكين بادعاء حق اليهود في كل أرض فلسطين .

ويعبر أفنير بانيف عن بعد آخر حيث اقتحم الصورة بالقول ..

«أنقذت حرب ١٩٦٧ الشبحين التوأم ، التطرف اليهودي والشخصية الفلسطينية» ثم تأتي اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل وتزيد الشعور بالأمن وتضعف تماسك الطرفين المتصارعين ..

وتتغير الخريطة السياسية تغيرا جوهزيا مع قيام الانتفاضة الفلسطينية سنة ١٩٨٧ ، وتصاعدت المطالبة بتسوية سياسية . انتهت هذه الحاجة أو كادت بعد وقف الانتفاضة .

الدين والدولة

وبقيت العلاقات بين الاصوليين والعلمانيين ذات حساسية خاصة، لافتقار العلمانيين الي دعم فكرة فصل الدين عن الدولة فليس فى التقاليد اليهودية فصل الدين عن الدولة فترتكز اليهودية علي مجموعة من القوانين مأخوذة من الوصايا العشر .

وهناك ١٤ ديانة تعترف بها الدولة ، فإلي جانب الإسلام والمسيحية يوجد البهائية وطوائف دينية مسيحية وإسلامية مختلفة.

ودأبت الحركة الصهيونية منذ بدايتها على إقامة مؤسسات ثقافية ثنائية. بعضها دينية وبعضها غير ذلك، ومنذ البداية وبعد

قيام اسرائيل عارض الحزب الدينى أجودات اسرائيل صياغة دستور لاسرائيل (وأيد ذلك السياسيون الليبراليون لكى تبقى احتمالات التوسع الإسرائيلى قائمة) كما عرض قيام دولة يقوم الحكم فيها على الاغلبية لأن معنى ذلك التنكر لحكم التوراة، كما عارض هذا التيار استخدام الرموز الوطنية مثل العلم الإسرائيلى، وعارض التحاق شبابهم بالخدمة العسكرية ، وانسحب الحزب الدينى من الحكومة بسبب التجنيد الاجبارى للنساء .

واستمر الخلاف مع التعايش بين التيارين.. فتحمى الدولة تماما منع العمل يوم السبت ، يقوم الحاخامات بزواج وطلاق اليهود ، وتجاهلت الحكومة فى ذات الوقت تطبيق القوانين التى من المرجح أن يؤدى تطبيقها الى رد فعل عنيف، فلم يحدث فرض حظر على لحم الخنزير ، وتركت أماكن الترفيه تعمل يوم السبت.. رغم مخالفة ذلك نصوص القانون .

واخذت الاحزاب الدينية تقايض على مواقفها السياسية فى الحصول على دعم الحكومة لأهدافها ، مثل زيادة الانفاق على المدارس الدينية رغم انفصالها عن الحكومة فإذا كانت الاهداف بعيدة المدى بين الاصوليين والعلمانيين متعارضة إلا ان مستوى

الشعور المتبادل بعدم الرضا متعادل ، ويدور الصراع بينهما حتى فترة قريبة، وكأنه مجرد مناوشات على الحدود وليست حربا شاملة. ونجح العقل الجمعى فى توظيف جميع ألوان الطيف من أجل مستقبل اسرائيل، وها هى المحكمة العليا فى اسرائيل ، وها هى ذى تحدد مدى أهلية الاحزاب الاسرائيلية وحقها فى دخول الانتخابات ، بأنها الاحزاب التى تقبل اسرائيل كدولة يهودية ، وأن تحتفظ بأغلبية يهودية ، وتؤيد قانون العودة الذى يعطى الحق لأى يهودى من أى مكان فى العالم فى الحصول على الجنسية الاسرائيلية عندما تطأ قدماه أرض فلسطين ، كما يجب عليه أن يؤيد وجود علاقات مع اليهود خارج اسرائيل ..

ويظل تعريف من هو اليهودى . مسألة خلافية كبرى ، وقضية بالغة الأهمية ، وهى أكثر القضايا التى يحتمل انفجارها بين الطرفين ، والغريب ما أعلنه زعماء اليهود المدنيين أن السلام وانقاذ الارواح يأتيان قبل الاستيلاء على الارض والاحتفاظ بها .

ومن جانب آخر فرغم عدم شرعية الاستيطان فى الاراضى المحتلة نجد أولئك الذين يدعون الليبرالية يغضون الطرف عن

التوسع السرطانى للمستوطنات ، وهنا يظهر واضحا القدرة علي توزيع الادوار والتناغم بين المتناقضات لتحقيق الاهداف الاسرائيلية ، وهو ما لم ينجح فيه العرب .

وينقل الكاتب عن جوناثان فرانكل قوله .. أعاد الاحتلال سياج الاستيطان المزعج الذى كان قائما فى القرن الماضى فى روسيا القيصرية ، عندما كان اليهود يعيشون غير آمنين ، وسط سكان معادين، مما يحول الحلم الصهيونى الى كابوس.

ديمقراطية اسرائيل

والعلاقة وثيقة بين ديمقراطية اسرائيل وعلمانيتها .

ويردد المجتمع أن اسرائيل هى الدولة الديمقراطية الوحيدة المحاطة بدول استبدادية عشائرية وطائفية ، فماذا يقول الكاتب عن الديمقراطية فى اسرائيل .

يقول .. أحد أسباب الديمقراطية الناقصة ما تواجهه اسرائيل من تهديدات أدت الى تماسكها الداخلى وليس فقط لوجود أقلية كبيرة منتمية عرقيا الى عدو خارجى فحسب (!) بل ووجود انشقاقات طائفية ودينية وأيدولوجية عميقة داخل اليهود انفسهم ، والوحدة الشكلية التى ظهرت بعدم قيام الدولة، يفرضها الصراع

العربى الاسرائيلى ، الذى لولاه لمزقت اسرائيل ذاتها بالنزاعات الداخلية ..

وإذا كانت ركائز الديمقراطية تقوم على الحريات العامة.. فبالنسبة لحرية النشر تقيد وسائل الإعلام عند تعرض مصالح الدولة للخطر، أو عندما تسوء صورة الدولة لدى الاغيار ، وهو جزء من الانغلاق التقليدى للمجتمع اليهودى واهتمامه بصورته . مع الحساسية الخاصة لنشر المعلومات الأمنية.

ولا يمكن لأحد ان يصدق ديمقراطية اسرائيل. إذا عرف منذ قيام إسرائيل وحتى اليوم وهى تعيش فى ظل قانون الطوارىء الذى صدر بعد اربعة ايام فقط من قيامها فى ١٩ مايو سنة ١٩٤٨ ، واكثر احكام قانون الطوارىء تطبيقا هى الرقابة على كل أجهزة الإعلام ، وتنص قوانين الرقابة على ضرورة الحصول على ترخيص إصدار من وزارة الداخلية ، ولا يلزم القانون وزارة الداخلية بتبرير رفضها ، كما أنه حق وزير الداخلية وقف إصدار الصحف لأى فترة زمنية ، وتراقب قبل النشر اى مادة مطبوعة تمس الأمن أو النظام العام ! .

ومن غرائب الرقابة انه أحيانا لا يسمح للصحف العربية التى تصدر فى اسرائيل بإعادة نشر مواد مترجمة عن الصحف العبرية.

ويورد الكاتب توصيف اموس اليون لهذه ا لحالة ، بأنها.. تصميم ساذج على عدم الكشف عن الخفايا والفضائح وهو المأخوذ عن الوصية التوراتية.. لا تبح بها فى حشد ، ولا تنشرها فى شوارع عسقلان .. وهو القول الذى يطابق ما صرح به رفائيل إيتان احد رؤساء اركان حرب الجيش الإسرائيلى .. ينبغى عدم نشر وسائل الإعلام اى شىء يؤدى الى شعور أى عربى فى أى مكان بالارتياح ! .

وأحد ركائز الديمقراطية المساواة المطلقة بين المواطنين ، هو مالم يتحقق يوما داخل اسرائيل ، فلم يتمتع عرب ١٩٤٨ بالمساواة، رغم أن هذه المسألة تعتبر بمثابة الاختبار الحاسم لقيام مجتمع علمانى، ومع أن اليهود شكلوا أقليات فى كثير من بلدان العالم، وها هم يتحولون الى الاغلبية ويمارسون العسف ويصبحون طغاة ويتناول اسرائيل شاحاك ذلك فى كتابه «موقف اليهود من الاغيار» يقول .. التاريخ المعروف تعرض لحذف الحقائق

اليهودية الموجعة ، فالخصوصية العرقية اليهودية تنطوى على الشك والعداء لغير اليهود وهى تجنح بطبيعتها للعزلة، لذا كانت الكيبوتزات وبعدها المستوطنات مؤسسات عنصرية مغلقة .. وفى التراث التلمودى علاج غير اليهودى حرام حتى مقابل أجر ، ويجب عدم دفع الاغيار إلى البئر وأيضا عدم اخراجهم منه إذا سقطوا فيه .. ذلك يعلن أتباع غوش ايمونيم .. أن طريقة معاملة الفلسطينيين تتعلق بمقدار قوتهم .. إذا كانت لديهم قوة كافية فإن الواجب الدينى يقضى بطردهم .. !

ويضيف فى كتابه «التاريخ اليهودى»

.. إن القوانين الاسرائيلية تتسم بالتفرقة العنصرية ضد غير اليهود . فى مجالات ثلاثة حقوق الإقامة وحق العمل وحقوق المواطنة ، ويقف على قمة الهرم فى المجتمع اليهودى اليهود الغربيون الاشكناز يليهم الشرقيون (السفارديم) ويأتى عرب اسرائيل فى قاعدة الهرم ..

ونعود الى كتاب آلان دوتى الذى يقول : رغم أن إعلان الدولة تضمن وعدا بالمساواة لكل المقيمين بصرف النظر عن الديانة أو العرق أو الجنس ، إلا أن ذلك لم يتحقق ، ويبدو أن من أصدره لم

يدرك احتمال وقوع تضارب بين هذا الوعد وبين رسالة اسرائيل نحو الشعب اليهودى .

واعتبر غائبا كل فلسطينى غادر بيته قبل اغسطس ١٩٤٨، وصودرت ثلثا الاراضى الفلسطينية ، وحرم القانون سكن مدن بكاملها لغير اليهود وغدا عرب ١٩٤٨ لدى اليهود «الطابور الخامس» و «حصان طرواده» ، وأغلقت المؤسسة العسكرية فى وجوههم ، وتولى الإشراف الادارى عليهم مستعربون من أجهزة الأمن أو المخابرات وطردهم من بعض أراضيهم بحجة انها مناطق استراتيجية ، وتم ترحيل العرب من مدينة عسقلان عام ١٩٥٠ ورفض الهستدروت قبول العرب كأعضاء كاملى العضوية حتى عام ١٩٥٩ ، ومازالت أغلبية اليهود لا يستقبلون زائرا عربيا فى بيوتهم ولا يرغبون فى السكن جوارهم ..

ورفضت السلطات الإسرائيلية الاعتراف بالاقلية العربية كجماعة وعارضت قيام أجهزة إعلام أو جامعات أو اتحادات أو أحزاب عربية مستقلة ، ووظفت اسرائيل ما تدعيه من تهديدات خارجية من أجل الحفاظ على تماسكها الداخلى، وجاء وجود أقلية عربية منتمية الى العدو لكي يقلل من أثر الانشقاقات الطائفية

والدينية والايدولوجية ، وإلا لمزقت اسرائيل نفسها نتيجة عنف الصراعات الداخلية .

وشهدت أوضاع العرب تغييرات واسعة مع عدم الاستعداد لاقتسام السلطة بين اليهود والعرب ، إلا أن وصل أعضاء عرب الى الكنيست فى انتخابات عام ١٩٩٦ ، وصل عددهم الى أحد عشر نائبا عربيا .

ويستدرك الكاتب قائلا : لم تقم القوى السياسية العربية بدور اللاعب فى الحياة السياسية، رغم أن العلاقات بين اليهود والعرب، داخل اسرائيل هى الاختبار الحاسم لديمقراطية اسرائيل.

وطالب الروائى انطون شماس بوضع تعريف جديد لكلمة اسرائيل حتى تشملنى ، ورد عليه الكاتب اليهودى أ.ب يهو شوا قائلا : فى فترة المعبد الأول لم تكن الهوية الدينية عنصرا ضروريا للهوية الإسرائيلية ! .

المؤسسة العسكرية

ولنتوقف فيما يورده الكاتب حول سيطرة المؤسسة العسكرية على الحياة السياسية فى إسرائيل . ويؤكد غلبة «الأمن» على الديمقراطية ، وينطبق هنا المثل القائل وشهد شاهد من أهلها

ويكشف الكاتب انحسار المجتمع المدني وتزايد التأثير العسكرى على القرارات السياسية ، وشهد هذا التأثير منتهاه مع انتهاء سيطرة حزب العمل على الحياة السياسية سنة ١٩٧٧ ، واصبح للاتجاه السياسي لرئيس الأركان أهمية بالغة ، وقفزت ميزانية الجيش قفزة كبيرة بعد حرب ١٩٧٣ .

وجاهر مناحم بيجين رئيس الوزراء فى أغسطس ١٩٨١ بعد تولى شارون وزارة الدفاع بأن أول عمل سيقوم به هو تطويق الكنيست بالمصفحات وظهرت هيمنة العكسرية الاسرائيلية فى العدوان الاسرائيل على لبنان ١٩٨٢ . حينما نفذ شارون سياسته التى لم تكن سياسة مجلس الوزراء .

ويعنى الأمن عادة المزيد من الضغط على الديمقراطية ، وتشجيع مركزية السلطة والمزيد من التعصب فى العلاقات مع العالم الخارجى .

مما طبع سياسة اليهود التقليدية على سياسة الدولة العبرية، التى تجنح بطبعها وتجربتها التاريخية الى العزلة والانغلاق تجاه العالم الخارجى .

ويختتم الكاتب هذ الفصل بقوله ..

«بلغ التضاد بين الأمن والديمقراطية ذروته فى عدم الإقرار بالحقوق الجماعية للأقليات غير اليهودية ، ومن ناحية أخرى معروف بوجه عام أن التعبئة ضد عدو خارجى لا تتوافق مع الديموقراطية واستمرت اسرائيل مجتمع تحت الحصار وبقيت اسرائيل داخل الاسوار وتجنبت أن تكون بلا أسوار (!) الجيش هو المؤسسة المهيمنة على كل جوانب الحياة.

فأى مستقبل ينتظر الدولة العبرية ، ؟!

فلا يوجد سوى وسيلة واحدة لاستمرار احتلال اسرائيل للاراضى العربية هى أن تسلك ذات الدور الذى كان يقوم به النازى في الاراضى العربية، المحتلة وأن تلجأ للترحيل الجماعي او التطهير العرقى ، وهو ما لا يمكن القيام به فى هذا العصر الذى تحول إلى قرية صغيرة ..

وليس أمام إسرائيل سوى أن تستوعب دروس الحروب التى خاضتها ، والتى تكشف حدود القوة ، وخطر غطرسة القوة . ولن تكون ترسانتها النووية ولا قنابلها الانشطارية ، قادرة على فرض احتلالها ..

الباب الثالث

أمريكا وثقافة العالم

الإسلام في العقل الأمريكي

ليس لى فضل فى كتابة هذا المقال ..

فالفضل يعود إلى كتاب «أمريكا والإسلام» - « صراع الحضارات أم صراع المصالح » لكاتبه الباحث الأكاديمى د. فواز جرجس الأستاذ بجامعة سان لويس بنيويورك . حصلت عليه وتصفحته وتركته حتى تحين فرصة قراءته .

ويدور الكتاب حول العوامل المؤثرة في القرار السياسى الأمريكى تجاه الظاهرة الإسلامية ، في الفترة بين الرئيس كارتر وحتى الرئيس كلينتون .

ووجدته دراسة مهمة غنية بالمعلومات والأفكار ، وكأنه كتب بعد الأحداث الأمريكية المفجعة . مما يعطي قيمة كبيرة لمصداقيته .

إنه بحق الكتاب الوثيقة أو النبوءة التي لم يأخذ بها أحد .

لم يقتصر التعرف فى الكتاب على تلافيف العقل الأمريكى تجاه الإسلام ، على مجرد معرفة رأى الأكاديميين وحدهم ، ولا على ما تنشره أجهزة الإعلام ، وإنما ذهب إلى مكانة الإسلام والمسلمين فى مخيلة المواطن الأمريكى العادى .

ومن يتابع ما جرى بعد أحداث ١١ سبتمبر يصعب عليه أن يصدق ، تلك الإحصاءات التى أعلنها مكتب التحقيقات الفيدرالى «الا ف . بى . آى» عام ١٩٩٥ والذى يحصى العمليات الإرهابية التى تعرضت لها أمريكا ما بين عامى ١٩٨٢ و ١٩٩٢ ، أى خلال السنوات العشر، فقد تعرضت لاثنين وسبعين هجوماً إرهابياً من أبناء بورتريكو ، وثلاثة وعشرين هجوما لجماعات يسارية ، وستة عشر هجوماً لجماعات صهيونية ، واثنى عشر هجوماً من كوبيين مناوئين لكاسترو ، وست عمليات هجومية لمجموعات يمينية أمريكية ، هذا باستثناء عملية إرهابية واحدة فى مركز التجارة العالمى التى قام بها إرهابيون يدعون الإسلام .

كما يقدم مكتب التحقيقات الفيدرالى إحصاء بالعمليات التى تعرضت لها المصالح الأمريكية خارج الأراضى الأمريكية ، فقد وقع أربعة وأربعون هجوماً معادياً فى دول أمريكا اللاتينية عام ١٩٩٤ وحده ، أما فى الشرق الأوسط فقد وقعت ثمانى عمليات ، وفى آسيا خمسة وفى أوربا خمسة وفى أفريقيا أربعة ! ، فأين الإرهابيون المسلمون فى هذا كله .. ؟!

فصيحات المجابهة مع الصحوة الإسلامية سابقة عن أحداث سبتمبر ، ينادى بها عدد من الأمريكيين معظمهم من اليهود ، الذين يحثون أمريكا على القيام بعمل ما مثل ما سبق وفعل الغرب ضد الاتحاد السوفييتى ، ومن أجل احتواء هذه العقيدة «العدوانية» الجديدة ، فالتطرف الإسلامى واصل لا محالة إلى شواطىء أمريكا ، سواء عبر المهاجرين أو الزوار المسلمين (!) .

ويلاحظ الكاتب وجود العديد من الكتب والدراسات التى تتناول السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط ، ولكن لا توجد دراسة واحدة تدور حول العقل الأمريكى وتصوراته تجاه الإسلام والمسلمين . مع زيادة الحديث فى الإعلام والأوساط الأكاديمية عن الخطر «الأخضر» عقب القضاء على الخطر «الأحمر» الذى كان يمثل تهديدا استراتيجيا للغرب ، وبرزت المشاعر المعادية للمسلمين مع بروز الحركات الإسلامية النشطة التى تتحدى النظم القائمة فى البلدان الإسلامية والتى تتلقى المساندة من الغرب .

ويتناول الكاتب الصراع الذى يدور بين الحمائم والصقور داخل الإدارة الامريكية ، بين أولئك الذين يرون أن الإسلام يشكل تهديدا على المصالح الغربية ، وبين أولئك الذين يدركون طابعه

الحقيقى ، وإلى أى حد تلعب العلاقة التاريخية بين الحضارتين الغربية والشرقية فى اتخاذ القرار السياسى .

وينظر إلى هذه القضية من خلال ملابسات خاصة مثل أحداث الثورة الإسلامية فى إيران وأزمة الرهائن التى أعقبتها ، ثم ما وقع بعدها فى كل من بيروت والصومال .

ويطمح المؤلف إلى الذهاب أبعد مما يتناقله واضعو السياسة الخارجية ، ويبحث فى طبيعة المجتمع الأمريكى وهياكل اتخاذ القرار ، وتحليل المسائل التى تلعب دوراً مهما فى تفكير واضعى السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين .

ويبحث فى العلاقة بين القرار السياسي والفعل السياسى ، وهل تؤثر القيم والثقافة السائدة لدى المواطن حول الإسلام فى هذا القرار ، ومدى مساهمة هذه الثقافة فى صياغة السياسة الخارجية .

فإذا كان السياسى يضبط أقواله حسب مقتضى الحال إلا أن الأكاديمى وما يمتع به من حرية البحث يمكن أن يكون أقرب إلى العقل الجمعى الأمريكى تجاه الظاهرة الإسلامية .

المسلمون الطيبون !

وإذا كانت التصريحات الأمريكية العلنية بشأن الإسلام «المعتدل» هى تصريحات إيجابية ، وخاصة أيام إدارة كل من بوش الأب وكلينتون وتأكيدهما على دور الولايات المتحدة كجسر بين نظم وانساق حضارية مختلفة ، إلا أن القرارات السياسية لم تكن كذلك .

فالقراءة المتأنية تكشف عمق الخلافات حول السياسة الواجب اتباعها إذا وصل الإسلاميون إلى السلطة ، ويمكن القول إن النخبة الأمريكية تعتبر إن الإسلاميين الطيبين هم أولئك العازفون عن السياسة ، ومع أن القادة الأمريكيين يرفضون فكرة «صدام الحضارات» إلا أن السياسة الأمريكية بعد إنتهاء الحرب الباردة تبدو متأثرة بفكرة الخطر «الأخضر» .

وهكذا تتأرجح السياسة الأمريكية بين دعاة الواقعية ودعاة المبادىء ، بين دعاة التراضى والتوفيق وبين دعاة التصدى وضرورة المجابهة ، ورغم أن الخطر العسكرى الإسلامى قد انتهى مع نهاية القرن السابع عشر ، إلا أن التحدى الدينى والفكرى ظل قائماً ، ومسيطرا على مخيلة الغربى .

وبالنسبة للإدارة الأمريكية ، يمس هذا الجدل القيم للأفكار الرئيسية التى تقوم عليها الولايات المتحدة الأمريكية ، فهي تضم أعراقا مختلفة وأديانا متعددة يضمها جميعا المواطنة الأمريكية ، فهى أمة من المهاجرين ، وأن أى موقف ضد دين من الأديان يهدد تماسكها الداخلى ، وبعد أن تراجعت أمريكا عن فكرة السبيكة الواحدة التى صنعتها المواطنة ، إلى التأكيد على طبق السلاطة الذى يضم خضراوات مختلفة ، ولكنها تصنع طبقا واحدا متناسقا ، ولم يعد مقبولا فكرة سيطرة الواسب أى الانجلو سكسون على الحياة السياسية والاقتصادية فى أمريكا .

أمام الثورة !

ويستعرض د. فواز جرجس مواقف ومناقشات الإدارة الأمريكية فى ظل الرؤساء كارتر وريجان وبوش الأب تجاه الإسلام السياسى .

ويسجل رأى ريجان من خلال لقاء نشر فى مجلة تايم في ١٧ نوفمبر ١٩٨٠ يقول فيه .. «تظهر فى الأفق احتمالات نشوب حرب دينية ، بعد عودة المسلمين إلى فكرة أن تضحية المسلم بحياته فى قتال اليهود والنصارى هو الطريق إلى الجنة..» !

وكان قيام الثورة الإيرانية وعجز كل من كارتر وريجان على مواجهتها بسبب اهتمامهما بالحرب الباردة ، أحد الأسباب التى أثرت علي آراء الأمريكيين تجاه الإسلام والمسلمين ..

وكتب أيامها هاميلتون جوردان رئيس موظفى البيت الأبيض خلال رئاسة كارتر ..

« إننا نتعامل مع أناس معتوهين في إيران ..» وبعد إيران جاءت الخيبات فى لبنان والصومال .. وفى وقت لاحق أحرقت سفاراتها ، في كل من باكستان وليبيا والكويت وأفغانستان ، وأدرك الأمريكيون فجأة أن الإسلام السياسى عاد لكى يبقى .

غير أن الغزو السوفييتي لأفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ ، نقل اهتمام أصحاب القرار السياسى فى أمريكا إلى الصدام مع المعسكر الشيوعى فالصراع مع الاتحاد السوفييتى يحتل المرتبة الأعلى في أولوياتها أكثر من مجابهة الخطر الإسلامى الجديد . وسجل كارتر في مذكراته .. « إن الغزو السوفييتى لأفغانستان هو التطور الدولي الأخطر الذى حدث منذ أصبحت رئيسا » وقال بريجنسكى مستشار الأمن القومى .. « إن الأمر الأكثر أهمية اليوم هو إقامة إئتلاف إسلامي معاد للسوفييت» ، وأعيدت ذاكرة

الخمسينيات والستينيات عندما استخدم الأمريكيون الإسلام سلاحا فكريا فى المعركة مع القومية العربية .

أما ريجان فقد استخدم لغة عدائية تجاه الإسلام السياسى فى أكثر من مناسبة ، ففى أعقاب الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ اقترح ريجان «اشتراك المعتدلين العرب فى عملية السلام قبل زيادة موجة الأصوليين المعادين للسلام ، وقبل أن تضع الحكومات الموالية للغرب فى وضع دفاعى» (النيويورك تايمز ٣١ أكتوبر ١٩٨٢) .

ومن جديد يغلب الصراع مع السوفييت الصراع مع الإسلام ، ولام بعض حلفاء أمريكا السياسة الأمريكية لخلقها شبكة إرهابية إسلامية يدعمها الذين يسمون أنفسهم مجاهدين إسلاميين فى أفغانستان (نيويورك تايمز ٥ ابريل ١٩٩٣) .

بوش الأب

وتوافق مع تولى چورچ بوش منصب الرئاسة عام ١٩٨٩ حركة إحياء إسلامي واسع في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، ودارت مناقشة مهمة بعد تسلمه لمهام منصبه فى البيت الأبيض حول التعامل مع الإسلام بعد انتشار الحركات الإسلامية فى مختلف أرجاء العالم العربى وبعد تداعي الشيوعية .

وشهدت هذه الفترة انقلابا عسكريا فى السودان عام ١٩٨٩ متحالف مع الجبهة الإسلامية وما حققته الجبهة الوطنية للانقاذ فى الجزائر فى ديسمبر ١٩٩١ .

وهنا امتثل بوش لإرادة الرئيس الفرنسى ميتران وأيد قرار جنرالات الجزائر فى إلغاء الانتخابات ، وفى البدء «أسفت» وزارة الخارجية الأمريكية لتعليق العملية الانتخابية ، وأبدت أملها فى إيجاد طريقة لاستئناف التقدم نحو الديمقراطية .

ويقول جيمس بيكر وزير خارجية بوش فى مذكراته .. «انتهجنا سياسة استبعاد الأصوليين الراديكاليين فى الجزائر ، حتى مع إدراكنا أن هذا الأمر مخالف لمساندتنا للديمقراطية ، ويمكن القول إنه عندما تساند الديمقراطية تأخذ منها ما تقدمه لك ، إذا أعطتك أصولية إسلامية راديكالية ، فمن المفترض أن تتحملها ، ونحن لم نتحملها لشعورنا أن وجهات نظر الأصوليين الراديكاليين مناوئة جدا لما نؤمن به ، ولمصالحنا القومية » !

وبدا واضحا أن الإسلام السياسى فى نظر واشنطن هو حركة ثورية تماثل فى جذورها التاريخية الفكرة العربية الداعية إلى الوحدة العربية .

ولعل خطاب بلليترو ومن بعده جيراجيان الذى أعلن فى خطاب بعنوان «الولايات المتحدة والإسلام والشرق الأوسط فى عالم متغير» يوضح معالم سياسة بوش عندما كان مساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى فى يونيو ٩٢ ، يقول .. « إننا نرتاب فى الذين يستعملون الديمقراطية من أجل الوصول إلى السلطة ، ولا يتورعون عن تدمير الديمقراطية لكى يحافظوا على السلطة» وأضاف .. « إن نهاية الحرب الباردة أضافت الدفاع عن لب القيم الأمريكية مثل دعم حقوق الإنسان والتعددية والمشاركة فى الحكم ، ورفض التطرف والإرهاب» وختم كلمته بالقول .. « لا تنظر الحكومة الأمريكية إلى الإسلام على أنه يواجه الغرب أو يهدد السلام .. فلقد انتهت الحروب الصليبية منذ أمد بعيد ، ويعترف الامريكيون بالإسلام كقوة ذات أهمية تاريخية التى أثرت فى ثقافتنا وأثرتها .. » .

أما الإسلام فى مخيلة المواطن العادى ، فتصورها له المفاهيم التى اكتسبها المواطن من الأفلام والثقافة السائدة ، فيرى العرب والمسلمين خطرين وليسوا أهلا للثقة وغير ديمقراطيين وهمجيين وبدائيين ويسيئون معاملة نسائهم ، وأورد الكاتب بعض

الاستطلاعات التى أجريت والتى ترى العرب والمسلمين إما فاحشى الثراء وفاجرين وإما من البدو ، ويؤمنون أن المسلمين ميالون إلى التعصب وأن الإسلام معاد بطبيعته للديمقراطية ، ويرى الاستطلاع أن عدم التفرقة بين الإسلام والإرهاب تلحق أضرارا كبيرة بصورة المسلمين ، وتلك الآراء الشائعة التى يراها المواطنون . تفيد قدرة المسئولين على إنتهاج سياسة «توفيقية» تجاه الإسلام .

والجدير بالذكر أن هذه الصورة تكونت عقب أحداث وتصرفات نسبت إلى الإسلام ، وأيضا نتيجة التقصير فى تقديم الإسلام وتصحيح ما يلصق به مما هو مخالف للحقيقة .

وتظهر الصورة السلبية للإسلام فى وسائل الإعلام الأمريكية إذا قيل إن المهمة الرئيسية لأجهزة الإعلام تكمن فى كونها الزناد الرافد للدولة ، فهذا يعنى أن الصورة السلبية تعكس أو تفرز الحوار المضطرب داخل صانع القرار الأمريكى .

ويشير روبرت بيليترو السفير الأمريكى السابق فى القاهرة ومساعد وزير الخارجية السابق إلى أن الإعلام الاخبارى غالبا ما يشير إلى الإسلام فى تقاريره الاخبارية عن العنف

أو عن الإرهاب أو عن المنازعات العرقية ، مما يؤدى إلى مساواة الإسلام بالأصولية والتطرف فى المناقشات العامة وحتى الأكاديمية !

وتنعكس هذه الصورة القائمة فى المخيلة الأمريكية على المسلمين الذين يعيشون داخل أمريكا ، يقول كرامر فى كتابه «الجهاد ضد اليهود ..» إن أولئك الموجودين بالفعل فى الدول الغربية ، ليسوا سوى قنابل موقوته»!

ماذا يقول المفكرون ؟

ويستشهد د. فوزى جرجس بعدد من الكتاب والمفكرين ، ويذكر على لسان مكسيم رودنسون قوله .. « إن العالم المسيحى الغربى ، رأى العالم الإسلامى كخطر قبل أن يراه كمشكلة» .

ويرى آلبرت حورانى .. « إن أوربا المسيحية ترى فى الدين الإسلامى منذ ظهوره مشكلة لها ، فنظرت أوربا إلى الإسلام بمزيج من الخوف والحيرة ، ولم يقبلوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، أو قبول هبوط الوحى ، والاعتقاد الأوسع أن الإسلام زائف (!) ، والله ليس الرب ، وأن الإسلام اختراع يجب استنكار بواعث أصحابه وصفاتهم» !

وأكد الأماني أوليڤر البادر بوني.. « أن الإسلام بدأ بالسيف ، وأبقي عليه السيف ، وسوف يزول بالسيف » .

وترجع هذه الرؤية إلى قرون عديدة من الصراع بين الشرق والغرب ، وأن لدى كل من الحضارتين شعورا بكونية الرسالة ، وأنهما تشتركان إلى حد كبير فى التراث سواء المسيحى اليهودى أو الاغريقى الرومانى ، كما يشكل الإسلام تحديا دينيا وفكريا وعسكريا للغرب ، والأكاديميون أقل حرجا من السياسيين فى إبداء آرائهم ، وهذه بعض النماذج الكاشفة .

ويلخص برنارد لويس موقف الإسلاميين من العملية الانتخابية بقوله : « إنها تصويت لمرة واحدة» ويذهب چيليس كابل ويدعى أن الديمقراطية الليبرالية لا تتلاءم مع الإسلام ، ووفقا لآيموس بيرلمونز .. « يتحتم على الولايات المتحدة التأكد من أن حركة الأصولية الإسلامية تخنق فى المهد ..» ويقول مورتيمر زكرن : «نحن فى الخط الأمامى فى صراع يرجع إلى مئات السنين والعقبة الرئيسية فى وجه رغبة المتطرفين الجامحة إلقاء قيم الغرب الفاسقة فى البحر ، تماما مثلما فعلوا من قبل مع الصليبيين..» ويقول شارلز كروتامر فى الواشطن بوست فى يناير ٩٣ : «إن

الخطر الجديد مساو فى شره لامبراطورية الشر القديمة ..» ويقول بيتز .. «الإسلاميون يتحدون الغرب بصورة أعمق مما فعله الشيوعيون ، فالشيوعيون يختلفون مع سياستنا ، ولكن ليس مع نظرتنا إلى العالم بما فيها ملابسنا وطريقة معيشتنا !» .

ولا يقيم بابيس تميیزا بين الإسلام كدين وبين الإسلام السياسى ، فالإسلام فى رأيه وجزء من طبيعته مناهض للغرب، ويعرف الامريكيون خصمهم عندما يرونه .. » وطالب وولتر كاروجل «بتحالف يضم أمريكا وروسيا للدفاع عن تخوم العالم المسيحى ضد العدو المشترك » !

ويقول جوناثان باريس : « إن الأربعة أخماس من العالم غير الإسلامية لن تتحمل من الخمس الإسلامى أن يمارس ضدها جهاده..» .

وها هى چين كيرباتريك تدعى .. « أن العالم العربى هو المكان الوحيد فى العالم ، الذى تزعزت فيه قناعاتى بقدرة الشعب على الاختيار العقلانى ، إذا ترك له حرية القرار .. » ، ويعلق المؤلف على هذه الآراء قائلا .. «إذا كانت ثمة صفة واحدة توحد الصقور، فهى تطابق آرائهم مع إسرائيل ، وأنهم يهدفون جميعا إلى التأثير فى النزاع العربى الإسرائيلى .

أما تصور الجمهور الأمريكى للإسلام والمسلمين ، فهى الصورة التى تقدمها وسائل الإعلام المختلفة ، وهى الصورة التى تروجها جماعات المصالح وواضعى السياسة ، والتى جاءت من الخوف من الإرهاب ، واحتمال حصول الإرهابيين على سلاح نووى . كما ترى الأوساط الشعبية الإسلام مهددا لاستقرار دول البترول الخليجية ، وعقبة فى طريق السلام الفلسطينى الإسرائيلى(!) .

معارضة عبدالناصر

وإذا كانت الولايات المتحدة بعد الحرب الثانية قد اتخذت موقف المعارض للاستعمار وساندت حركات التحرر ، فقد نظروا فى النصف الثانى من هذا القرن بارتياب كبير إلى الأفكار السائدة فى العالم الثالث ، وقامت السياسة الأمريكية بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٧٠ على معارضة الفكرة العربية التى قادها عبدالناصر ، وكانت الفكرة العربية هى الخطر على النظم المحافظة الموالية لأمريكا ونظر إلى سياسات الإسلام مثل الحلف الإسلامى الذى يخدم المصالح الأمريكية ، وجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ والحظر البترولى العربى ، والثورة الإيرانية ٧٨ - ٧٩ ، وحملت

المسئولين الامريكيين على الاعتراف بوجود قوة جديدة تهدد المصالح الغربية ، وكان على الحكومة الأمريكية أن تقاوم عودة سلطة الإسلام ، كما أدى تفجير مركز التجارة العالمى فى فبراير ١٩٩٣ إلى مضاعفة الاهتمام بالإسلام بعد إدانة مسلمين بشن حرب إرهاب دينى فى أمريكا .

ويؤكد فى هذا السياق ريتشارد بوليت فى أوراق جامعة كولومبيا .. « أن الأمريكيين كانوا على استعداد لتقبل الفكرة القائلة إن أعمال العنف التى ارتكبها بعض المسلمين .. «ممثلة لثقافة متعصبة وإرهابية ، لا يمكن التسامح أو التفاهم معها ..» ، وأعرب بوليت عن خشيته من أن تشهد الولايات المتحدة نمو نوع جديد من معاداة السامية ، قائم على التفرقة ضد الإسلام والمسلمين .. وأكد .. « سوف نصل فى وقت ما إلى عدم احتياج الناس إلى أدلة من أجل تصديق أن أى تهديد إرهابى هو من متطرفين مسلمين» وهو ما حدث بالضبط بعد أحداث ١١ سبتمبر..

كما حذر الصحفى ستيفن آمرسون فى الفيلم الوثائقى «جهاد فى أمريكا» عن وجود شبكة دولية منسقة من جماعات الإرهاب الإسلامى توجه بنادقها إلى المصالح الغربية ..» .

قوة الضغط الصيهونية

ويؤكد د. فوزى جرجس دور إسرائيل ومؤيديها فى خلط الأوراق ، وتقديم الإسلامى على أنه إرهابى ، ففى حين يذكر بعض المسئولين الأمريكيين أن الولايات المتحدة ملتزمة كليا بأمن إسرائيل ، فلابد أن تتأثر هذه السياسة بمواقف إسرائيل .

وطبقا لما ذكره له أحد المسئولين البارزين فى وزارة الخارجية فإن الولايات المتحدة .. «متأثرة إلى أبعد الحدود بالتفسير الإسرائيلى عن الإسلاميين . إلى حد أن أصبحت وجهة نظر إسرائيل تجاه الأصولية الإسلامية ، هو طريقة معرفة المسئولين الأمريكيين للظاهرة .. فالولايات المتحدة تعارض حصول الحكومات الإسلامية على أية أسلحة غير تقليدية ، والشكوك الأمريكية فى الإسلاميين تتعلق بمعارضة لا تلين من بعض الإسلاميين للسلام مع إسرائيل ، وهى مسألة حيوية فى السياسة الخارجية الأمريكية !

وقد اشتبهت صحيفة الايكونوميست «باعتماد كلينتون على معلومات تزوده بها إسرائيل» (٦ مايو ١٩٩٥ الايكونوميست) .

وبالنسبة لموقف الكونجرس لاحظ أحد أعضاء مجلس الأمن القومى أن آراء الكونجرس فى الإسلام والمسلمين مفرطة فى التبسيط ومجحفة .

وقالت مراسلة نيويورك تايمز إيلاين سيولينو : « في غياب تهديدات ملحة على الولايات المتحدة ، سيطرت الراديكالية الإسلامية على مخيلة بعض أعضاء الكونجرس ، وقد حذر رئيس مجلس النواب جينجرتش من الإسلام الشمولي ! ، ودعا إلى وضع استراتيجية متماسكة لمحاربة الإسلام الشمولى ، واتهمت النائبة إيليان روس إدارة كلينتون بالاستخفاف بالطبيعة المتسقة التى يظهرها «التطرف الإسلامى» والتى تقف متراصة ومصممة على قتال الشيطان الأكبر «أمريكا» ، وتحقيق السيادة الكونية للإسلام».

وهكذا جاءت أحداث سبتمبر على هذه الخلفية ، فكما رأينا لم يكن للولايات المتحدة سياسة محددة متماسكة في أسلوب التعامل مع ظاهرة الإسلام السياسى ، بعد أن ظلت تتأرجح بين الحمائم والصقور ، كما ظل اليهود لهم كلمة مسموعة فى رسم هذه السياسة ، ويستعدون الإدارة الأمريكية ، ويتعمدون تجاهل الفروق

بين الإسلام والإرهاب ، وظلت السياسات تتسم بردود الأفعال ، وكثيرا ما جاءت متضاربة ، وكما قال بلليترو .. «لدينا مصالح نعنى بها يوميا ، على أساس عملى وواقعى..» .

ومن جانبنا لابد أن نعمل من أجل وقف الحلقة الشريرة ، من الفعل ورد الفعل ، التى تغذيها مجموعات الضغط الصهيونية ، ولا يجوز لنا أن نتصور أن الآخر ينظر إلينا كما ننظر إلى أنفسنا .

وحان الوقت أن تحكم سياسات الولايات المتحدة المسائل الاستراتيجية التى تفوق الاختلافات الحضارية وتفوق الاستجابة لصيحات عنصرية تطلقها قوى الضغط الصهيونية .

الثقافة الأمريكية
وثقافة العالم

تنال أعمال كل من روچيه جارودى الفرنسى ونعوم تشومسكى الأمريكى اهتماما واسعا ، فكلاهما يحتل مكانة فكرية بارزة فهما يعبران بقدر كبير من النزاهة والموضوعية عن مشكلات العصر .

أولهما مسلم والآخر يهودى ..

نشر جارودى كتابه «أمريكا طليعة الانحطاط» ، ونشر نعوم تشومسكى فى الفترة نفسها كتابه «ماذا يريد العم سام ؟!» ، والكتابان يتناولان دور الثقافة الأمريكية فى القضاء على الثقافة المحلية فى ظل العولمة .

ويهدف جارودى فى الكتاب الذى تتناوله أمريكا طليعة الانحطاط الى الإعداد للمستقبل والتطهر من أخطاء الماضى حتى تتجنب البشرية الانحراف القائم الذى يوشك على تدمير الإنسان. وكتابه بحق صيحة ضد نفى الثقافة وتفريغ العالم من المعنى .

إنه يرفض رؤية العالم دون مشروع إنسانى ، ويسعى إلى بناء المستقبل على أسس عادلة .

ويرى أن الثقافة الأمريكية التى تسعى إلى «أمركة» العالم باسم الثقافة العالمية هى الخطر الأول ، فعندما تطورت تقنيات الإعلام ، ثم تضليل الرأى العام ، وانتشر «التيك أواى» الثقافى لغزو العالم وتحطيم ثقافته ، وتقدمت ثقافة «الكاچوال» على غيرها مثل مسلسلات دالاس التليفزيونية وملكة الاغراء «مادونا» وشوازينجر رمز العنف والديناصورات فى السينما ودوشنيرج وكونينج فى الفن التشكيلى ، وميكى ماوس فى الرسوم المتحركة وفرق «الروك» فى الموسيقى .

وكل ما يجعل شباب العالم ينسى ثقافته وقيمه وتراثه الإنسانى - مازال الحديث على لسان جارودى - من سرفانتس وشكسبير ورابليه وينتشه وديستوفسكى .

وأصبحت «ماكدونالدز» و «الكولا» و«ديزنى لاند» وعلب الليل رموزا للعبث والتقليد الأعمى فى العالم الذى أبدع من قبل الرامايانا ومسرح «نور» والرقص الافريقى الأصيل وملاحم جلجامش وأشعار رامبو .

ويتساءل .. هل تعنى العولمة والحداثة النسيان والإزدراء والصبيانية لصالح الجهل والأمية الثقافية ، والجاهلية الميكانيكية والمعلوماتية ؟!

وهل يقبل العالم أن يصبح دهاقنة السوق وعبدة أصنام المال والمضاربون من سماسرة البورصة طلائع الثقافة أم هم من طلائع الانحطاط الذى حان له أن يتوقف ؟!

يطالب «جارودى » بأن نبحث فى الماضى عن الجذوة المتقدة ، وألا نكتفى من الماضى بالرماد ، ونجده يصدر كتابه بكلام الفيلسوفة سيمون فى .. « نحن نعلم أن أمريكا وأوروبا بعد الحرب ستصبح خطرا عظيما ، ونعلم أيضا مدى ما سنخسره لو تم ذلك، لأن أمركة أوروبا سوف تمهد دون شك لأمركة العالم بأسره ، وحينئذ سوف تفقد الإنسانية ماضيها » .

والمشكلة الرئيسية أمام الولايات المتحدة وهى فى طريقها للسيطرة على العالم ، إن انتهاء الحرب العالمية سنة ١٩٤٥ ، ثم انهيار الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٨٩ ، وضع الولايات المتحدة أمام الحاجة لاستمرار سياسة التسلح إذ أن هذه السياسة هى أحد العناصر المهمة لعمل الاقتصاد الأمريكى . فكان من الضرورى البحث عن شيطان جديد ، وبرز الحق فى التدخل لحماية الأقليات أو حماية حقوق الإنسان ، بعد أن ضربت المثل بتدمير العراق التى أصبحت امبراطورية الشر الجديدة ، والهدف

هو ضرب المثل ، فغير المسموح لأى شعب أن يصل إلى أعلى المستويات التقنية أو أن يستخدم ثرواته القومية مثل النفط بعيدا عن سيطرة القوى الكبرى .

فهل تستطيع أن تفرض رؤيتها على العالم ؟ ورغم قوتها العسكرية التى لا تخسر خلال معاركها قتيلا واحدا .. وتدير المعارك بالضغط على أزرار الأجهزة الالكترونية .

وأحد أهم ركائزها الفكرية السوق المفتوحة أمام منتجاتها وبذلك يبدأ العالم يتأمرك ، ويورد فى هذا المجال أقوال الرئيس ودورو ويلسون فى القرن التاسع عشر .. «بما أن التجارة لا تعرف حدودا قومية ؛ وبما أن المنتج يحتاج إلى العالم ليصبح بأجمعه سوقه التجارى ، فلابد من أن يسبقه علم بلاده حتى يوفر له فرصة اختراق كل الأبواب المغلقة ، ولابد من أن تحمى الدولة الامتيازات التى يحصل عليها رجال المال حتى لو أدى ذلك إلى تدمير سيادة الأمم التى تحاول أن تمنع ذلك ، ويجب ألا نترك أى ركن فى العالم..» .

وأخذ العالم يتأمرك ابتداء من الفيلم الأمريكى الذى بدأ بمطاردة الهنود وانتهى بتدمير العقول ، وكل مناظر العنف

والجنس واللا إنسانية من «باتمان» إلى «ترميناتور» حتى العودة إلى عالم الديناصورات .

وهذه هى تداعيات ظهور الانحطاط ، فتجنى المضاربات أكثر مما يجنيه الاستثمار الجاد فى الإنتاج والخدمات .

نفى الثقافة

والمدهش حقا اعتبار غزو «البلوجنز» للعالم من قبيل غزو الثقافة الأمريكية ، كما أكد ذلك د. جلال أمين على صفحات مجلة الهلال ، أو أن يعتبر «الفاست فود» أحد صور الغزو الثقافى ، والذى يؤكده توماس فريدمان عندما يذكر أن محلات «ماكدونالدز» هى رمز الثقافة الامريكية الأكثر شيوعا ، والرسوم المتحركة ورمزها «ميكى ماوس» تمثل ثقافة أمريكا لدى الناس العاديين فى كل العالم ، ويذكر «بنيامين باربر» فى كتابه «فى مواجهة عالم ماك» الكثير من الدروس عن «ماكدونالدز» وتأثيره الثقافى ، ويدعى أن اليابانيين تعلموا أن يتناولوا طعامهم وقوفا خلاف تقاليد عمرها آلاف السنين ! ، وأن الشعوب التى تتناول الأطعمة السريعة الأمريكية لن تدخل حروبا ضد بعضها البعض (!) ، ولن تلجأ إلى العنف لتسوية خلافاتها ! ، فهل هذه ثقافة أم نفى للثقافة ؟

ويفسر جارودى اقتصار الثقافة على هذه الصور الهزيلة ، ويصل إلى لب الموضوع بأن الثقافة الأمريكية التى يعبر عنها بطريقة الحياة الأمريكية ، هى التى تؤدى إلى انهيار الأخلاق والفنون ، وينبع تردى الثقافة من تاريخ الولايات المتحدة ذاته ، فلا تلعب الثقافة أى دور فى حياة المجتمع الأمريكى ، بينما لعبت الثقافة والعقائد دورا أساسيا ودائما فى حياة أوروبا ، سواء فى العصر المسيحى أو عصر التنوير وأيام الثورة الفرنسية ، أو خلال قرن القوميات أو عصر الماركسية وثورة أكتوبر .

واعتبرت أمريكا أى هوية ثقافية أو روحية مسألة فردية وشخصية ، ومات كل ماهو مقدس ! وتلاشى ذلك الدأب فى البحث عن معنى الحياة الذى يقود إلى الإيمان بالله .

وكان «توكڤيل» هو أول محلل ثاقب البصر عندما قال سنة ١٨٤٠ «لم أعرف شعبا مثل الشعب الأمريكى استولى فيه حب المال على قلوب البشر» هذه واحدة .

وكانت أمريكا ممتدة بلا حدود طوال أكثر من قرن وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، ولم تعرف الحدود وهى تتجه غربا حتى الوصول إلى المحيط الهادى ، وظلت الأراضى الشاسعة مسرحا

للنهب والسلب وتدمير الغابات بحثا عن الذهب والفضة ، وكانت العلاقة بالآخر ذات طبيعة خاصة ، بدأت بطرد الهنود للاستيلاء على أرضهم ، وبعدها كانت العلاقة بين البيض أنفسهم خاضعة لقانون الغاب ، وبهذا أصبح العنف ملمحا دائما في تاريخ أمريكا، وقام المهاجرون الأوائل مؤيدين بالعهد القديم يستولون على أراضي السكان الأصليين طبقا لتعاليم يهوا « إله الحرب» الذي أمر شعبه المختار بإبادة وذبح السكان في أراضي كنعان واغتصاب أرضهم ، وكتب ترومان نلسون .. «واضح أن الله يدفع المستوطنين للحرب ، بينما يعتمد الهنود بعدتهم وعددهم على ارتكاب الخطأ ، ومثل القبائل القديمة يتحينون الفرصة لفعل الشر، تماما مثل الفلسطينيين الذين كانوا يتحدون مع آخرين لقتال بني إسرائيل » ! فالأرض الموعودة عندهم أرض محتلة بالقوة ، وليس غريبا أن قلصت الإبادة في أمريكا أعداد السكان الأصليين من عشرة ملايين إلى ٢٠٠ ألف نسمة .

وإذا كانت الثقافة انعكاسا للأحداث التاريخية ، فهي أيضا جزء من القيم والمفاهيم السائدة ، فماذا عن الديمقراطية المناخ المواتي لانتعاش الفن والثقافة ؟ ينقل جارودي عن الكسيس توكفيل

سنة ١٨٤٠ وفى كتابه عن الديمقراطية .. « لا أعرف مجتمعا يوجد به هذا القدر الضئيل لاستقلالية العقل والمناقشة كما فى المجتمع الأمريكى» هذا منذ قرن ونصف ، ويقول تشومسكى اليوم فى كتابه ماذا يريد العم سام ، « لا يوجد واحد فى الألف قادر على التفكير فى أى شئ مختلف ، بذلك يمارس المجتمع نظام السيطرة على الفكر بطريقة ناجحة» .

ويرجع تشومسكى ذلك فى بعض جوانبه إلى أن الليبرالية الأمريكية عملت على التأييد السوفييتى الأعمى ، وضيق الأفق فى النظر إلى العديد من المسائل العامة .

وأصبحت هذه السيطرة على الفكر فى القرن العشرين أكثر إحكاما ، شخصيات عامة وباحثون وصحفيون .. ورجال صناعة ورجال علاقات عامة ، اعترفوا جميعا بأنه فى بلد يصبح فيه صوت الشعب مسموعا يكون ضروريا أن يظل هذا الصوت يقول ما يتناسب مع النظام العام القائم ، كما يؤكدون على أهمية تدبير الموافقة ، كما يطلق عليها ليبمان !

أغنى أمة

لا يستطيع المرء أن ينكر هذا الجهد الكبير الذى بذله جارودى مؤلف هذا الكتاب ، ومما يلفت النظر تلك القدرة على استدعاء

المعلومات التى تؤكد وجهة نظره ، أو التى تلقى الضوء على نظرية يريد إثباتها .

وثقافة أى مجتمع لا تقوم فى فراغ إنما هى المنتج لظروف تاريخية واجتماعية محددة .

فمنذ مطاردة الهنود سمح بحيازة السلاح ، مما أدى إلى تفشى وحشية العلاقات الإنسانية ، وأخذ الشباب يقتل بعضهم بعضا .. « منذ عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٩١ ، قتل ما يقرب من ٥٠ ألف أمريكى فى أقل من تسعة عشر عاما منهم ٩ آلاف فى أقل من أربعة عشر عاما و٤٠ ألفا بين خمسة عشر وتسعة عشر عاما وحجز خلال الفترة نفسها فى جرائم قتل من هم دون سن التاسعة عشر نسبة تزيد على ٩٣٪ » .

وهاهو الصحفى داريك چاكسون يكتب فى صحيفة بوسطن جلوب أن اليونيسيف تضع سويسرا فى المقدمة من حيث دخل الفرد وتسبق أمريكا ، ولكن أمريكا توضع فى المرتبة الثانية والعشرين فى وفيات الأطفال بعد كل من أيرلندا وأسبانيا بعد أن كانت العاشرة ، كما تزيد وفيات الأطفال الأمريكيين من أصل أفريقى بالمقارنة بالمتوسط العام .

وفي دوكسبي أحد أحياء بوسطن حيث تتكدس الأقليات العنصرية ، تزيد الوفيات عن ثلاثة أضعاف مثيلاتها ، مما يضع دوكسبي التى تنتمى لأغنى أمة فى العالم بعد سويسرا فى المرتبة الثانية والأربعين فى وفيات الأطفال !

ويكشف جيمس جوستاف سبيث رئيس برنامج الأمم المتحدة الكثير من الأساطير الشائعة ، يقول .. « هناك أسطورة ينبغى القضاء عليها ، والتى تدعى تقدم العالم بفضل عولمة الاقتصاد الدولى ، تحت قيادة خمسة عشر تنينا ، فأكثر من عائد دولة انخفض دخل الفرد فيها عن ما كان عليه منذ خمسة عشر عاما ، وهناك ما يقرب من مليار وستمائة مليون فرد يعيشون على نحو أسوأ مما كانوا عليه فى الثمانينيات .

والأسطورة الثانية .. تدعى أن القطاع الخاص هو البلسم الشافى ، فلا توجد علاقة بين حاجات دولة والاستثمار الخاص المباشر فيها ، وهذا النوع من التنمية عادة يكون مصحوبا بأكبر فقر وبظلم اجتماعى فادح ، إلى جانب بطالة لا تكف عن التزايد ..» وهذا ما تسعى أمريكا لفرضه على العالم .

الحداثة

والحداثة أحد صور التدمير الثقافي ، فلا يمكن أن تقول أى شيء عن فلسفة أمريكا في نظام يكبت صرخات الرجال بفلسفته البراجماتية الوضعية التي تستبعد الإيمان ، وشعب بلا ماض لا يمكن له أن يبدع سوى فن بلا جذور . وعظمة الفنان تعود إلى قوة الماضى الذى يحمله ، وفيما عدا أعمال قليلة نادرة جلبها معهم مهاجرون ، يصعب ظهور أى فن حقيقى لذلك تحسد القوة الاقتصادية الأمريكية القوة الثقافية لأوروبا ، مستخدمين في التعبير عن ذلك الابتزاز والإرهاب الثقافى لاقناع التجار والمتحذلقين بما أسموه «حداثة» ويهاجم النقاد الأمريكيون مانيه ورمبرانت وفان جوخ وكافة رموز الحضارة الفنية الأوروبية .

وفى سوق الفن حسن المواصفات الأمريكية .. «أرسيت قواعد الجهل في الرسم ، وكلما كان الفنان جاهلا أعتبر رائدا» . وأصبح المهم هو أن تقدم الجديد المبهر ، بعد أن أصبح المعيار ما يدره من أموال لا ما يتحقق فيه من جمال ..

ويعطى دوميك المثل في كتابه «فنانون بلا فن» .. «باعت صالة كريستى لوحة للرسام كونينج بـ ٤٤ مليونا و ٨٨٠ ألف فرنك ،

بينما وصلت لوحة للفنان رافائيل مبلغ ثمانية ملايين و ٦٨٨ ألف فرنك فقط » .

هذا هو نوع الثقافة التي يسعون لكى تعم العالم .

هذا بعد أن تحول الوهم الذى استمر مائة عام بالحلم الأمريكى إلى كابوس أمريكى نتيجة رغبة قادة أمريكا فى السيطرة على العالم ، وقليل من النقاد يتجاسر ويقول .. «إن الملك عار» وما يميز فن الخواء أن النقاد لا يتحدثون عن الأعمال الفنية ذاتها ، وإنما يتحدثون عن مقاصد ونيات أصحابها ، رغم أن ما نشهده لا يزيد على مجموعة من رقاب الزجاجات أو سجاجيد عليها أكوام من جمال وكرات من الصوف .

بعد أن نادت فكرة البحث عن التجديد إلى طرد الإنسان من الثقافة بل وتعرية الثقافة الإنسانية .

هذا ولا يمكن اعتبار ذلك جريمة شعب ، وإنما جريمة مؤسسات فلا يوجد شعب سيىء وإنما شعب مغيب ومخدر .

الصور المتعاكسة

وماذا بشأن أمريكا الأخرى .. وهل صحيح أن الثقافة الأمريكية يمكن اختزالها فى الجينز والأكلات السريعة وموسيقى

الروك ؟ .. وماذا عن الأعمال العظيمة مثل أعمال شتاينباك وهوارد فاست وهمنجواى وويتمان وغيرهم ، وماذا عن الأفلام الإنسانية التى وجهت أعنف نقد للجوانب السلبية فى الحياة الأمريكية ! .. وماذا عن المتاحف والمسارح ودور العرض التى تقدم الأعمال الفنية الراقية ! .. فالثقافة الأمريكية مثل غيرها من ثقافات العالم، بها قشور الثقافة وتلك العميقة الراقية .

يعود جارودى يقول : « .. لا يمكن نسيان أمريكا الأخرى ، أمريكا ايمرسون وجون براون ولنكولن وثورد الذى انسحب من هذا العالم وكتب « ولدن - أو الحياة فى الغابة» ثم عاد إلى المدينة لكتابة مؤلفه «العصيان المدنى» الذى كان مصدر إلهام غاندى ، ولنكولن الذى اغتالته المؤسسة ، ولا ننسى المقاومة السوداء من دى بوا وحتى مارتن لوثركنج ، التى أظهرت الوجه الجميل لأمريكا .

ويعدد جارودى الأعمال العظيمة لسينمائيين أمثال فورد فى فيلمه «عناقيد الغضب » ، والفيلم الذى تجرأ وتناول مؤامرة اغتيال كيندى ، كما لا يمكن أن يتجاهل المساهمات العظيمة لراقصين أمريكين جددوا هذا الفن وأعادوا صياغته ، كما فعل شكسبير فى المسرح ومايكل أنجلو فى الفن التشكيلى .

ولا ننسى الكتاب المغضوب عليهم أمثال إدجار ألان بو أو توماس وولف ، أو من هز جمود محاكم الجنايات مثل فولكنر .

وعند زيارتى الأولى للولايات المتحدة خرجت بانطباع أنه بلد المتناقضات والصور المتعاكسة ، ترى العلم والخرافة جنبا إلى جنب ، وهذا المجتمع الذى يخضع للعقل وحساباته الدقيقة ، تنتشر فيه الخرافة والسحر ، والشعوذة وصور اللا معقول ، ترى كتب السحر والشعوذة مع دراسات عميقة عن المستقبل ، ومجموعات البحث فى المراكز والجامعات .

وتجد المجتمع الأمريكى من أكثر المجتمعات برجماتية ومادية ، الربح والنجاح هما القيمة والمقياس والمحرك ، ويزعم ساسته أن أمريكا هى حاملة الرسالة الروحية فى العالم ، وتساءلت :

كيف يتوافق شيوع المعرفة ووجود الخرافة ؟!

ترى أرقى مراكز البحث وأقوى عصابات الجريمة ، وأى فجوة واسعة تشعر بها بين متعة تلك الليالى التى تقضيها مع الباليه أو الموسيقى أو المسرح وصور الفنون الرفيعة المختلفة ، أو عندما تنتقل بين قاعات عرض الفنون الجميلة ، وبين ذلك الذى يقدم من خلاعة فى علب الليل ، والاعتزاز بأن أمريكا هى مبتكرة خلع ملابس الراقصات قطعة قطعة !

وكيف تجمع أمريكا بين مراكز البحث التى تضم تلك الجيوش الجرارة من الخبراء وما تعيشه من ثورة المعلومات وما تقوم به من فرزها وتنظيمها ، وما تقدمه لصانع القرار من بدائل ، بينما أصحاب القرار ليس الخبراء ولكن جماعات الضغط والمصالح فى المجتمع الأمريكى !

ورغم المساواة القانونية القائمة ، ورغم أن ركيزة المجتمع هى الحرية والمساواة ، فمازال الحس العنصرى عميقا ، وإذا كان الزنوج يصلون إلى أعلى المناصب ، فمازال الأسود فى الجنوب هو آخر من يعين وأول من يتم الاستغناء عنه .

ويتساءل تشومسكى فى كتابه ماذا يريد العم سام ؟

ما العمل ؟ .. ويجيب أن ما يحدث ليس مثل الزلازل والبراكين، أى من قوانين الطبيعة التى لا راد لها ، ولكن ما نشاهده من تدنى الثقافة الأمريكية يتطلب تغييرا فى الولايات المتحدة وفى بلدان العالم ، ينتقل خلاله النظام الديمقراطى الشكلى إلى نظام ديمقراطى حقيقى .

وعندها ترتقى الثقافة ويعلو الفن.

النفوذ اليهودى
فى أمريكا

قوة اليهود فى أمريكا ، كتاب جديد صدر أخيراً ، وهو كتاب بالغ الأهمية ، فهو نظرة من الداخل على النفوذ اليهودى فى المجتمع الأمريكى ، ويتناول الكتاب تأثيرهم على إصدار القرارات فى الإدارة الأمريكية والكونجرس ، ويستعرض الهياكل التنظيمية للمنظمات اليهودية ، وحركة هذه التنظيمات فى صراعها واتفاقها ، ويستعرض نجاحاتها واخفاقاتها ، ويحدد مدى سيطرة اليهود على المال والإعلام والأسرار .

ومؤلف هذا الكتاب هو چوناثان جولدنبرج الكاتب اليهودى الذى يعمل فى صحيفة نيويورك تايمز ، ويراسل صحيفة جيروزاليم ريبورت ، وهو نجل جولدنبرج مندوب أمريكا فى مجلس الأمن فى يونيو عام ١٩٦٧ ، الذى عمل على استكمال النصر العسكرى الإسرائيلى بنصر سياسى .

ويؤكد الكتاب أن قوة ونفوذ يهود أمريكا لم يأت مصادفة ، فيدرك اليهود بخبرتهم الطويلة أنهم وحدهم لا يمثلون أى قوة ،

وأتقن اليهود طوال القرن الحالى وسائل التحالف وآلياته مع الأقوى وانتقلوا بسلاسة من أحضان بريطانيا إلى فرنسا وأخيراً الولايات المتحدة ، ورغم أن الكتاب لا يخلو من نبرة دعائية فإنه غني بالمعلومات المهمة التي يجب أن يطلع عليها المهتمون بالقضية الفلسطينية .

ويجيب الكتاب عن سؤال مهم كثيراً ما يتردد حول سر قوة يهود أمريكا رغم ضآلة عددهم ؟ ومدى تأثيرهم على السياسة الأمريكية التى اتسمت فى الشرق الأوسط بالكيل بميكالين وعندما يتصدر اليهود الأمريكيون جميع المناصب السياسية التى تتعامل مع الصراع العربى الاسرائيلى ، والذى كان آخرها تعيين أحد اليهود سفيراً للولايات المتحدة فى القاهرة . وجاء فى الكتاب : «خلال إدارة الرئيس بوش كان هناك سبعة من تسعة عشر مساعدا لوزير الخارجية من اليهود كما أن الأربعة الذين اختارهم جميس بيكر وزير خارجيته للاشتراك فى مفاوضات التسوية من اليهود وهم دنيس روس ودانيال كورتر وآرون دافيد ميللر وريتشارد هاس ، وصرح واحد منهم .. «إنهم يهدفون لتحقيق مصالح أمريكا من خلال منشور بللورى.. !» .

وفى إدارة كلينتون الحالية سبعة أعضاء من أحد عشر عضواً في مجلس الأمن الأمريكي من اليهود ، ومازال روس يرأس فريق التفاوض الأمريكي في الشرق الأوسط .

فهل يعود ذلك إلى قوة ونفوذ قوى الضغط اليهودية .. ؟ أم للمصالح المشتركة بين اليهود وأمريكا .. ؟ وإذا كانت المسألة تقتصر على قوة الضغط فما أيسر إقامة قوة ضغط عربية من العرب المهاجرين في أمريكا ، وأن تتحالف مع قوى ضغط محلية أخرى ، لتحييد قوة الضغط اليهودية .

وسؤال آخر .. من هو المؤثر التلقائي والمؤثر التبعي في صناعة الأحداث في الشرق الأوسط ، هل هي الحركة الصهيونية أم المشروع الاستعماري الغربي ؟ وهذه الأسئلة ليست مجرد أسئلة نظرية ، إنما تؤثر إجابتها على العديد من القرارات السياسية ، ونلاحظ مثلا أنه في لحظة حرجة خلال حرب أكتوبر أعلن الرئيس السادات وقف إطلاق النار ، لأنه لا يستطيع أن يحارب أمريكا ..

وإذا عدنا قليلا إلى الوراء ، نجد أن العالم العربي انقسم حول حلف بغداد ، عندما كان نوري السعيد أحد الداعين إلى الحلف ،

يرى أن الانضمام إلى الحلف سيؤدى إلى تحييد الغرب فى الصراع العربى الاسرائيلى .

على أية حال يؤكد الكتاب أنه لا يمكن الفصل بسهولة بين القوة الخاصة باسرائيل وبين الولايات المتحدة وأنه لا يمكن أيضا الفصل بسهولة بين قوة اليهود وقوة أمريكا !

أية رسالة !

وقبل استعراض بعض ما جاء فى هذا الكتاب نتساءل : ما هى الرسالة التى يضمها الكتاب ، وما هى الفكرة التى يروج لها ؟ ربما يريد القول أن القوة التى يتمتع بها يهود أمريكا لا تقاوم ، وبالتالى ، ليس على الفلسطينيين سوى الإذعان لمطالب اسرائيل ، أو لعله يزعم أن الولايات المتحدة ليست سوى ضحية للنفوذ اليهودى وأنها لا تستطيع أن تنتهج سياسة عادلة ، وعلى الجميع قبول هذه المسألة .

أم أن هذا الكتاب ليس أكثر من دعوة حارة لكل يهود أمريكا ، وبالتحديد هؤلاء الذين اختاروا الاندماج فى المجتمع الأمريكى إلى نبذ «العزلة» والمشاركة فى النشاط اليهودى من أجل اسرائيل ، وهو هنا يعمل على شد أزرهم ، ويصلب عودهم ويبدد مخاوفهم ،

ويبث الطمـأنينة في قلوبهم فهـا نحـن قـد حـقـقنا أكبـر انتصـاراتنا ، ويضـيف جولد نبرج بأسى «.. لم يدرك بعد العديد من يهـود أمـريكا حـقـيقـة قـوتهم» ويضـيف .. هدف هذا الكتاب تناول النفوذ السياسى لليهود فى أمريكا ، يستعرض الهياكل التنظيمـيـة التى أقـامـوها وجـدول أعـمـال المجـتـمع اليـهـودى ، والسياسات الداخلية للمنظمات اليهودية ، العلاقات المعقدة بين قيادات المجتمع اليهودى وجماهير يهود أمريكا ، هذا حتى نصل إلى مصادر القوة اليهودية المتمثلة فى القدرة العالية على جمع التبرعات ، والتأثير على الرأى العام، وحتى نعمل على زيادة فعاليتها .. فها هى أول جماعة عرقية ودينية تحقق القوة والنفوذ بين مجتمع أكبر عن طريق العزف على أوتار الضعف والحديث عن الضحايا ! .. » ويحرض جوناثان جولدنبرج على عبور الفجوة بين نشاط اليهود الذين يديرون أعمال الطائفة اليهودية ومجموع الطائفة .. ويمثلونها لدى المجتمع الأكبر من اليهود الامريكيين الذين يجهلون تماما ما يجرى باسمهم وهذه هى أزمة يهود أمريكا ، فإلى متى يستطيع الزعماء الإدعاء بأنهم قادة بينما الاتباع لا يسيرون خلفهم !

نفوذ الكلمة ... !

أما الاشارات التى جاءت فى الكتاب فتبدأ من قصة وصول اليهود إلى أمريكا فى ثلاث موجات هجرة رئيسية ، الأولى من البرتغال فى عصر المستعمرات والثانية من ألمانيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، والثالثة من روسيا فى مطلع هذا القرن . يسيطر اليوم اليهود على جيب أمريكا وعقلها ، وتمكن يهود أمريكا الذين يبلغ تعدادهم ستة ملايين أن يحصلوا على ٧,٥٪ من النواب و١٠٪ من الشيوخ ، وربع العاملين فى «الميديا» الامريكية .. ويعتمد النفوذ اليهودى من أجل التحكم فى غير اليهود على قوتهم ، فيمثلون نصف ملوك الشركات الكبرى التى تتطور بسرعة هائلة ، والتى تملك وسائل الاتصال الحديثة وصناعة الكمبيوتر ، وشركات التليفزيون والسينما .. فإذا كان ثمة نفوذ يهودى فهو نفوذ الكلمة ، تأثير كتاب الأعمدة فى الصحافة الامريكية ، وصناع الرأى العام من اليهود ومن يصنع الرأى العام يشكل الاحداث ويتخذ القرارات .

وتسعى الاحزاب السياسية والنقابات وجماعات المصالح المختلفة لكسب اليهود كحلفاء وكقوة منظمة ، كما تسعى أطراف

دولية لكسب تأييدهم فمثلا تعتمد تركيا على يهود أمريكا . ويؤيد اليهود تركيا باعتبارها الدولة الإسلامية التى تقف إلى جانب اسرائيل «.. أصبحت مكاتب المنظمات اليهودية مزاراً لرؤساء الدولة والدبلوماسيين الأجانب ، يطلب كل منهم الدعم والتأييد ، ومن هؤلاء رئيس وزراء كل من البوسنة وألبانيا ووزير خارجية بلغاريا والسلفادور ونيكاراجوا» .

ويبلغ متوسط دخل الفرد من اليهود ما بين ٤٠ و٥٠ ألف دولار فى الوقت الذى لا يتجاوز متوسط دخل الأمريكى ٣٥ ألف دولار ، وفى نطاق تسع ولايات أمريكية يعيش فيها ٨١٪ من مجموع اليهود الأمريكيين وهذه الولايات تمثل ٢٠٢ نقطة من إجمالي ٥٣٥ نقطة فى المجتمع الانتخابى الأمريكى أى نسبة حوالي ٣٧٪ .. «ومعظم اليهود لا ينتمون إلى منظمات يهودية كبرى ، ونادرا ما يذهبون إلى المعابد ، أو يقرأون الصحف اليهودية ، ورغم ذلك فأصوات اليهود جائزة كبرى لمن ينالها ، فرغم ضعف نسبة اليهود التى لا تتجاوز ٣٪ من أصوات الناخبين ، فإنهم يتبرعون بسخاء فى المجالات الانتخابية ، فإذا كان عدد العاملين فى حملة انتخابية ٢٥ شخصا ، فلن تجد أكثر من ثلاثة منهم ينتمون للمذهب البروتستانتى - أى مذهب الأغلبية .

الملاحظ أن أهم مصدر لنفوذ اليهود هو التبرعات للحملات الانتخابية المختلفة ولا تظهر قوة اليهود فقط من خلال المساعدات الأمريكية التى تخصص لخمسة ملايين اسرائيلى ما نيمته خمس المساعدات الامريكية ، بل وفى اتخاذ القرارات الدولية لمساندة اسرائيل التى ربما تسبب خسائر فادحة للمصالح الأمريكية . ويصل عدد هذه المنظمات اليهودية إلى ثلاثمائة منظمة .

وأهم المنظمات التى تجمع التبرعات وتمارس الضغوط السياسية المختلفة هى «مؤتمر القادة» . «الإيباك .. ومقاومة تشويه صورة اليهود» و«اتحاد النداء اليهودى» و«الوكالة اليهودية» ولا يسع القارئ إلا أن يلفت انتباهه كفاءة الشبكة الدقيقة التي تجمع التبرعات مما يتيح لاتحاد النداء اليهودى أن يقدم لاسرائيل ٣٠٠ مليون دولار سنويا .. وتبلغ ميزانية الوكالة اليهودية نصف بليون دولار ، وتقدم المساعدة لليهود من الشيشان وحتى اثيوبيا بالاضافة إلى الأحياء الفقيرة فى تل أبيب .

وتقوم منظمة اتحاد النداء اليهودى بدعوة المشاهير إلى حفلات العشاء ، وينتهى الحفل بإعلان القيمة التى تبرع بها كل فرد ، وتقوم منظمة النداء اليهودى بجمع ما قيمته ٩٠٠ ألف دولار سنويا وهنا نتساءل .. إذا كانت هذه هى حركة الأموال اليهودية ، فأين الأموال والتبرعات العربية .. ؟! .

وتستخدم هذه التنظيمات جميع الوسائل للتأثير ، من الترغيب إلى الترهيب ، ويدعى الكاتب .. «أن نفوذ اليهود فى أمريكا يصل إلى حد الإحاطة بالرؤساء فعندما تحدى بوش اليهود وقرر منازلتهم فى الكونجرس حول ضمانات قروض بناء المستعمرات أدى ذلك إلى سقوطه رغم ما كان يتمتع به من شعبية تعتبر أكبر شعبية تمتع بها رئيس !» وحقق اليهود انتصاراً كاسحاً على كل من وقف فى طريقهم مثل تشارلس بيرسى الذى فقد مقعده فى الكونجرس عندما صرح بعد جولة فى الشرق الأوسط أن على إسرائيل أن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، فكانت نهايته السياسية ، وبول فندلى الذى أخذ موقفا متوازنا فى الصراع العربى الاسرائيلى أدى إلى فقد مقعده فى الكونجرس .

أمريكا وإسرائيل

ونتساءل .. ألا يوجد هامش للخلاف بين أمريكا واسرائيل ، لعل قضية بولارد الجاسوس الاسرائيلي الذى يقضى فى السجون الأمريكية حكما مدى الحياة شاهدة على هذا الخلاف ، ومازالت كل من اسرائيل ويهود أمريكا يمارسون ضغوطا كبيرة من أجل الإفراج عنه ، ويتساءل جولد نبرج .. هل صنع نفوذ اليهود فى أمريكا تحالفا أمريكيا إسرائيليا ؟ وينفى ذلك مؤكدا أن العكس هو الصحيح فالتحالف الأمريكى الإسرائيلى هو الذى ساهم فى خلق القوة السياسية لليهود الأمريكيين ، بل وأقام التحالف الامريكى الإسرائيلى الذى أجبر أكثر المؤسسات الأمريكية ليبرالية على تحالف غير مألوف مع اليهود ، مما حول اليهود إلى قوة كبيرة على المسرح الدولى .

والمثير للدهشة ، أن الكاتب يقدم يهود أمريكا على أنهم الأكثر تطرفاً يقفون بحزم ضد انسحاب اسرائيل من الأراضى المحتلة .. ويؤيد معظمهم حزب الليكود فى اسرائيل ، وعند توقيع الاتفاق بين عرفات ورابين فى البيت الأبيض تحالف كل من الحاخامات الأمريكيين مع كل من اليهود المؤيدين لليكود وصقور

الحزب الجمهورى الأمريكي ، وأخذوا يعملون على تجميد المساعدات إلى الفلسطينيين ، وتدمير الاتفاقيات التى لم يجف مدادها بعد عن طريق تجميد المعونات الأمريكية للفلسطينيين والاعتراض المسبق على إقامة قوة حفظ سلام أمريكية بين سوريا واسرائيل ومحاولة قطع المساعدات عن مصر عقاباً على دعمها للصف العربى .

ومع سياسة رابين عام ١٩٩٢ ، استعاد «الوسط» مكانته بين يهود أمريكا ، ولكنه لم يصل إلى الموقع الذى كان يحتله شامير ، وعبر رابين عن غضبه فى لقاء مع يهود أمريكا وقال .. «إسرائيل لم تعد فى حاجة إليكم ، وأن العلاقة بين أمريكا واسرائيل لا تحتاج إلى وسطاء» .

وقامت «الايباك» عام ١٩٩٥ بحملة فى الكونجرس الذى اتخذ قراراً بنقل السفارة الامريكية من تل أبيب إلى القدس . مما أدى إلى احراج كبير لحكومة العمال الاسرائيلية التى تدعى من جانب أن القدس عاصمتها ، وتدعى من جانب آخر أنها تخوض مفاوضات سلام يتقرر من خلالها مستقبل القدس .

اليهود والسود

إذا كان لكل فعل رد فعل ، وإذا كان كل موجة مهما علت لابد من انحسارها ، فما هي نتائج أن يحصل يهود أمريكا على أكثر مما يستحقون ؟

واجه ملوك صناعة السينما من اليهود في هوليوود المصاعب ، عندما ظهر فيلم عن السيد المسيح عام ١٩٨٨ ، فأثار سخطا شديداً في دوائر المسيحيين فقد شوه الفيلم صورة السيد المسيح .. «وضع الغاضبون على اليهود مسئولية ما جاء في الفيلم ، والفيلم من إنتاج شركة يتربع على رأسها اثنان من اليهود ، وموزعو الفيلم من اليهود ، والفيلم مأخوذ عن قصة الكاتب اليوناني كازانتاكيس .

وتتوالى ردود الفعل عن الهيمنة اليهودية في نيويورك وبالتحديد في حي بروكلين ، وهو حي يقطنه اليهود والسود وقليل من اليمينيين ، وهو ذاته الحي الذي نشأ فيه الحاخام مائير كاهانا الذي يعد أكثر التنظيمات اليهودية تطرفاً ..

وقع حادث تصادم في هذا الحي راح ضحيته طفل اسود ولقي مصرعه وقائد السيارة أحد اليهود وجاءت سيارة الاسعاف وحملت

السائق وتركت الطفل ، فاشتعلت الاضطرابات ، وتعرضت بيوت ومحال اليهود والكنيس إلى القذف بالحجارة ، قتل خلال الاضطرابات شاب يهودى ، واستمرت أعمال العنف مدة ثلاثة أيام .

وهذا تعبير عن تدهور العلاقات بين اليهود والسود ، يقول ويليم جيبسون الرئيس السابق للمجلس القومى لتنمية الملونين .. «انهيار التحالف بين اليهود والسود عام ١٩٧٨ ، بسبب وقوف اليهود ضد الحصص التى يحصل من خلالها السود على فرصة العمل والدراسة» وأرغمت الخارجية الامريكية عام ٧٩ أندرو يانج صاحب أكبر منصب يشغله أسود فى إدارة كارتر على الاستقالة للقائه مسئول من منظمة التحرير ، وبعدها ظهر القس الأسود جاكسون أقسى نقاد النفوذ اليهودى فى أمريكا ، وفى منتصف الثمانينات ظهر لويس فرقان ،الزعيم الأسود لجماعة «أمة الإسلام» والذى يقف ضد الشواذ واليهود ، والذى أصبح واحداً من أكثر الشخصيات نفوذاً وتأثيراً والذى نظم فى أكتوبر ٩٣ مسيرة المليون فى قلب واشنطن ، وهو أكبر تجمع للسود فى تاريخ أمريكا .

وأخيرا ..

إن يهود أمريكا ومنظماتهم المختلفة هم أحد التروس المهمة فى الآلة الأمريكية المتوحشة ، وإسرائيل الابنة للمشروع الاستعمارى الغربى الذى تقوده اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إن كليهما لهما أهداف مشتركة ، ويقفان على أرضية واحدة ، وما نراه ليس جديداً ، فهكذا كان سلوك اليهود على الدوام ، فمن عصر النهضة حتى صعود الرأسمالية ، تكيف اليهود وأوجدوا لهم مكانة يتوحدون خلالها مع الأقوى أى مع المشروع الغربى العالمى ..

فإسرائيل هى أفضل استثمار للغرب فى المنطقة العربية ، وهى حارسة للمصالح الغربية ، واللقاء بينها وبين أمريكا لقاء مصالح تاريخى ، يقوم على وحدة النشأة ووحدة الفكر والانتماء إلى «العالم الحر» ، فكل من أمريكا واسرائيل قامت بالهجرة والاستيطان والإحلال بالقوة بدعاوى التفوق الحضارى ، ومن ناحية أخرى يهود أمريكا هم امتداد يهود إسرائيل ، عاشوا ذات التاريخ .

الباب الرابع

نحن والمستقبل

عالم جديد .. عصر جديد
حضارة جديدة

كتاب جديد ، أو مفاجأة بكل المقاييس ، إنه تلخيص وتجميع لأعمال «ألفن توفلر» بين دفتى كتاب ، يضع أفكاره أمام قراء العربية ، وجاءت الترجمة مفاجأة أخرى فى دقتها وسرعتها والجهد المبذول فيها ، والتى قام بها أحد المثقفين البارزين الاستاذ سعد زهران .

يرتدى المؤلف ثوب المبشر الذى ينادى بنظرية جديدة وعالم جديد وعصر جديد وحضارة جديدة ، عالم أكثر بهجة يتمتع فيه المرء بوقت فراغه ، ويعيش رفاهية أكبر ومشقة أقل .

خاصة وأن القرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه للقادمين ، ولم يبق من القرن العشرين سوى أربع سنوات ، والعد التنازلى يوشك أن يتم ، والتغيرات عاصفة من حولنا ، تبدو أسرع من البرق ، وأعجب من الخيال ، تفوق كل التوقعات ، لذا اقترن هذا العصر بـ «عدم اليقين» رغم أن التغير لا يتوقف أبدا .

والتغيرات التى نشهدها تشمل العالم بأسره ، المراكز والأطراف ، عالم المتقدمين والمتخلفين معا ، فهى نتيجة التطورات العلمية والتقنية التى لا يقف تأثيرها عند حد ، والتى تبدو معالمها فى ثورة التكنولوچيا وثورة المعلومات .

قوانين التغير

قدم «ألفن توفلر» نظرية متماسكة حول المستقبل ، بعقل نافذ وبصيرة ثاقبة ، يجيب عن الكثير من التساؤلات التي تظهر مغزى ما يجرى فى العالم ، يكشف عن قوانين التغير ، ويقدم طريقة للتعامل مع هذه القوانين اعتمادا على استقراء الواقع ومعرفة التاريخ ومن يتابع كتاباته يلحظ القدرة الفذة على قراءة المتغيرات والربط بينها ، واستخلاص نظرية تستحق التأمل والحوار ، وتحيزه لا يقتصر على أن لديه فقط ما يقول ، بل ويعرف كيف يقوله .

وعندما نشد رحالنا لبدء الرحلة المبهرة فى الألف سنة المقبلة نرى أن للفكر والفن مكانا بارزا فى نظرية توفلر ، وعلى المفكرين أن يستعدوا لما يمكن أن يكون أكثر الرحلات متعة وإثارة فالتغير المستمر ، يؤكد الحاجة الدائمة إلى مراجعة أفكارنا ومفاهيمنا ، ونبدلها وفقا للخبرة والتجربة .

وهذا الكتاب يثير من الأسئلة بقدر ما يقدم من الاجابات ، ويصعب أن تعثر على إجابات حاسمة ، والاجابات التى يقدمها توفلر تحرض على المزيد من الأسئلة فتأثير التقدم العلمى والأقمار الصناعية والانترنت يصل إلى كل مكان ، وألقت هذه المستحدثات بظلها على كل مظاهر الحياة ، وفسرت كل ما يقع فى العالم من أحداث بعد أن كان النصف الثاني من القرن العشرين من أعظم فترات التقدم العلمى والتكنولوچى ؛ وسيساعد استخلاص النتائج على هذه الانجازات فى استقراء القرن المقبل «عصر المعلومات» أو «عصر ما بعد الصناعة» الذى يدور محوره حول المعرفة ، تلك المعرفة التى تحقق السيطرة الاجتماعية وتوجه الابداع والتغيير الاجتماعى ، بعد تحول القطاع الاقتصادى من إنتاج السلع إلى تقديم الخدمات وسيادة طبقة التقنيين والمهنيين بدلا من أصحاب الأموال والعمال والفلاحين !.

فاستخلاص المعارف من المعلومات هو محور نشاطات المستقبل ، وتعنى المعارف أن رأس المال «البشرى» حل محل رأس المال «النقدى» ، فيستخلص الإنسان المعارف من المعلومات ، ويعود للإنسان اعتباره بدلا من الآلة .

ويؤكد «توفلر» أن الأزمات المتلاحقة التى تعيشها الولايات المتحدة ، ليست سوى مخاض يسبق ظهور نظام كونى جديد ، يواجه عدة أزمات لم يسبق لها مثيل بعد أن تفرد المجتمع الأمريكى طويلا بالقدرة على حل الأزمات أو التعايش معها ووصلت هذه الأزمات إلى النظام الأسرى والصحى والتعليمى ، ولا يعنى ذلك أن أمريكا فى طريقها إلى الانهيار ، أو أن ذلك نهاية التاريخ ، فأزمات أمريكا ليست نتيجة إخفاقها ، وإنما نتيجة نجاحاتها المبكرة ، وليست أمريكا فى نهاية التاريخ ، بل تعيش ما قبل التاريخ ، والصعوبة أن أدوات التحليل التى بين أيدينا لم تعد صالحة للتحليل ، وغدت مصطلحات مثل اليمين واليسار ، أو الليبرالى والمحافظ بلا معنى ، نجد البلاشفة الروس رجعيين والإصلاحيين الأمريكان راديكاليين ، والأخطر ما نراه من انتقال السلطة السياسية من الكونجرس والبيت الأبيض والأحزاب السياسية إلى أجهزة الاتصال والجماعات الأهلية التى تربطها شبكات الكترونية واسعة ! .

ويصعب فهم هذه الظواهر فى هذه المرحلة من التغيرات السريعة والآمال المحبطة والصراعات التى يتقابل فيها الأخوة، من غير السعى لفهم متكامل للقرن الحادى والعشرين .

ويقدم «توفلر» إطارا ومنطقا لعملية التغيير ، يجعلنا نستطيع أن نقدم على خطوات عملية من أجل إحداث تغييرات أعظم تنتظرنا فى المستقبل ، وتجعلنا نتمكن من السيطرة عليها وتوجيهها ، بدلا من أن نكون من ضحاياها .

صدمة المستقبل

أقول : جاء هذا الكتاب تلخيصا لأعماله السابقة ، ويتضمن رؤية متكاملة اكتملت على مراحل ، كانت البداية عندما قدم ألفن وهايدى توفلر نظريتهما فى كتاب «صدمة المستقبل» سنة ١٩٧٠ ، وفيه مفتاح لما يبدو كأنه عشوائية وفوضى ، ويربط الكثير من الشواهد التى تبدو متفرقة بتفسير ورؤية لمستقبل مثير .

وأتبعاه بكتاب آخر عام ١٩٨٠ بعنوان «الموجة الثالثة» ، يشرح فيه أن الثورة الزراعية صنعت «الموجة الأولى» فى تحول التاريخ ، أعقبها الثورة الصناعية التى بدأت منذ ٣٠٠ سنة ومعها «الموجة الثانية» وحان الوقت لتحرك «موجة ثالثة» وظهور حضارة جديدة .

وكانت إشارة البدء فى ظهور الموجة الثانية هى قوانين نيوتن وما استتبعها من استخدام الآلة وبناء المصانع ، وما صاحب ذلك من ظهور أفكار مثل فكرة التقدم واحترام حقوق الإنسان ، والعقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، وضرورة انتخاب الأهالى لحكامهم بعد أن استقر فى الوجدان العام أن القيادة ليست حقا مقدسا لأحد .

ونحن اليوم أمام ثلاث موجات ، وثلاث حضارات ، الأولى ورموزها الفأس أو الأرض ، والثانية ورمزها المصنع أو خط الانتاج ، والثالثة ورمزها الكمبيوتر والطرق والممرات الإلكترونية، ويوفر قطاع الموجة الأولى الموارد الزراعية والمعادن، ويقدم قطاع الموجة الثانية العمل الرخيص والانتاج الكبير ، أما الموجة الثالثة فتسود فيها الطرق الجديدة الناتجة من المعرفة .

وعالم الغد عند «توفلر» ينتقل من النمطية إلى التنوع ، وتجد اليوم فى السوبر ماركت حوالى مائة ألف صنف ، ومن المركزية إلى اللامركزية ، ومن العمل اليدوى إلى العمل الفكرى .

أمريكا .. إلى أين ؟!.

يستخلص «توفلر» مما يدور حوله نظرية متكاملة فعقب سقوط الشيوعية يعاد النظر فى الليبرالية وقوانين السوق ، ويتحاور مع غيره حول الأزمة الراهنة وخاصة الذين قدموا معالجات للحالة الأمريكية الراهنة ، مثل بول كيندى ويوكاهاما .

يقول عن المجتمع الأمريكى .. «إننا نعيش مخاض حضارة جديدة ، ولم يوجد بعد فى أمريكا القوة الجديدة التى تعبر عن «الموجة الثالثة» وعندما تتوافر سيكون لها الهيمنة وصاحبة المستقبل ، وعندها ستقوم أمريكا جديدة ، أمريكا مبهرة ، وتنهض من خرائب وأنقاض أواخر القرن العشرين ومازال الديمقراطيون يتحدثون عن إعادة تصنيع أمريكا ، وهذا يعنى - حسب تحليل توفلر - عودة مستحيلة إلى اقتصاد الموجة الثانية ، ومن ناحية أخرى تجاوب الجمهوريون مع مشاعر الحنين إلى الماضى ، الحنين إلى الحضارة والقيم القديمة ، كما لو كان من الممكن العودة إلى القيم والمعايير الاخلاقية للخمسينيات ، أى قبل ظهور شبكات التليفزيون والأقمار الصناعية والكمبيوتر المنزلى ، ودون العودة إلى الموجة الثانية ، أما الجناح المستند إلى الدين

فى الحزب الجمهورى فيسعى إلى العودة إلى «الحقيقة الموروثة» ويلوم الجمهوريون الليبراليين على الانهيار الأخلاقى ، بدلا من البحث عن كيفية بناء أمريكا ديمقراطيا ، والدفع للوصول إلى حضارة «الموجة الثالثة» ، وما تؤدى إليه من إقامة مجتمع عادل وفاضل .

فتستطيع الموجة الثالثة أن تحمل أمريكا إلى مستقبل أفضل ، مستقبل أكثر لطفا وتهذيبا ، وتعيش أمريكا اليوم آلام الوضع لحضارة جديدة لا تزال مؤسساتها لم تأخذ وضعها بعد .

فأمريكا هى البلد الذى يأتيه المستقبل قبل سواه ، فإذا عانينا من انهيار مؤسساتها القديمة ، فإننا أيضا لابد أن ندرك أننا رواد حضارة جديدة ، ولا يوجد بعد من يملك اليقين أو الحقيقة للإجابة عن سؤال : إلى أين نحن ذاهبون ؟ . أو حتى إلى أين يجب أن نذهب ؟!

مستقبل أمريكا

ومن اللافت للنظر الطريقة التى تعامل بها المجتمع الأمريكى مع هذه الأفكار ، فبعد تقديم «ألفن وهايدى توفلر» أفكارهما ،

ونشر كتابهما الأول «صدمة المستقبل» لم يقتصر المجتمع الأمريكى على مناقشة هذه الأفكار فى الجامعات ، ومراكز البحوث الاكاديمية ، وإنما سرعان ما تكونت جمعيات لنشرها وكسب المؤيدين لها ، وتحويلها إلى برامج عمل وبرامج زمنية واستفاد رجال الأعمال والمنشآت الاقتصادية من هذه الأفكار أخذوا يعيدون هيكلة منشآتهم استعدادا للقرن القادم ، وقام البيت الأبيض والكونجرس ووزارة الدفاع بعقد الندوات ودعوة أصحاب هذه الأفكار لمناقشتهم .

ونظم بعض أعضاء الكونجرس عام ١٩٧٥ مؤتمرا حول المستقبل ، وأدى إلى إقامة «البيت البرلمانى لاستشراف المستقبل»، اشترك فى رئاسته فيما بعد آل جور نائب الرئيس الأمريكى ، بل وناقش البعض هذه الأفكار بغلظة وسخرية مثل دونالد ريجان كبير موظفى البيت الأبيض فى عهد رونالد ريجان ، عندما دعا البيت الأبيض مجموعة صغيرة حول مائدة الطعام بالبيت الأبيض لمناقشة المستقبل بعيد المدى ، وضمت إلى جانب الرئيس نائبه وثلاثة من أهم مساعديه وفجأة قال دونالد ريجان بحدة هل تقنعوننا أننا بسبيلنا أن نفقد أعمالنا ، ويحلق بعضنا شعر

البعض الآخر ، ونبيع الهامبورجر ؟! وهل سنكف فى النهاية على أن نكون دولة صناعية كبرى ؟!»

وبعدها اشترك الكاتب في تنفيذ نموذج مستمد من الموجة الثالثة مع قيادة التدريب والعقيدة العسكرية في الجيش الأمريكى فى أوائل الثمانينيات .

مستقبل الأخلاق

وأهم سمات التغير فى عصرنا كما يرى «توفلر» - تسارع - إيقاع الأحداث ، مما يؤثر حتى على قيمة الكتب ، فما يكاد يمضى شهر حتى يظهر كتاب جديد ينسخ ما قبله ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى أن نفرق بوضوح بين سياسيين ينظرون إلي الوراء ويرغبون فى استعادة ماض غير قادر على الاستمرار ، وبين أخرين على استعداد لإحداث الانتقال إلي مجتمع الموجة الثالثة ، ولا يقتصر تأثير الموجة الثالثة على التكنولوچيا والاقتصاد ، بل تشمل على تهذيب الأخلاق والارتقاء بالثقافة ، كما تؤثر على الأبنية السياسية والمؤسسات ، فهى تتضمن تغييرا جوهريا فى كل ما يتعلق بشئون البشر ، وكما قضت الثورة الصناعية على كثير من الابنية السياسية التى سبقتها ، أو جعلتها غير ذات

موضوع ، فإن الموجة الثالثة ستكون لها نتائج مشابهة ولن يقدر على البقاء وصياغة المستقبل سوى القوى السياسية التى تعترف بهذه الحقيقة التاريخية ، أما أولئك الذين سيفشلون فستدور بهم دوامة التاريخ ويهبطون فى بالوعته !

فإذا استغرقت الموجة الثانية وصعود الحضارة الصناعية ثلاثمائة عام ، فالموجة الثالثة تستغرق وقتا أقل ، فالتاريخ اليوم أعظم تسارعا ، ولا تحتاج الموجة الثالثة أكثر من بضع عشرات من السنين ، وكل من يقدر له أن يعيش على ظهر هذا الكوكب فى هذه اللحظة المتفجرة والمتألقة سيشعر بالصدمة فى حياة هذا الجيل .

فهذه الحضارة الجديدة لها رؤيتها المميزة للعالم ، وطرقها الخاصة للتعامل مع المكان والزمان ، ولها منطقها الخاص ، ولها أيضا مبادئها الخاصة لسياسات المستقبل .

وربما كانت العقود المقبلة مليئة بالاضطرابات ، بل وربما مظاهر العنف ، إلا أن التغيرات التى نواجهها ليست عشوائية وإنما هى أجزاء يتشكل منها نمط يمكن التحقق منه ، وهذه التغيرات تتراكم وتضيف باستمرار إلى التحول القائم ، وهذا يؤكد

أن مستقبلا عقلانيا أمر ممكن ، وما نشهده اليوم ليس أكثر من ثورة عالمية وقفزة نوعية ضخمة إلى الأمام ، ونحن أيضا الجيل الأول فى حضارة جديدة بازغة . وهذا الفهم يظهر أن كثيرا من الأحداث التى تبدو بلا معنى تصبح مفهومة ، وتبدأ فى الظهور والنمو أنماط ونماذج للتغيير ، وتحرر البشائر الثورية إرادتنا وملكاتنا الذهنية .

حكم الزمن

واليوم يصيب الدوار كل بلاد التكنولوچيا المتطورة ، بسبب التصادم بين الموجة الثالثة الصاعدة واقتصاديات الموجة الثانية المنسحبة ، وهذا هو المفتاح الذى يعطى سر الكثير من الصراعات الاجتماعية والسياسية الدائرة حولنا . وهذا هو التصادم الذى يولد أشكالا من التوتر الاجتماعى والصراعات الخطرة ، وظهور موجات سياسية جديدة تتعدى الحواجز والخطوط بين الطبقات والأجناس والأحزاب ، وبين الرجال والنساء ، وخلال هذا الصدام يصعب التمييز بين الأصدقاء والأعداء ، وتنهار كل الاستقطابات والتحالفات القديمة . ويجب أن نمسك بزمام التغير فى أيدينا ، وأن نميز بوضوح بين التغيرات التى يمكن أن تمد

عمر الحضارة الصناعية القديمة ، وتلك التى تسهل مجئ الحضارة الجديدة .

صراع الحضارات

يعتبر «توفلر» حرب الخليج هي أول حرب تقوم على منجزات الموجة الثالثة ، ويبين ذلك فى كتاب له عنوانه «الحرب نقيض الحرب» والذي عرضته مجلة الهلال فى ثلاثة أعداد متتالية بداية من يناير ١٩٩٤ وقدمه د. أحمد مستجير .

يذكر «توفلر» أن المستقبل سيمكننا أن نصلح ما أفسده التلوث فى العصر الصناعى ، وأن نصنع تكنولوچيا نظيفة تساهم فى تقدم البشرية وسيمكن فى القرن القادم أن يساهم التنوع الثرى للحضارات والشعوب في صنع المستقبل . قرن يمكن فيه أن نوقف نزيف الدم الذى تسببه الحروب فما يصنع السلام هو ما يقوم به السياسيون والعسكريون لخلق الظروف التى تمنع الحرب وتحد من انتشارها ، وما نحتاج إليه هو ثورة موازية فى الطريقة التى نصنع بها السلام ، فالصيغ الجديدة للحرب تتطلب صيغا جديدة لصناعة السلام ، وسيأتى اليوم الذى يحمل فيه الجندى الكمبيوتر بدلا من المدفع .

الغرب والاسلام

ويرد «توفلر» على كل من هنتنجتون وبرنارد لويس أصحاب نظرية صراع الحضارات ، اللذين يتوقعان نشوب الصراع بين الغرب والاسلام ، ويؤكد .. الصراع يقع نتيجة التغيرات الكبيرة التى تحدثها الموجة الثالثة . فالموجة التاريخية حركة ، وعند اصطدام موجة بأخرى تتولد تيارات قوية متلاطمة .. فالصراع الأساسي الذى نواجهه ليس بين الاسلام والغرب أو بين الأخر والغرب ، وليس لأن أمريكا تمر بحالة تدهور كما أعلن بول كنيدى ، ولا لأن أمريكا تواجه نهاية التاريخ ، كما يرى فوكاياما ، إنما هو انقسام العالم إلى ثلاث حضارات ناتجة من ثلاث موجات .

وفى الماضى انتصر معاصرو الموجة الثانية على تقليدى الموجة الأولى وبعدها شنت دول الموجة الثانية حروب التوسع الاستعمارى ، واخضعت دول الموجه الأولى والوحدات القبلية والعشائرية فى كل أرجاء آسيا وأفريقيا . إذن فالصراع القائم هو بين الذين يحاولون الإبقاء على الحضارة الصناعية ، وأولئك الذين يحاولون إحلال حضارة جديدة مكانها ، وهذا

يساعد على فهم كثير من الظواهر ، مثل اشتعال حركة القوميات، فالقومية هى أيديولوجية الدول الأمة ، التى هى نتاج الثورة الصناعية ، والصراع السياسى الدائر حولنا ، ليس صراعاً بين الاغنياء والفقراء ، ولا بين الجماعات العرقية المنتصرة وتلك المغلوبة ، ولا حتى بين الرأسمالية والاشتراكية ، إنما هو صراع بين هؤلاء الذين يحاولون أن يسندوا المجتمع الصناعي ويحافظوا على بقائه ، وأولئك المستعدين لتجاوزه والتقدم إلى الأمام ، وهذا هو صراع الغد الأكبر .

ففى اقتصاديات الموجة الثالثة ، كان امتلاك السلع والبضائع هو المقياس للثروة وانتاج السلع هو الشيء المركزى فى الاقتصاد ، وعلى النقيض كانت الانشطة التى تتعامل مع الرموز والخدمات ، توصف بأنها غير منتجة ، وكان انتاج السيارات والراديوهات والتركتورات والتلفيزيونات هى التى ينظر إليها باعتبارها نشاطا مهنيا تلحق به صفات مثل، عملى ، واقعى صلب وعلى العكس كان انتاج المعارف وتبادلها يقلل من قدر صاحبها باعتباره ليس إلا مجرد « تحريك أوراق» وترتب على ذلك أن الأشياء المحسوسة هى الأكثر أهمية ، وأن

الثروة القومية تتدفق من فائض تجارة السلع ، وأن التعامل فى الخدمات لا أهمية له إلا بقدر ما يسهل التعامل فى البضائع ، وأن غالبية التعليم تبديد إلا إذا كان مهنيا ، وأن البحوث ، العلمية جرى وراء خيال ، وأن الفنون واللغات والعلوم البحتة والفلسفة والتاريخ لا حاجة إليها لتحقيق نجاح الأعمال ، إن لم تكن مقصورة على المثقفين المتعلقين بقيم الطبقة الوسطى ، وإنما كان لهم نظائر فى العالم الشيوعى ، فقد عانى المخططون الماركسيون فى محاولة ادماج الأنشطة الراقية فى مخططاتهم ، وانتجت الواقعية الاشتراكية آلافا من صور العمال السعداء ، وقد انتفخت عضلاتهم مع خلفية من التروس والمداخن والقاطرات .

وبالفعل جاء وقت كان يمكن أن يكون فى هذه المادية شىء من القبول ، أما فى أيامنا هذه ، وبعد أن أصبحت القيمة الحقيقية للمنتج تتركز فى المعارف التى هى جزء من تكوينها ، فإن هذه المادية تصبح رجعية وبلهاء معاً .

ويمكن فى الموجة الثانية باكراه العامل المتكدر على الانتاج، وفى الموجة الثالثة فإن العامل المنشرح يمكن أن يكون أكثر

إنتاجاً من اليوم وعلى امتداد المستقبل كله سيكون تجسيد القيمة وتعظيمها متوقفا على المعرفة ، لا على العمالة الرخيصة ، وعلى الرموز لا على المواد الخام ، وأن إعادة النظر في مصادر القيمة المضافة تترتب عليها نتائج مهمة وكثيرة ، وتتحطم الفرضيات التى قامت عليها الماركسية والسوق الحرة معاً . والمادة التى هى أصل الاثنين !

وما نشاهده اليوم هو تجمع قوى لتغييرات الموجة الثالثة ، تحول الانتاج يأتى من تحول رأس المال والنقود ذاتها ، وهى كلها تشكل نظاما ثورياً جديداً لخلق الثروة على هذا الكوكب .

وأهم شكل للملكية اليوم أصبح هو الشكل غير الملموس ، إنه المعرفة . وهذه المعرفة يمكن أن يستخدمها عدد كبير من الناس فى الوقت نفسه لخلق الثروة ، ولانتاج المزيد من المعرفة أيضا إنها ليست كالمصانع والمزارع ، فالمعرفة لا تستنفد ، وإنتاج الموجة الثالثة . تجرى نسبة كبيرة منه فى المنازل والمكاتب والسيارات والطائرات .

بيت العائلة

وقبل الثورة الصناعية ، كانت الأسرة كبيرة العدد ، وكانت الحياة تدور حول البيت وفى البيت ، وكان البيت مكانا للعديد من الأعمال ، والمكان الذى يعالج فيه المرضى ، ويربى فيه النشئ ، وكانت الأسرة الكبيرة هى النواة ، ثم جاءت الموجة الثانية . فانتقل العمل إلى المصنع أو المكتب ، وذهب المرضى إلى المستشفيات والتلاميذ إلى المدارس ، والزوجان إلى السينما والمسنون إلى دور الرعاية ، ولم يبق فى البيت إلا الأسرة الصغيرة ، التى لم تعد تربطها أعمال يقوم بها اعضاؤها معا كوحدة ، وإنما هى روابط سيكولوجية هشة .

وتعود مع الموجة الثالثة للأسرة والبيت نفوذهما ، وتعود العديد من الوظائف المفقودة التى يسترد بها البيت مركزه فى المجتمع ، ويقدر اليوم عدد الأمريكيين الذين يقومون بجزء من عملهم فى المنزل بثلاثين مليونا . وهم الذين يستخدمون الكمبيوتر والفاكس ، ويفضل البعض تعليم أولادهم فى المنازل ، وتوجد اليوم بالنسبة للمرضى الكثير من المهمات الطبية : مثل متابعة الحوامل وقياس ضغط الدم ، التى كانت تتم قبلا فى المستشفيات أو العيادات ،

وها هى ذى تعود مرة أخرى إلى البيت ، وهذا معناه عودة الأسرة الكبيرة إلى بيت العائلة ..

ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس المتعلمين تعليما معقولا ، والمسلحين بالأفق الواسع من المعارف الغزيرة ، ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس الذين يتمعتون بهذا المستوى العالى من الوفرة ، لتوفير الوقت والطاقة لكى يعطوا من فكرهم وجهدهم للقضايا العامة ، ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس القادرين على الوظائف حول العالم وتعليم أشياء كثيرة من الثقافات الأخرى ، وفوق كل هذا لم يوجد من قبل أمام هذا العدد فرصة أن يجنى الحصاد ، إذا ضمن إحداث التغييرات الضرورية بالوسائل السلمية ..

هذا عما يتوقعه حول مستقبل الغرب ، ولكن ماذا عن مستقبلنا ، ماذا عن المستقبل العربى ؟ فمن المؤكد أنه لا يمكن تصور مستقبل مصر ، ودخولها إلى القرن القادم إلا عبر بوابة الحاضر ، أى دون محو الأمية ورفع مستوى التعليم والحفاظ على الخضرة وحماية البيئة .

وإذا لم تسرع الدولة النامية وتلحق بركب التقدم فسيظل خطر تعرضها لفيض هائل من المعارف القادمة إليها من خارجها وتبقى في موقع المتلقى !

وبما يحمله ذلك من مخاطر ..

كما يعنى تحليل توفلر استمرار الصراعات فى البلدان العربية سواء صراع داخلى أو صراع فيما بينها ، إنه صراع بين الموجات الثلاث فمازال فى الدول العربية من يعيشون ويموتون فى مجتمعات زراعية متخلفة ، ولا يوجد بلد عربى واحد يمكن وصفه بأنه بلد صناعى متقدم .

هذا إلى جانب قصور المجتمعات العربية عن تقديم تصورات أو مشروعات ملهمة نحو آفاق المستقبل . بعد أن شهدنا القصور فى التعامل مع الواقع .

ولكن استمرار الحال من المحال .

وبعد ...

فإنه كتاب لابد أن يقرأ فهو منشط للعقل ، دافع للتفكير والتأمل .

أمبراطورية العقل
من يملك المعلومات يسيطر علي العالم ..

نستكمل هنا كتاب «تحول السلطة» لكاتبه ألفين توفلر، ترجمة لبنى الريدى..

يلاحظ أن أكثر المسائل اللافتة فى كتابه أن الوقائع التى يتناولها تقوده إلى نظرية تحول السلطة التى يصل إليها من خلال رصد الظواهر، ثم وضع القواعد التى تحكمها، فمؤلفاته ليست نظريات فقط ولكن محاولة اكتشاف الجديد.

ويمسك الكاتب باقتدار بمفاتيح المستقبل عند معالجته خمائر التغيير وبؤر التحول فى النظام الراهن، والتى تصنع نظام الغد، لذلك لم يكن غريبا ما تحقق من نبوءاته ، فكثير من القائم اليوم لم يكن مكتشفا وقت كتابة مؤلفه ، ولم يكن الإنترنت قد أحدث ثورته، ولم تكن التقنية اللاسلكية الرقمية معروفة، ولم تكن الهواتف المحمولة قد انتشرت، ويدعو الكاتب إلى أن تتوافر الرؤية الثقافية التى تشكل أساس ثورة المعلومات والكشف عن كل أبعادها، ويولى اهتماما لثورة الاتصالات ، فى عصر الأقمار الصناعية والحاسبات الآلية.

فـإذا اتفقنا أن هناك تحـولا للسلطة وانتـقالا عـسيرا لهـا من طرف إلى آخـر، بعد أن غـيـرت ثورة المعلومـات والاتصـالات القـوة النسـبـيـة للعـقل، وأصـبـحـت المعلومـات هـى الأداة الرئيـسـيـة التى تساعد على تحول السلطة وانتقالها . فيظهر سؤال: ما هو مستقبل النظم القـائمـة؟ خـاصـة بعد نـهـاية الأيدلوجـيـة والتـاريخ والحـرب الباردة؟ كما يرى الكاتب الأمريكى.

وتـأتى الإجـابة من خـلال التـحـدى الذى يواجـه الديمـقـراطيـة الجماهيرية الموجودة في العالم الصناعى، وتطرح للبحث الأوضاع الاقتـصـادية المعتمدة على الحاسب الآلى وكثـافة الاتصالات وكل وسائل الدفاع التى كانت تملكها الديمقراطية وتضعنا أمام تحدى إعادة تعريف هذه الوسائل فى صيغ جديدة.

وإحدى سـخريات التـاريخ، أنه بينمـا يطمح المواطنون بشـغف إلى حـرية لم يملكوهـا كـاملة، تواجـه الديمـقـراطيـات فى الغـرب واليـابان أزمـة داخليـة طاحنة، تكاد تصل إلى نهـاية عـصـر ديمقراطية الجماهير.

فـمـعـروف أن أى نظام يـقـوم على التـوافق بين الطريقـة التى ينتـج بها الشـعـب ثـورته والطريقـة التى يحكم بها نفسـه . فـإذا

تنافر النظام السياسي مع النظام الاقتصادى فلابد من أن يحطم أحدهما الآخر.

ويدور الصراع اليوم بين القديم والجديد من أجل السلطة تحت مسميات شتى مثل القومية أو الدين أو الحقوق المدنية. وهو جزء من صراع تاريخي جديد لإعادة بناء المؤسسات السياسية حتى تتوافق مع الاقتصاد الثورى الجديد.

والعدد الكبير من المشكلات المتراكمة التي تواجهها المجتمعات الصناعية هي في حقيقتها أعراض هذا الصراع. وقد تكون هذه الأزمات غير قابلة للحل في إطار المؤسسات القائمة.

تفكك المجتمع!

تقوم ديمقراطية الجماهير على الأحزاب السياسية الجماهيرية ووسائل الإعلام، ولكن ما الذى يحدث عندما يتفكك المجتمع الجماهيرى إلى فئات وطوائف وجماعات متباينة ويفقد ما يجمعه. فهل يستمر الحديث عن «الجماهير»؟

فبعد أن أصبحت التقنية الحديثة تتيح صنع المنتجات وفقا لطلبات المستهلك وتجزأت الأسواق إلى منافذ بيع متخصصة. وتضاعفت وسائل الإعلام التى تخاطب كل منها جمهورها

الخاص. فإذا كانت الثقافة غير متجانسة فى المجتمع ، فلماذا يصر النظام السياسى على افتراض وجود جماهير متجانسة؟ بعد أن أصبح تحقيق إجماع جماهيرى حول قضية ما أمرا عسيرا ، وبالتالى سيؤدى تفكك المجتمع إلى أن تصبح الحياة السياسية أكثر تعقيدا .

ويعالج الكتاب فى هذا السياق قضية تعنى الدول الصغيرة فى المقام الأول، هذا عندما يقول: «فى ظل الروابط العالمية التى تربط أجزاء الكرة الأرضية بعضها ببعض، تستطيع المصالح الأجنبية بسهولة أن تمد جماعة صغيرة دينية أو عرقية بالمال أو بأى صور المساعدة بحيث يتضخم حجمها بدرجة هائلة، وهذه التجمعات العرقية أو الدينية لا قيمة لها فى الظروف العادية، ولكن تستطيع أن تبلغ مرحلة الانطلاق عندما تكون الأحزاب الرئيسية فى حالة شلل أو إخفاق انتخابى، ويكفى انضمام حليف صغير لترجيح ميزان السلطة العليا لصالحها .

الحكومة الخفية

وفى الديمقراطية الجماهيرية تتغير الحكومات ويبقى النظام راسخا بفضل البيروقراطية أو الحكومة الخفية، وفى أوقات

الاضطراب يصبح واضحا أن تجاوز الوزارات والادارات الكبرى هو الوسيلة الوحيدة لانجاز شئ ما ويجب أن يصاحب الانتقال من ديمقراطية الجماهير إلى الديمقراطية الجديدة الفسيفسائية صراع من أجل السيطرة على النظام بين المسئولين السياسيين والبيروقراطيين.

فمثلا يتغير فى الولايات المتحدة الرئيس الأمريكى وتبقى الحكومة الخفية التى تخلصت يوما من الرئيس كينيدى عندما خرج عليها، وغالبا ما يعمل الحكام الحقيقيون فى الخفاء.

ويظل القائد أسيرا للنظام، حتى وإن كان أكثر القادة شعبية ومن أكثرهم مكانة، والنظام هنا لا يعنى النظام الرأسمالى أو الاشتراكى وإنما النظام البيروقراطى؛ وأيا كان عدد الأحزاب التى تتقدم للإنتخابات وأيا كان الحزب الذى يحصل على الأصوات فإن الحزب الفائز دائما هو حزب البيروقراطية الخفى.

وأهم أدوات التحول من الديمقراطية الجماهيرية إلى الديمقراطية الفسيفسائية يتركز على المعلومات فإننا ندخل عصرا تفرض نفسها تكتيكات المعلومات على المصانع الفكرية التى يطلق عليها الدولة ، الأمر الذى يرفع لعبة السلطة إلى

مستوى أعلى ، لا تعدو فيه الحيل والأساليب الميكيافيلية سوى أن تكون ألاعيب أطفال فقواعد الصراع من أجل السلطة أصبحت معها المعرفة هى المصدر الرئيسى للسلطة.

لعبة المعلومات!

إن هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر الإعلام الفورى، إعلام يبث وابلا متصلا من الصور والرموز التى تسعى إلى الاستئثار باهتمام المتلقى، وكلما تقدم مجتمع المعلومات وتضاعفت البيانات والمعرفة المستخدمة، تصبح معرفة حقيقة ما يدور أصعب حتى على القادة السياسيين، وأهم أدوات السلطة خلال الأزمات السياسية هو التلاعب بالمعلومات قبل وصولها إلى وسائل الإعلام وكذب وافتراء كل ما يقال عن شفافية الدولة والمواطن المطلع أو حق المواطن فى المعرفة.

وحجب المعلومات هى أقدم وسائل اللعبة وأكثرها انتشارا، فتصنف الحكومة الأمريكية حوالى ٢٠ مليون وثيقة سنويا تحت عنوان سرى، وهذه السرية هى إحدى الأدوات المألوفة للقمع والفساد، فى عالم حافل بساسة تربطهم علاقات بعالم المخدرات ومهووسين دينيين يدعون إلى القتل، فى عالم كهذا يصبح من الضرورى الالتزام بالسرية للحفاظ على الأمن.

وأهم صفات ومهارات رجل الدولة والبيروقراطي هو معرفة كيف ومتى يستخدم السرية ، وعلى النقيض تمثل عمليات التسريب الموجه صواريخ معلوماتية يتم إطلاقها عن عمد لتصيب أهدافا محددة.

وتظل السرية وعمليات التسريب أهم أدوات الحروب السياسية والبيروقراطية، يضاف إليها إحدى وسائل التلاعب فى المعلومات عن طريق اصطناع المصدر المقنع والتحكم فى المعلومات التى تصل إلى الرئيس، وهى طريقة معروفة على جميع المستويات ابتداء من السكرتيرة إلى المسئولين فى أعلى المناصب.

ويتلاعب الجميع مع سؤال.. من يحتاج أن يعرف..؟ وبناء على مسألة تقديرية تحجب عن البعض دون البعض الأخر. وهو الأسلوب المفضل عند أجهزة المخابرات وشبكات الإرهابيين والحركات السرية، ويستخدم المرءوسون أسلوب «من لا يحتاج أن يعرف» لحماية رؤسائهم، فإذا لم يبلغ الرئيس بالمعلومات فإنه يستطيع أن يدافع عن نفسه إذا ساءت الأمور.

ولقد كان ونستون تشرشل على حق فى رفضه للتقارير التى تم فرزها وهضمها وإصراره على الإطلاع على الوثائق الأصلية، حتى يمكنه الوصول إلى النتائج والحقائق الخاصة به.

شفافية أم تعتيم

إذا كنا لا نرى الرؤساء أو القادة يضربون بأناملهم على مفاتيح الكمبيوتر، إلا أنه نادرا ما يتخذ القادة قرارا لا يعتمد على بيانات تمت معالجتها بواسطة متخصصين سواء أكان هذا القرار يتعلق باختيار طائرة مقاتلة أم بالسياسة الضريبية ، ويظهر هنا دور المعلومات فى اتخاذ القرار وممارسة السلطة ، وتتعرض المعلومات أحيانا لتلاعب بارع وخفى أو إلى التحريف المتعمد الذى يستخدمه السياسيون والقادة فى حرب المعلومات.

فالمعرفة السياسية لا تصل إلى أصحاب القرار إلا عبر متاهة من المرايا المحرفة - المقعرة أو المحدبة - تشوه الصورة أو تبالغ فيها .

وهكذا نرى أنه بالرغم من المناداة بالشفافية وبالرغم من القوانين الخاصة بحرية الصحافة ، تظل عمليات تسريب المعلومات رغم الجهود التى تبذلها الحكومات من أجل الحفاظ على أسرارها والحقيقة أن الأمور تزداد اعتاما بدلا من أن تزداد شفافية بفضل من يمكسون بمقاليد السلطة.

وعلى كل مرشح اليوم أن يأخذ حذره، فما الذى يحدث إذا تم ترتيب الكمبيوتر بواسطة فنيين ومبرمجين يعملون لصالح جهة ترغي فى إنجاح مرشح معين، ويمكن تغيير نتيجة أى انتخابات بإضافة أو طرح عدد محدود من الأصوات من كل دائرة انتخابية، ولا يعلم أحد بذلك.

وهناك سببان رئيسيان للتلاعب فى البيانات، فالكل يعرف المبدأ «إن ما تقيسه هو ما تحصل عليه» السبب الأول هو السذاجة فبالرغم من كل ما تعلمناه عن الطبيعة المشكوك فيها للبيانات المعالجة بواسطة الكمبيوتر، فلايزال الكمبيوتر إلها لا يخطئ (!) كما أن مخططى السياسة لا يبحثون عن الحقيقة وإنما عن ذخيرة لتغذية حرب المعلومات التى يشعلونها.

وفى الماضى وحتى اليوم لا يوجد للسياسة عصر ذهبى كانت فيه نقية طاهرة، فدأب على الدوام من بيدهم السلطة على التلاعب بالحقيقة لخدمة مصلحتهم، وما يتغير اليوم هو المستوى الذى تدور عنده تلك الألعاب الذهنية وتأثيرها!.

وفى دراسة أمريكية عن حرب البيانات أنه يمكن استخدام النماذج للتعتيم على مشكلة أو لتبرير موقف أو تأخير اتخاذ قرار،

فنحن نشهد تطور نوع جديد من الصراع السياسى، حيث يدور الصراع حول افتراضات قائمة مستندة على فروض مخبأة فى برامج معقدة.

من هذا نتبين أن القوانين التى تتخذ وتحد من سبل الوصول إلى أسرار الدولة لا تخدش سوى القشرة الخارجية لمشكلة المعرفة الديمقراطية فالاقتصاد الجديد يتطلب تبادلا حرا للأفكار والنظريات كما يتطلب إعادة طرح مسألة السلطة، فالمعلومات الحكومية يجب أن توضع تحت تصرف المواطن مجانا. وتدور حرب معلومات بين سدنة السرية ومجموعات المواطنين التى تقاتل من أجل المزيد من حرية الوصول للمعلومات.

قدر الجواسيس

وإذا كانت المعلومات أحد مكونات السلطة، فهذا يرفع من قدر الجواسيس، فالتجسس سيكون من أكثر المجالات ازدهارا خلال العقود المقبلة ، فبينما يتبدل المجتمع ليتكيف مع النظام الجديد، سيكسب ذلك بعض أنواع المعرفة السرية قيمة أكبر لمن يحتاج إليها.

وسوف تكون الديمقراطية فى خطر مميت إذا أصبحت عمليات المخابرات متشابكة مع الأنشطة اليومية للمجتمع وممتزجة بالأعمال والمصالح الخاصة إلى درجة تجعل من المستحيل ممارسة أية رقابة فعلية عليها، ولن تستطيع الديمقراطية البقاء بدون أسرار وأجهزة سرية طالما ظلت بعض الأمم تحكم بواسطة طغاة أو جلادين أو متعصبين مسلحين بأسلحة فتاكة.

وتصبح طريقة إدارة هذه الأسرار هى القضية السياسية المحورية لعصر تحول السلطة.

ويبدأ توفلر فصل الجاسوسية بقوله: «يزاول الجواسيس أنشطتهم منذ أن تناول «كتاب الموتى» المصرى القديم موضوع التجسس باعتباره خطيئة تعرض الروح للهلاك، وظلت تكنولوجيا التجسس من أيام الفراعنة وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية بدائية مقارنة بما جاء بعد ذلك، وظل الجواسيس حتى وقت قريب هواة يفتقدون التدريب».

واليوم امتلأت السماء، نتيجة للتقدم التقنى بعيون وأذان تسجل أليا كمية هائلة من البينات، فالأقمار الصناعية والأجهزة البصرية فائقة التطور وغيرها الكثير من معدات الرصد والتصوير

تراقب بشكل مستمر كوكب الأرض، وتغطي أجهزة الرصد السمعية الطرق البحرية الأستراتيجية وتنتشر محطات التنصت والرادار العملاق والعديد من الأجهزة الالكترونية على امتداد الكرة الأرضية.

وبلغ من اتساع نطاق استخدام التقنى وقيمته وقوته إلى أن حولت المخابرات بواسطة البشر إلى مرتبة أدنى، فأجهزة المراقبة التي تملأ السماء تستطيع التقاط كل الرسائل العسكرية والدبلوماسية والتجارية التى يتم إرسالها بواسطة الهاتف والتلكس واللاسلكى وغيرهم من وسائل الاتصال، ولقد تم بالفعل التقاط أحاديث هاتفية بين كبار مسئولى الكرملين وهم داخل سياراتهم والتقاط أحاديث علماء من الصين في موقع التجارب النووية فى لوب نور، ولا يقتصر الحصول على المعلومات من العلماء التقليديين أو التقنية الحديثة فحسب، بل إن قدرا كبيرا من المعلومات ترد من مصادر مفتوحة فى تناول الجميع وتمثل هذه المعلومات المواد الأولية للمخابرات وقد أثبتت التقنية الجديدة المستخدمة فى جميع المعلومات كفاءة متناهية، فهى تقدم كما ضخما من الصور بواسطة الكمبيوتر، وتسجل عددا كبيرا من

المكالمات الهاتفية وتغرق أجهزة المخابرات بطوفان من المعلومات بحيث يصبح مستحيلا معالجتها بكفاءة، إن فيض المعلومات يحدث وبشكل متزايد «شللا فى التحليل».

ويتاجر الجواسيس بالمعلومات فيما بينهم منذ زمن طويل، وكما تفعل الشركات متعددة الجنسيات، فإن وكالات الجاسوسية تشكل تحالفا فيما بينها، فمنذ عام ١٩٤٧ وقعت اتفاقية «أوكاسا» وهى اتفاقية سرية ربطت بين وكالة الأمن القومى الأمريكية ونظيرتها البريطانية وانضمت الكندية والاسترالية والنيوزيلندية، ثم اشتركت دول حلف الاطلنطى فى هذه الاتفاقية.

وتتسم علاقات أعضاء مثل هذا النوع من التحالف بالتوتر، إذ تختلط المعلومات الصحيحة بالمزيفة، كما يتم تبادل الاتهامات بتسريب الأسرار والسماح للأعداء باختراق هذه التنظيمات أو الاحتفاظ ببعض المعلومات المهمة وحجبها عن الحلفاء(!)

ويكشف التاريخ السرى للمخابرات الدولية عن روابط غريبة مثل حالة الاستراليين العاملين فى شيلى تحت قيادة سى.أى.أيه للإطاحة بحكومة الليندى والفرنسيين الذين تعاونوا مع البرتغال والمغرب ، والرومانيين الذين تعاونوا مع منظمة

التحرير الفلسطينية، والإسرائيليين الذين يزودون الولايات المتحدة بكل ما يجمعونه من معلومات(!)

وأصبح للتجسس الاقتصادى مكانة كبيرة بعد أن أضطرت وكالات المخابرات بعد نهاية الحرب الباردة إلى خلق مهام جديدة تبرر ميزانيتها الضخمة، ولكى تحمى الشركات العالمية التى تطالب بدورها بالحماية الحكومية وبالدعم السياسى والمعلومات الاقتصادية.

وسوف يتم استخدام التجسس على نطاق واسع لا لخدمة أهداف الحكومات، بل لدعم استراتيجية الشركات العالمية.

ومنذ زمن طويل تتبادل الحكومات المنافع مع الشركات الخاصة، وفيض الشركات العملاقة توفر الغطاء لعملاء بلادها، مثل ما تقوم به شركة بيكتل التى أبرمت عقودا بمئات الملايين من الدولارات فى الشرق الأوسط ووفرت وظائف اسمية لعلماء سي. أي. إيه وحصلت فى مقابل ذلك على معلومات تجارية قيمة.

ويروى توفلر قصة غريبة عندما يورد حكاية وكالات المخابرات الخاصة التى تقوم بجمع المعلومات وتحليلها وقد أبلغت إحدى هذه الشركات ومقرها فى لونج بيتش بكاليفورنيا فى ديسمبر ١٩٨٠

عملاءها أن الرئيس المصرى أنور السادات سيلقى مصرعه وقدمت هذه المعلومات قبل اغتياله بعشرة شهور، كما تنبأت بغزو العراق لإيران قبل حدوثه بتسعة شهور(!)

ولم تعد اليوم المشكلة الرئيسية البحث عن المعلومات وجمعها وإنما تكمن فى تفسير وتحليل هذه المعلومات ووصولها إلى أصحاب القرار.

وهنا نكتفى بهذا القدر من عرض الكتاب ، فلا يتسع المجال للإلمام بكل أطرافه ، ويكفى أن الكتاب يضئ ويكشف أن السلطة فى طريقها إلى أن تنتقل فى مجالات كثيرة تضم عالم الأعمال والدوائر الحكومية والمجتمع الدولى إلى أطراف أكثر حكمة.

فمنذ العقد الاجتماعى لجان جاك روسو وانتهاء بفكرة السلطة التى تقوم على الحق الالهى المقدس. تعبر السلطة عن رضاء الشعب وتأييده من أجل إقامة الحد الأدنى من القانون والنظام وبدون ذلك تعم الفوضى وتسيطر العصابات على الحياة السياسية ، ويضرب توفلر مثلا ما جرى فى لبنان خلال الحرب الأهلية.

ومن جهة أخرى إذا تعسفت الدولة فى فرض سلطتها فحظرت أى نقد وفرضت رقابتها على المعلومات وكل أنشطة المجتمع، وأخذ رجالها يطرقون الأبواب عند الفجر، فهي دولة تقضى علي النظام الذى تسعى لتحقيقه، ويمكن للدولة الأقل قمعا أن تحقق النظام وتدعم سلطتها، وأن تتحول السلطة في سلاسة ويسر.

أين نحن من كل ذلك ؟ ومازال نصف المجتمع المصرى يعاني من الأمية ، وعليه اليوم أن يتعلم كيف يقرأ وكيف يتعامل مع مستحدثات العصر فى آن واحد .

وهذا هو التحدى الذى ينبغى علينا أن نواجهه .

الفهرس

رقم الايداع
٢٠٠٢/١٦٥٢٨
977 - 07 - 0854 - 2

أحدث اصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠١

الشهر	الكتاب	المؤلف
يناير	زراقة محمد على	تأليف: مايكل الين ترجمة: مجدى شرشر
فبراير	العالم من منظور غربى	د. عبدالوهاب المسيرى
مارس	حديث الزمان	د. أحمد زكى
ابريل	ماذا حدث للمصريين	د. جلال امين
مايو	مسيرتى ومصر فى القرن العشرين	د. مصطفى سويف
يونيو	من التداخل إلى التفاعل الحضارى	د. مجدى يوسف
يوليو	مسرح بديع خيرى	نبيل بهجت

أحدث اصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠١

الشهر	الكتاب	المؤلف
اغسطس	المعمعون فى ساحة الغناء والطرب	عبدالنور خليل
سبتمبر	مذكرات طالب بعثة	د.لويس عوض
اكتوبر	حرب قذرة	تأليف: كليف تورنيل ترجمة: حسن الأهوانى
نوفمبر	تفاصيل الشجن فى وقائع الزمن	محمد المنسى قنديل
ديسمبر	رمضان وفقه الصيام	د.يوسف القرضاوى

أحدث اصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠٢

الشهر	الكتاب	المؤلف
يناير	أعلام فى حياتنا	د.نعمات أحمد فؤاد
فبراير	كشف الاقنعة	د.جلال أمين
مارس	مس الانترنت	د.أحمد محمد صالح
ابريل	أول الحكاية حكايتى مع الدبلوماسية	جميل مطر
مايو	شخصيات وقضايا معاصرة	طارق البشرى
يونيو	ذكريات من حياتى	د.عبدالعظيم أنيس

أحدث إصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠٢

الشهر	الكتاب	المؤلف
يوليو	الأيك فى المباهج والأحزان	عزت القمحاوى
اغسطس	ذكريات باريس	د.زكى مبارك
سبتمبر	هارون الرشيد	تأليف: هارى فيلبى ترجمة: د.صبرى حسن
اكتوبر	الإنسان والحضارة	د.عبدالوهاب المسيرى
نوفمبر	مصر فى فكر العالم	مصطفى نبيل
ديسمبر	الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	د.رشاد عبدالله الشامى

هذا الكتاب

كم هى مثيرة وشيقة، تلك الكتب التى تتناول مصر أو مستوحاة منها، سواء الجديد أو القديم، والموزع على العديد من مكتبات العالم، أو تلك التى مازالت محفوظة لمخطوطات بخط أصحابها؟!

ولم يظهر حتى اليوم مشروع جاد يجمع هذه المخطوطات ويعيد نشرها وتقديمها لمن يحتاج إليها، ومن هذه الأعمال تلك الكتب النادرة مثل مخطوط يمنى يكشف كيف انتفض العرب دفاعا عن مصر. أو كتاب قلم وريشة بريس دافين «قاهرة القرن التاسع عشر» و«كتاب رحلة إلى الشرق» للرحالة الألمانى كريستان تيبور.

وهذا الكتاب سياحة في دروب الكتب، بعضها عربى والبعض الآخر أجنبى، وبعضها صدر حديثا وبعضها الآخر قديم غير معروف.

ويبحث هذا الكتاب فى ملامح الوطن وقضاياه، خاصة فى عقول الآخرين من الزوايا المختلفة. وهو ما يكشف عن مكاننا ومكانتنا فى العصر الذى نعيش فيه.

وما يطرحه هذا الكتاب هو العديد من الأسئلة، التى تدعو إلى التأمل والمناقشة، التى تنتهى إلى حوار فعال مع المستقبل ومع العصر.

ويأتى اختيار هذه الكتب على مقياس محدد ومعيار ثابت، ونقطة البدء أن يكون شيقا وجذابا. وأن ما يتضمنه يستحق المناقشة، ويؤثر بالسلب أو الإيجاب في الأفكار السائدة، ويحرك الساكن ويصيب قارئه بقدر من القلق الذى يدفعه إلى العمل.

وكل كتاب رسالة مهمة، يعمل كاتبها على نشرها، نبعت عن عقله.

ويكفى هذا الكتاب إلقاء الضوء على جانب من حياتنا، وتقديم تفسير لبعض العقبات التى تصادفنا، سواء فى بعدها التاريخى أو بعدها المعاصر.

وربما يأتى على رأس هذه القضايا، قضية «الحرية» باعتبارها حلقة رئيسية تظهر معالم المستقبل، علاوة على علاقتنا بثقافة العالم.

وأخيراً.. نأمل أن يزيد هذا الكتاب من المعرفة، ويساهم فى تنمية القدرة على فهم العالم من حولنا، وإدراك ما يجب علينا أن نقوم به، ويكفيه أن يطرح سؤالاً ما العمل؟!


أدبيات
نساء العرب
مواقف وطرائف ومعارف
أدبيات
غاندى
مقاتل بلا حروب
مجدى سلامة
أدبيات
أحمد بهاء الدين
أدبيات
من شرفات التاريخ
طغاة قريش
رفاعة الطهطاوى
سيكولوجية الإرادة
Bibliotheca Alexandrina
0606721
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع